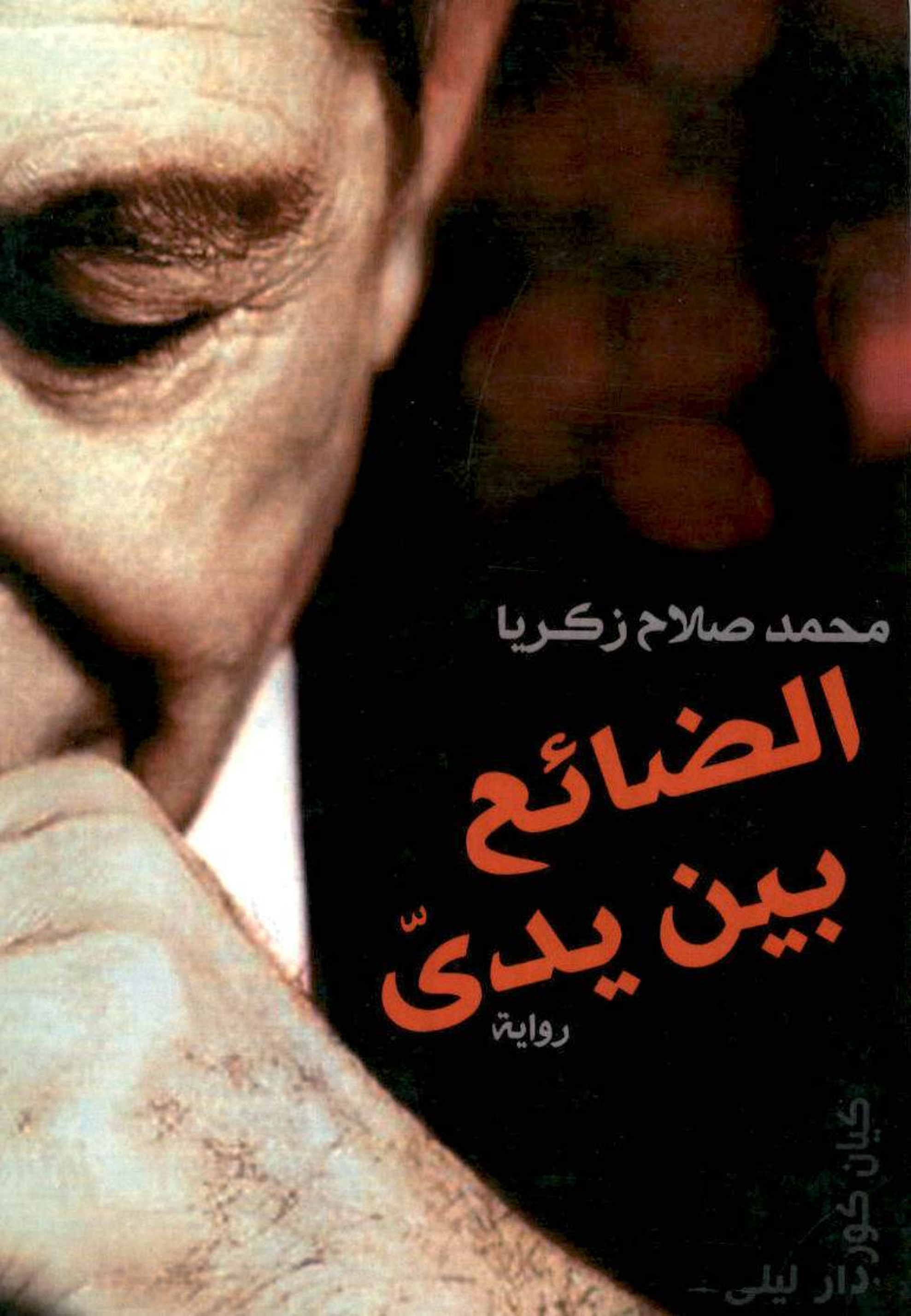

محمد صلاح زكريا
الضائع
بين يدىّ
رواية
دار ليلى - كيان كورب

٢٣٧٨٩٤

محمد صلاح زكريا

"الضائع بين يديَّ"

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

كيان كورب للنشر والتوزيع
(دار ليلى)

الكتاب:
الضائع بين يديَّ
المؤلف:
محمد صلاح زكريا
الغلاف:
محمد محمود
التنفيذ الفني:
حسام سليمان
التدقيق اللغوي:
محمد عبد الغفار
★★★
إدارة التوزيع:
عبد الله شلبي
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★



رقم الإيداع: 2011/11223

الترقيم الدولي: 978-977-6386-33-4

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11
هاتف: (002) (012) 3885295 - (002) (02) 33370042 (002)
البريد الإلكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

١

القضية لا تزال جراحها تنـزف.. إلى متـى؟ لا أحـد يـدري؟ أحيانًـا تذرف الدموع.. وربما تجحد مقلتا العين مما تعـودت أن تـراه حتـى صارت المأساة بطعم الملهاة ذات الفصول البـاردة والأحـداث المكـررة المملـة فانـصرف المشاهدون رغم أن لغة الدماء تحكمنـا.. نـصحو ونغلـق جفوننـا عليهـا.. كـم ضاعت سنوات والقضية لا تزال تنادينا.. نعبـث بآمالنـا ونـسلم أحلامنـا لمـن يتربص بنا.. ونزداد انغماسًـا في التوهـان ونحمـل للمـستقبل الظـلام ونخـدع أنفسنا.. رغم أننا كنا السادة وبأيدينا مقاليد الأمـور.. لكـن رضـينا أن ينفـرط العقد وتضيع حباته الواحدة تلو الأخرى.

الأفكار تدور في رأسـه.. يحـاول أن يفهـم.. أن يـستوعب.. وأحـداث التـاريخ تـتراءى إزاء عينيـه ونـشرة الأخبـار كعادتهـا مليئـة بالإحبـاط والاكتئاب.. لفت نظره على الشاشة الأم الفلسطينية وهي تحمل صورة ابنهـا الشاب الشهيد.. تفاعلت دموعه مع دموعها ولكن ما جدوى الـدموع والآهـات والقضية تزداد اشتعالاً والضحايا يتساقطون والفجر يـأبى القـدوم وكأنـه ضـل طريقه مثلنا؟ الكلام كثير والأفكار ما أكثرها.. لكنها في هذا الزمان ما عـادت

تسمن أو تغني.. وما زلنا نغني للأمل الذي سيأتي يومًا ما.

قطع حبل أفكاره صوت أمه يأتي من الصالة تدعوه أن يسرع بارتداء ثيابه حتى لا يتأخروا على موعد الطبيب.

إنه يوسف خطاب.. شاب في العقد الثالث من عمره.. منذ صغره عُرف بأنه ثوري متمرد على الحياة وما بها من أفكار غريبة عنا ومتناقضات تملأ حياتنا.. عندما كان طالبًا في كلية الهندسة رفض أن ينضم لأي فكر.. فقد كان يكره الشعارات الجوفاء في عالم يتشدق بالعبارات الرنانة والأحلام الوردية والصراعات الوهمية.. وهو في حقيقة الأمر تحكمه المصالح وكأنها كعكة.. كل يبحث عن نصيبه.. اختار لنفسه عالمًا مثاليًا أقرب للخيال خاصًا به تموج فيه الأحلام والغد المشرق.. لكن هيهات هيهات.. فعندما تخرج أدرك أن العالم أقبح مما كان يتصور.. كلما طرق بابًا للعمل وجد المحسوبية في انتظاره.. تغلق الأبواب وتجهض الأحلام.. الأرض أرضنا والوطن وطننا.. لكن يبدو أن هناك من يرفض أن نشاركه في تنفس هواء هذا الوطن.

الرحيل كان هو الحل كما فعل كثير من زملائه..

إلى وطن آخر لعل أناسه يكونون أكثر رحمة..

ودع أفكاره لعله يعود لها يومًا.. وبالدموع ودع والديه رغم معارضتهما الشديدة فهو الوحيد لكنه كان قد اتخذ القرار.

ليبدأ الرحلة ويستقر به الحال في إحدى دول الخليج.. يعمل ويكد لا

يفكر في الغد فهو حتمًا سيأتي في عالم أصبح فيه من يحلم يصَب بالتعاسة.

مر عامان وعاد في إجازة تزوج خلالها ثم اصطحب زوجته إلى وطن العمل وأنجب ولدا أطلق عليه اسم "طارق".. لكن القدر شاء ألا تكتمل السعادة.. فقد كان عائدًا بأسرته بعد فسحة لكن السيارة انقلبت لتموت زوجته وينجو هو ورضيعه.

العروس التي سافرت بفستانها الأبيض الأنيق تصاحبها الزغاريد وتستقبلها ألحان السعادة عادت جثة هامدة بزي أبيض أيضًا تصاحبها الدموع تستقبلها آهات العويل والبكاء..

أيام حزينة قضاها يبكي غير مصدق لما حدث.. قرر البقاء في وطنه حرصًا على رضيعه وحتى يستطيع النسيان..

زاره خال زوجته يواسيه.. وعده بتعيينه في إحدى الشركات الخاصة وبالفعل أوفى بوعده.. بعدها بأيام قلائل رحل الأب لتزداد الأحزان..

الآن يركب السيارة متجها إلى باب اللوق مع أمه إلى الطبيب لتتابع علاجها ومعهما طفله الذي لم يكمل الثالثة من عمره..

العيادة كالعادة مزدحمة.. والطبيب لم يحضر بعدُ.. ابنه بدأ يشعر بالضيق ويبكي.. استأذن من أمه أن يخرج للحظات.. يصطحب معه طارق يشتري له حلوى لعله يهدأ..

بدا الشارع خاليًا على غير العادة بسبب برودة الجو ورذاذ المطر يطاردهما..

ويوسف يسحب ابنه.. تقترب منهما فيسبا يركبها شابان تفحصا يوسف وابنه ثم توقفا على مسافة قريبة وهما يتحدثان ويشيران إلى طارق.. مما أشعل الخوف في قلبه لكنه واصل السير.. يحكم بقبضته على يد طفله حتى مر من أمام الشابين..

فقال أحدهما:

– لو سمحت يا أستاذ.. هل هذا الطفل ابنك؟

سؤال غريب لم يتوقعه يوسف فنظر إليهما بحدة ورد بعصبية شديدة:

– ماذا تريدان؟

وواصل سيره وكأنه لا ينتظر إجابة..

فقال الشاب الآخر وهو يلاحقه:

– يا أستاذ لا تتضايق.. نحن نسألك فقط: هل هذا الطفل ابنك؟

فالتفت يوسف نحوه وهو يرد بعصبية أكثر:

– طبعا ابني واذهبا لحالكما.

الخوف زاد عند يوسف فقرر العودة إلى العيادة فورًا واستدار للخلف

وكـان الـشابان قـد ابتعـدا لكـن فجـأة انـشقت الأرض عنهمـا وهمـا يـسيران بالفيسبا بسرعة عالية ويمران بجوار يوسف وبحركة خاطفة يجذب أحدهما طارق ويضمه إليه بينما يوسف يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يمنع ذلك وهو يصرخ ويجري وراءهما لكن في ثوانٍ كان قد انتهى كل شيء.. اختفى الـشابان ومعهما طارق..

يوسف يبكي لا يدري لماذا خطفا ابنه ومـا الـدافع وراء ذلـك.. هكـذا استطاع الضابط أن يفهم بعض الكلمات من يوسف الذي ظل يهذي بكلمـات لا معنى لها..

الصدمة أكبر منه وتزداد القضية غموضًا.. فلا شـهود ولم يقـرأ أرقـام الفيسبا إن كانت عليها لوحة أرقام أصلاً ولـيس هنـاك خـيط يمكـن الوقـوف عنده..

قال الضابط:

– اذهب الآن يا أستاذ يوسف وسوف نعمل كل ما في وسعنا لكي يعود ابنك.

صرخ يوسف وهو يقول:

– كيف أذهب وابني مخطوف؟ وهل سيبيت ابني بعيدًا عـني بـدلاً مـن أن تـأتي معـي الآن نبحـث عـن طـارق؟ لقـد خطـف المـوت زوجـتي ولا اعتراض.. لكن أن يُخطف ابني وهو حي فلن أقبل ذلك مطلقًا.

– أرجوك يا سيد يوسف دعنا نعمل وفق إجراءاتنا وبإذن الله سيعود ابنك.

– متى؟

– قريبًا بإذن الله.

– ولماذا لا يعود الآن؟ من يدري؟ ربما يؤذيان طارق!

– اطمئن نحن عيون ساهرة لا تنام.

خرج يوسف من القسم تكاد تعجز قدماه أن تحمله لا يصدق ما حدث يتمنى لو أنه في حلم وأن طارق ما زال بين يديه..

سار في شوارع وسط البلد التي صادفت برودة الجو أن تخلو من مريديها على غير العادة ينظر حوله ويلتفت يمينًا ويسارًا لعل عينيه تصطادان طارق..

حلم يحمله أمل لن يهدأ حتى يعثر على ابنه.. فأي شيء يمكن أن يضيع إلا أن يخطف فلذة الكبد أو يضيع دون أن يعلم عنه شيئًا.

خلت العيادة وبقيت السيدة فاطمة بعد أن انتهت من الكشف تنتظر ابنها وحفيدها اللذين خرجا ولم يعودا بعد..

التمرجي يستعجلها يريد أن يغلق العيادة وهي لا تدري سر التأخير.. بينما يوسف عاد للمكان نفسه يبكي لعله يجد ابنه.. الساعة

تجاوزت منتصف الليل وكأن الحياة ليل لا ينتهي..

بلا أمل عاد يوسف باكيًا ليجد أمه تنتظره على باب العمارة قلقة متوترة بمجرد أن رآها ارتمى في أحضانها يولول وكأنه يهرب من العالم..

منذ صغره تعود أن يهرب من أي مشكلة تصادفه إلى حضن أمه.. كان الملاذ الآمن في عالم تحكمه قوانين الغابة يرمي همومه ومتاعبه لأمه وكلماتها كانت البلسم القادر على وأد أي مصاعب.. أما الآن فلم يعد يجدي وقوانين الرجولة تأبى ذلك..

عندما تخرج وفشل في العثور على وظيفة ملائمة هرب إلى بلد آخر..

لم يتعلم مبدأ المواجهة.. صحيح أنه كان يرفض الأوضاع السائدة لكنه بقي بعيدًا لا يريد أن يتحدث لأحد.. خاصة بعد أن حكى له والده قصة جارهم الذي مات في المعتقل من أثر التعذيب لمجرد أنه أعلن رأيه صراحة..

أما الآن فالوضع مختلف من المواجهة.. لا بد من المواجهة مهما كانت العواقب أي شيء يقبله الإنسان إلا أن يمس ثمرة فؤاده بسوء..

وهو وحيد بعد رحيل زوجته.. ليته كان مثلها اختار لها القدر الهروب الأكبر من الحياة..

كان يريد أن يعيش في سلام.. لكن الحياة لا تريد أن يهنأ أحد بما اختاره ويبقى مسافرًا في رحلة تكرهها.. لكن الأقدار رسمت ذلك وبحر

الزمان يبدو بلا شواطئ.. فمن يستسلم؟ ومن يواصل الرحلة للنهاية ليحقق مراده؟

هي الحياة لا مفر.. إلى متى يسدل الستار؟! لا أحد يدري.

يتساءل يوسف: لماذا لا نعيش كلنا في وئام وسلام.. أم أن من صفات البشر التي لا يمكن الاستغناء عنها الصراع والغدر؟

يصرخ: لماذا خطفا ولدي؟ ماذا يريدان؟ ومن هما؟ لو أرادا مالاً لدفعت لهما.. أي شيء يطلبانه مستعد لفعله في سبيل أن يطلقا سراح وحيدي..

أنا لم أؤذِ أي أحد من قبل فلماذا يريدان أن يحرماني من طفلي الوحيد يتيم الأم الذي لا يعرف أي شيء.. أين أنت الآن يا طارق؟ كيف حالك؟ ماذا فعل بك الوغدان؟

هكذا ظل يوسف صبابة ليله يبكي على ابنه..

في الصباح طار إلى قسم الشرطة مرة أخرى تحمله الآمال.. عرضوا عليه صورًا شتى للمسجلين خطرًا لعله يتعرف على من خطفا ابنه لكن لا وجود لتشابه.. فصورة الشابين لا تزال مطبوعة في ذاكرته لن تمحى..

في إدارة الأحداث بقسم الأزبكية عرضوا عليه الأطفال الذين تم تجميعهم من الشوارع أمس.. عشرات الوجوه البريئة الحائرة التي لا تعرف للحياة معنى ولا لماذا جاءوا إليها.. ما ذنبهم أن يلقوا في الشوارع بلا مأوى؟ هل هم جناة أم مجني عليهم؟ لا تسأل القدر ولا تلومن الحياة.. يبدو أن

الزمان ضاق بنا وما عاد للزحمة سبيل تنادي به..

أعواد خضراء أصابها الذبول مبكرًا.. دموع يوسف تتفحص وجوه هؤلاء البؤساء.. لماذا أتوا بهم؟

يتساءل: أكل هؤلاء عثروا عليهم في ليلة واحدة؟ أين أهاليهم؟ إلى الحياة أم يكون الضياع مصيرهم؟

أسئلة شتى وتبقى الإجابات لغزًا وطلاسم لا تعرف حدودًا ولا نهايات.. والمأساة تكبر تحطم الثوابت وتنشر مزيدًا من التوهان في زمن هان فيه كل شيء.

طارق ليس بينهم.. إجابة يائسة من يوسف.. فقالوا له اترك صورته وعندما يصلنا أي شيء سوف نتصل بك.

نهاية دبلوماسية خرج بها يوسف تعتصره آهات اليأس والإحباط.. عليه أن يبحث بنفسه.. لكن من أين يبدأ؟ سؤال قاله وهو يتنهد وأمامه ميدان رمسيس بلا حدود وأمواج البشر لا تهدأ وأبواق السيارات تنشد أوركسترا نشازًا ويوسف يشق طريقه وسط الزحام يحاول أن يتحقق من الوجوه لكنها تمر كالبرق كأنها في سباق يكاد يسقط كلما فكر في التوقف.. فالتدافع على أشده.. كيف يبحث عن ولده وسط هذا الزخم من المعقول واللا معقول؟ الإنسان كحبة الملح التي تلقى في البحر.. يسير على غير هدى.. في إشارة المرور طفلة صغيرة تمر على السيارات تتسول.. زهرة منكسرة يراقبها

يوسف يتخيل طارق مكانها ينخلع قلبه وهو يقول: لا.. غير معقول.

أسفل كوبري الجلاء شاهد طفلين يفترشان الأرض يرتديان ثيابًا متسخة تكشف أكثر مما تستر.. تخيل لو أن أحدهما طارق.. أسرع نحوهما.. وجهاهما صبغا بلون التراب.. الدموع تنساب على خدي يوسف من منظرهما.. تساءل: أين أسرة كل منهما؟ أين المتشدقون بالشعارات والباحثون عن لحن الفرسان والمهللون بكلمات الفداء.. أم أن الألسنة كالعادة خرساء لا تسهل بالكلام إلا في سرادق اللئام؟ اقترب منهما يسترق السمع لحديثهما.. أحدهما قال لزميله:

- أنت مجنون هل تريد التمرد على المعلم التوربيني؟

- إنه يستعبدنا يأخذ كل ما نكسبه من التسول.

- أخاف أن يصيبك ضرر منه.. أنسيت الأسبوع الماضي أنه ألقى الولد سمير من فوق القطار أثناء سيره لأنه خالف أوامره؟

اقترب يوسف أكثر.. مما جعلهما يلاحظان ذلك.. خاصة نظراته التي تتفحصهما فارتعدا خوفًا وانطلق كل في اتجاه ويوسف يلاحقهما وهو يقول:

- لا تخافا سأحميكما من التوربيني..

لكنهما ذابا في الميدان..

كلمات الطفلين ما زال صداها يتردد في أذني يوسف.. وكلما تذكر مقولة إن التوربيني ألقى بطفل من فوق القطار أثناء سيره ارتعدت أوصاله كأن حية لدغته..

لا يستقر به مقام.. القلق يكاد يقتله والدموع لا ينقطع سيلها يعود لنفس الشارع الذي خطفا فيه منه طارق يكاد يصرخ:

الآن يا شارع تعج بالمارة.. ما أخرسك بالأمس وأصابك.. أم تواطأت مع الوغدين على خطف أعز من لي في الحياة؟

النوم لم يعرف له طريقاً يود الخروج للبحث مرة أخرى يتقلب على فراشه كمن يتقلب على الجمر..

أين طارق الآن؟ ماذا فعلا به؟ شبعان أم جوعان؟ يبكي ويسأل عني؟

بمجرد أن استسلم للنوم للحظات حتى هاجمه كابوس مفزع.. رأى شخصًا كريه الهيئة يعتقد أنه التوربيني يمسك بطارق فوق سطح القطار الذي يسابق الريح ويهم التوربيني بإلقاء طارق بينما يوسف يسرع نحوه وهو يصرخ بشدة قائلاً:

طارق.. لا تقتل طارق.. أرجوك اتركه..

وظل يردد ذلك حتى أفاق ليجد والدته تمسك به وتحاول تهدئته..

في الصباح الباكر هرع إلى مباحث الأحداث يحدوه الأمل.. ضحك

الضابط بسخرية عندما أخبره يوسف بحكاية التوربيني وهو يقول:

"توربيني ولا أسباني".

فرد يوسف على الفور:

– يا أفندم صدقني لقد سمعت بالأمس هذا الحديث..

– وما الدليل؟

– الطفلان.

– وأين هما؟

– للأسف هربا..

– وهل يعقل هذا؟ مجرد حوار بين متشردين تعتبره قضية؟

– الأطفال لا يكذبون..

– الأطفال خيالهم واسع.

– أرجوك يا أفندم...

فقطع حديثه الضابط قائلاً:

– أرجوك أنت ساعدنا حتى نصل لحقيقة خطف ابنك..

– وأنا لم أتأخر.

– هل لك أعداء؟

- أنا لم أعرف في حياتي معنى الخصام حتى يكون لي أعداء.

- إذًا تعتقد من يكون وراء خطف ابنك؟

فانبثقت الدموع من عيني يوسف وهو يقول:

- وهل لو كنت أعرف أحدًا أنتظر حتى الآن؟!

"والد الطفل هيثم وصل".. يدخل العسكري وهو يقول هذا..

"أدخله".. رد الضابط..

يدخل رجل نحيف أصابه الشيب مبكرًا يرتدي جلابية لا تعرف لها لونًا..

يقوم الضابط وهو يتجه نحوه ويقول في حدة:

آخر مرة أحذرك فيها لو هرب ابنك لو وقع في قبضتنا مرة أخرى سأودعه الأحداث وسيكون لنا معك تصرف آخر..

"حاضر يا أفندم".. يرد الرجل في انكسار..

"لماذا تترك ابنك للشارع"؟ يقوم يوسف ويسأل الرجل..

- والله يا أفندم أنا فعلت معه المستحيل لكنه هو الذي يهرب..

"أكيد أنت تعامله بقسوة".. يرد يوسف بعصبية..

- لا يا أفندم.. وهل هناك أغلى من الضنا؟ إنه لو طلب عيني

لأعطيتها.. إنني أعامله بكل حنان وحب.. كل أولادي مطيعون لكن هذا الولد احترت معه.. فشل في المدرسة ورفض الذهاب إليها ولم أمانع.. لكنه يهرب ويبيت بالأيام خارج البيت.. حاولت أن أعلمه صنعة لكنه لا يستقر على حال..

"حافظ عليه من ذئاب الشوارع التي لا ترحم".. قال يوسف.

فرد الضابط موجهًا حديثه للرجل:

- اخرج الآن وسوف تمضي إقرارًا بتسلم ابنك والتعهد بالحفاظ عليه..

خارج مكتب الضابط شاهد يوسف سيدة منكسرة تبكي وهي تمسك بصورة ابنها الضائع.. تذكر صورة الأم الفلسطينية..

تتباين القضايا وتتشابه الآلام.. وجوه أطفال جديدة يراها.. زهور تبحث عن الأمان..

وطارق لا أثر له ويوسف حائر.. كلهم أطفال فوق الرابعة.. أما طارق فهو ابن الثالثة.. شيء غريب ومريب..

شابة تتحاور مع الأطفال وتدون ما يقولونه.. يقترب يوسف منها ويسألها: هل لك طفل ضائع؟ تبتسم وهي تقول:

"لا.. أنا أعمل رسالة ماجستير عن أطفال الشوارع".

"وماذا عن الذين يخطفون الأطفال من الشوارع؟".. رد يوسف بحدة..

"لا أفهم ماذا تقصد".. بدت الدهشة عليها وهي تقول.

حوار طويل دار بين يوسف وشاهيناز.. بعد أن تعرف على اسمها تعاطفت معه وخففت من آلامه وهي تقول:

– اصبر يا أستاذ يوسف.. إن شاء الله سوف تعثر عليه.. صحيح أن هناك مافيا وراء ظاهرة أطفال الشوارع وخطفهم من أجل تسخيرهم في أعمال التسول والسرقة لكنها سحابة سوف تنقشع قريبًا..

– أنت متفائلة زيادة على اللزوم.. المافيا التي تتحدثين عنها تتضخم يومًا بعد الآخر حتى صارت وحشًا نعجز عن مواجهته.. لقد سمعت بأذني وشاهدت طفلين وهما يتحدثان عن شخص اسمه التوربيني ألقى بطفل من فوق القطار أثناء سيره.

– معقول هذا؟ أين يوجد هذا التوربيني؟

– لا أدري.. أخشى ما أخشاه أن يقع ابني تحت وطأة هذا الوغد..

– للأسف مئات الجرائم تُرتكب دون أن نسمع عنها شيئًا.. خاصة في حق الأطفال.. رغم أن حماية هؤلاء الصغار مسئوليتنا جميعًا.

– ليس كل إنسان إنسانًا.. هناك من يحمل الحب وهناك من يتربص بالآخر.. وما أكثرهم في هذا الزمان.. ضاع الإحساس.. اللئيم تراه في لباس

الطيب وتساوت كل الألوان وتعجز عن إدراك النفيس من الخسيس..

– أنت تحمل آلامًا لا حدود لها..

– فلذة كبدي خُطف من بين يدي.. كل شيء يهون إلا ما حدث.. لم أفكر يومًا في إيذاء أحد فهل يكون هذا جزائي؟!

ودع شاهيناز بعد أن اتفقا على اللقاء غدًا.. وفي المساء زاره صديقه طه وصدم بخطف طارق وقال:

– لماذا تسكت على خطف ابنك؟

– وماذا أفعل؟

– تقيم الدنيا ولا تقعدها..

– وهل هذا يكفي لعودة طارق؟!

– أخشى أن يكون التأخير في غير مصلحته.. هل تعلم أن هناك عصابات متخصصة في سرقة الأطفال.. خاصة ممن هم في سن طارق؛ حيث لا يدرك الطفل كثيرًا عن الحياة وعن أسرته ومن السهل الضحك عليه؟

بدت الدهشة والخوف على وجه يوسف وهو يقول:

– ولماذا يخطفون الأطفال؟ هل لاستخدامهم في أعمال التسول والسرقة؟

– هناك ما هو أخطر من ذلك.. إنهم يخطفون الأطفال من أجل سرقة

أعضائهم الداخلية مثل الكليـة والقرنيـة وبيعهـا بأسـعار فلكيـة؛ لأن هنـاك أطفالاً يولـدون مـصابين بالفـشل الكلـوي ويحتـاجون إلى كليـة.. وهنـاك مـن يخطف الأطفال لبيعهم لأناس لا ينجبون وغيرهما من الأسباب.

- من أين عرفت هذه المعلومات؟

- سمعت ذلك.. ولكن كما قلت لا تقف مكتوف اليدين.

فرد يوسف بعصبية:

- قل لي ماذا أفعل وأنا أنفذه فورًا.. هل تعتقد أنني سلبي في البحـث عن ابني؟ بداخلي نار لا تهدأ..

- اهدأ يا صاحبي.. كـان الله في عونـك.. علـى فكـرة أنـا لـي صـاحب يعرف سكة رجل سمعت أنه يجمع الأطفال من الشوارع ويعلمهم التسول.

فرد يوسف كالغريق عندما يجد طوق النجاة يقترب منه:

- أريد مقابلة هذا الرجل فورًا.

- سأتصل بصاحبي ليحدد لنا موعدًا لمقابلـة هـذا الرجـل علـى وجـه السرعة.

خرج طه من عنده تطارده أفكار شتى.. منذ لحظات تشاجر مع والـده بسب جلوسـه في البيـت مـن دون عمـل مثـل بقيـة أقرانـه.. تخـرج في كليـة الاقتصاد والعلوم السياسية يحمل جبالاً مـن الأحـلام وزهـور التفـاؤل.. قـدم

نفسه للمجتمع بابتسامة صافية يعتقد أنه كالبطل المنتصر عندما يعود من المعركة.. انتظر أن تفتح له الأبواب وتتحول أحلامه لواقع.. لكنه نظر للشمس وجدها ظلامًا.. وجد نفسه خارج الميدان لا يمتلك واسطة أو محسوبية تقدم لامتحان وزارة الخارجية.. سخروا منه.. من أنت حتى تفكر في أن تحلم؟ حاول أن يفهم.. يستوعب.. لم يجد سوى هواء اليأس يتنفسه.. لا أحد يعترف به.. صارت شهادته سيفًا خشبيًا لا يقوى على الدفاع عنه وأن يجد لنفسه مكانًا.. وزملاؤه ممن يمتلكون واسطة ركبوا القطار.. تركوه ومن على شاكلته غرباء على محطة مقفرة.. جاره الذي دخل معه يومًا المدرسة لكنه كان يهرب منها وفشل فيها ليتجه للعمل في ورشة ميكانيكي.. اليوم جاره هذا الأسطى عرفة يعرض عليه العمل عنده بعد أن أصبح صاحب ورشة كبيرة وصار يمتلك عددًا من السيارات الفارهة وشقق التمليك وشاليهات في الساحل الشمالي:

"يا أستاذ طه أنا مشفق عليك.. تعالَ امسك لي حسابات الورشة"..

لم يجد طه سوى الموافقة.. لكنه لم يستمر سوى بضعة أيام بعد أن كاد الإحباط يقتله.. فجاره الذي ترك التعليم حقق أحلامه واعترف به المجتمع.. أما هو صاحب الشهادة من كليات القمة فنبذه المجتمع.

* * *

2

تبقى الأحـزان تـلازم يوسـف في ليلـه.. وأمـه بجـواره تبكـي ضياع حفيدها فيحاول أن يخفف عنها قائلاً:

– كفى يا أمي.. ما كتبـه القـدر سـوف يكـون.. لـيس بأيـدينا سـوى الدعاء.

– منهم لله من حرقوا قلوبنا وخطفوا قرة أعيننـا.. فيـا رب.. يـا رب أرجعه لنا سالمًا.

يحاول يوسف أن يخفف مـن قلقـه وتـوتره.. يفـتح التلفـاز ويمـسك الريموت يتنقل بـين القنـوات بـلا هـدف أو تركيـز منـه.. حتـى وصـلت إلى مسامعه جملة خطف الأطفال فركز كل حواسه على ما يقـال.. كـان برنامجـًا تليفزيونيًا يناقش قضية خطف الأطفال فقال مقدم البرنامج:

– ما حقيقة ما يقال عـن خطـف الأطفـال؟ هـل هنـاك بالفعـل وقـائع لأطفال تم خطفهم.. أم هي مجرد شائعات؟

ثم استطرد:

– نحن نفتح هذا الملف للوصول للحقيقة وطمأنة الناس.. ويسعدنا تلقي مكالمات من السادة المشاهدين حول هذا الموضوع الخطير جدًا..

صرخ يوسف على الفور: ليست شائعات.. بل هي حقيقة.. وأسرع يمسك بالتليفون يطلب رقم البرنامج.

رد المذيع على الهواء مباشرة:

ألو.. نتعرف بسيادتك..

– معنا الآن اتصال تليفوني من أحد المواطنين.

رد يوسف والكلمات تتزاحم على شفتيه:

– سيادتك.. تتحدثون عن قضية خطف الأطفال التي هي حقيقة؛ لأن ابني طارق وعمره ثلاث سنوات تم خطفه أمام عيني.. شابان هجما عليَّ أثناء سيره معي وخطفاه.. تصور أن الخطف حدث في وسط البلد.. أشد مناطق القاهرة ازدحاما.. خطفاه من بين يديَّ.

وهنا غلبه البكاء فلم يستطع أن يكمل فرد المذيع قائلاً:

– أرجوك اهدأ.. نريد أن نتعرف على سيادتك أولاً.

رد يوسف وما زال البكاء يخنق كلماته:

– أنا المهندس يوسف خطاب.

نريد أن نعرف تفصيلات أكثر عن كيفية خطف ابنك.

- أهلا يا باشمهندس.

قصَّ يوسف قصة الخطف وكيف تمت.. أعقبه رد المذيع:

- شيء مخيف أن يتم خطف طفل في منطقة وسط البلد.. هذا جرس إنذار لكل أب وأم.. ونحن لا ننكر دور وزارة الداخلية ولكن لا بد من محافظة الأهل.

رد يوسف بعصبية:

- وماذا يفعل أب وهو يمشي مع طفله فيهجمان عليه ويخطفان الطفل؟

هل نمنع سير الأطفال في الشوارع ونحبسهم في البيوت فلم يعد أمان؟

- مهندس يوسف.. نحن نقدر موقفك.. ونحن لن نغلق هذا الملف حتى نصل للحقيقة.. ونحن نوجه نداء من هنا لوَزارة الداخلية بالاهتمام بقضية خطف الطفل طارق حتى يعود لأحضان والديه..

رد يوسف وقد غلبه البكاء مرة أخرى:

- والدته توفيت منذ عام تقريبًا وهو ابني الوحيد.

- أريد منك أن تتماسك.. وبإذن الله سوف يعود طارق.. ما رأيك لو شرفتنا غدًا في البرنامج لتتحدث أكثر عن قضية ابنك كحالة من حالات خطف الأطفال ونحاول أن نساعدك في الوصول لابنك؟

رد يوسف على الفور:

- موافق طبعًا.

أنهى المذيع الحوار بقوله:

- ونحن في انتظارك غدًا إن شاء الله.

وضع يوسف السماعة وهو يشعر بانتعاشة أمل اجتاحته.. ووالدته تواصل تضرعها.. وثمة تساؤلات تناوشه هل يكون هذا البرنامج بداية انطلاقه نحو الوصول إلى ابنه؟ فهو لا يعرف نقطة يبدأ من خلالها.. فالأيام تطويها أيام.. والضباب ما زال يقتل شمس الآمال في مهدها.. والأحلام كلها تطاردها كوابيس الخوف من المجهول.

هل سيرى طارق مرة أخرى؟ ومتى؟ وهل سيلقاه حيًا أم ميتًا.. أم أن القدر كتب ألا يجمعهما في الدنيا مرة أخرى؟

الليل طويل وكئيب.. لكن دائمًا يعقبه الفجر.. لكن ما أصعب لحظات الانتظار.

في الصباح عاد لعمله لعله ينسى لكن كانت المفاجأة في انتظاره.. لقد صدر قرار بنقله إلى موقع العمل براس غارب بالبحر الأحمر.. حكى ظروفه واستحالة سفره قبل أن يعثر على ابنه لكن بلا جدوى بحجة أنه لا توجد استثناءات.. دخل إلى مدير الشركة يطلب استثناءه من النقل.. تعنت المدير..

جعل يوسف يتحدث معه بطريقة اعتبرها المدير غير لائقة فتعقد الموقف أكثر.. مما جعل يوسف يخرج ثائرًا تاركًا استقالته وراءه.

فور خروجه رن هاتفه المحمول.. رد ليجد ضابط المباحث يدعوه للحضور على الفور فصاح يوسف:

– هل وجدتم طارق؟

لكن الضابط لم يرد سوى: تعالَ وسوف تعرف كل شيء.

المسافة من مدينة نصر إلى رمسيس قصيرة.. لكن شدة الزحام تطيل المسافات خاصة فوق كوبري 6 أكتوبر والسيارات تتحرك تحرك النمل ويوسف يود لو يطير بسيارته ليصل للضابط ويعرف حقيقة استدعائه بهذه السرعة.. فلا شك أنه حدث خطير ومن يدري؟ ربما عثروا على طارق.. هكذا حدث نفسه.. الأمل يكبر كلما اقترب من الوصول للقسم.

كالعادة وجد الضابط يجلس متجهمًا فقال يوسف متلهفًا:

– خير يا أفندم؟

فأشار الضابط له بالجلوس.. ففعل يوسف وهو يكاد يصرخ لكي يتحدث الذي قال بعد هنيهة:

– ما هذا الذي فعلته بالأمس؟

– ماذا تقصد سيادتك؟

- اتصالك بالتليفزيون وهذا الكلام الذي قلته.

- وما المانع في ذلك؟

فرد الضابط بشيء من العصبية:

- نحن نحاول تهدئة الناس ونفي كل ما يقال عن خطف الأطفال لكن سيادتك بكلامك هذا تثير البلبلة.

فرد يوسف بنوع من التحدي:

- أنا لم أختلق وقائع.. أليس خطف ابني حقيقة واضحة وضوح الشمس؟

- لكن كلامك لا يساعدنا في البحث عن ابنك.

- ما علاقة كلامي بكم؟ أنتم تبحثون عن ابني وأنا أيضًا من حقي البحث عنه بالكيفية التي أراها.

- هذا خطأ.. لأن كلامك يفسد خطتنا في البحث عن ابنك.

- بصراحة أنا لا أفهم ما العلاقة بين كلامي وخطة البحث عن ابني.

- قد يشاهدك من خطفا ابنك فيتصرفان تصرفات طائشة تضر بابنك.

- هذه احتمالات.. ومن يبحث عن أغلى شيء له في الوجود يفعل المستحيل ولا يقف عند أي حاجز.

- أرجوك يا سيد يوسف.. إذا كنت تريد مساعدتنا فيجب أن تسمع

كلامنا.

– لكني لا أرى أي تقدم يساعد حتى في جمع معلومات عن خطف ابني.

– قريبًا إن شاء الله سيعود لك ابنك.

– وأنا في انتظار ذلك.

– ماذا ستفعل الليلة؟

– ماذا تقصد؟

– هل ستذهب للتليفزيون؟

– طبعًا.

فضرب الضابط المكتب بكفه وهو يقول:

– قلت لك: لا تتحدث في هذا الموضوع.

– رجعوا لي ابني ومستعد لترك البلد كله.

– قلت لك: اصبر وسيعود ابنك.

فرد يوسف بعصبية:

– اسمع يا حضرة الضابط.. ليس من حقك أن تصادر حقي في التحدث عن أي شيء..

فقاطعه الضابط:

- هذا صحيح.. لكن كما قلت من مصلحة ابنك ترك الموضوع لنا حتى يعود.. لأن تدخلك قد يفسد تحركاتنا.

- ليس صحيحًا.. إنك لا تريد ظهوري في التليفزيون حتى لا أظهر فشلكم وأسبب لكم إحراجًا.. أليس هذا هو الصحيح؟

- أنت حر ولكن نصيحة أخيرة.. فكر جيدًا في مصلحة ابنك.. كثيرًا ما يضر الكلام أكثر مما يفيد.

رد يوسف بدموع حارقة:

- لم أعد أدري الصواب من الخطأ.. الصورة قاتمة وكأني أبحث عن سراب.

قابل شاهيناز حسب الموعد المحدد وخرجا من القسم يسيران في الشارع.. قالت:

- برافو.. لقد سمعت حديثك في التليفزيون.. خطوة جزيئة ومفيدة.

الحزن يرسم ملامح يوسف ويلزمه الصمت فقد كان مشغولاً بكلام الضابط.. لكنها واصلت حديثها:

- وظهورك اليوم سيكون له مردود إيجابي.

فابتسم يوسف بسخرية مما جعلها تقول:

- ماذا بك؟

- هل صحيح أن الكلام يضر أكثر مما ينفع؟

- ربما.. لكن ما علاقة ذلك بحديثنا؟

- وهل صاحب الحق عليه أن يسكت؟

- لو سكت ربما يضيع حقه.

- إذًا لماذا يطلب مني الضابط الصمت؟

- أي صمت؟

- يعاتبني على كلامي في التليفزيون بالأمس بل ويطلب مني عدم الظهور الليلة في البرنامج بحجة أن ذلك يفسد القضية ويفشل تحركاتهم.

- لا أفهم منطق الضابط في ذلك.. على كل حال دعك من كلامه وجهز ما ستقوله الليلة.

- لن أذهب.

- لا تفوت الفرصة.

- مصلحة ابني تقتضي ذلك.. هكذا قال الضابط.

- الضابط مرة أخرى؟! أعتقد أن من مصلحة الضابط ألا تظهر في البرنامج.

قال يوسف وهو يمسك بدماغه:

– أنا خلاص.. أشعر أن عقلي يكاد ينفجر من التفكير.

– الدنيا تفتح ذراعيها لكل مجتهد.. لا بد أن تطرق الأبواب كلها.

– أنا لا أجد بابًا واحدًا أطرقه.

– لا تقُل هذا.. حتى لو أغلقت الأبواب كلها فهناك باب لا يغلق أبدًا في وجه من يطرقه.. باب العدل الكريم سبحانه وتعالى.

بكى يوسف وهو يعصر دماغه والعرق يتصبب من جبهته:

أستغفر الله.. استغفر الله..

– شدة الألم تعمي القلوب أحيانًا.

توقفت شاهيناز وكانا يسيران أمام مؤسسة الأهرام وقالت:

– هل معك صورة لطارق؟

– طبعًا.

أخرج يوسف الصورة.. نظرت شاهيناز ودققت في ملامح الطفل.. بدت الدهشة الشديدة على وجهها.. انقبض قلبها.. أفاقت عندما سألها يوسف عن سبب دهشتها لكنها أومأت برأسها أنه لا يوجد شيء وكأنها تطرد أفكارًا اجتاحتها ثم قالت وهي تبعد عينيها عن الصورة:

- تعالَ معي.

دخلا مؤسسة الأهرام واتفقا على نشر صورة طارق غدًا في الجريدة بجانب صور المفقودين ثم انطلقا إلى الأخبار ثم الجمهورية وفعلا الشيء نفسه.

3

جاء المساء.. والتفكير والحيرة يتلاعبان بأعصاب يوسف.. هل يذهب حسب الميعاد للبرنامج أم يعمل بنصيحة الضابط ولا يذهب؟ اختيار صعب في امتحان دخله مجبرًا فلم يكن يتوقع هذا الامتحان وتلك المحنة.. يعذبه طول الرجاء ويكاد الخوف يقتله.. ما زال يرتدي ثوب الأمل لكن يخشى أن يبلى فيصبح عاريًا لا يجد إلا رداء اليأس.

وتنهار الأحلام كلها.. كلما هم بارتداء ثيابه ترن في أذنه كلمات الضابط.

كلمات شاهيناز تحثه على الذهاب.. استشار أمه فنصحته بأن يسمع كلام الضابط فهو أكثر دراية وحتى لا يندم بعد ذلك.

شعر براحة لكلام أمه.

في اليوم التالي قابل شاهيناز حيث ذهبا إلى مديرية أمن القاهرة وتقابلا مع أحد قيادات المديرية.. وبعد أن شرح له يوسف أبعاد القضية كان الوعد ببذل المزيد من الجهد لسرعة عودة طارق.

وجه يوسف الشكر لشاهيناز لوقوفها بجواره أثناء جلوسهما في أحد الكازينوهات فقالت:

– لا تقل هذا.. إنها قضيتي أيضًا لقد أخذت عهدا على نفسي ألا يهدأ لي بال إلا عندما يعود طارق سالمًا إن شاء الله.

– لكنك تعطلين مصالحك.

– لقد أحببت طارق دون أن أراه وكل أمنيتي الآن أن أراه.

– وهو بلا شك عندما يقابلك سوف يحبك.

– إن شاء الله.

– أنا في حيرة الآن.. هل أشكر الظروف هذه التي جمعتنا رغم أنها الظروف نفسها التي كانت سببًا في ضياع ابني؟!

– في الأحوال كلها لا بد أن نرضى.

– نعم.. لا بد أن نرضى.. فالأقدار تحمل الخير للإنسان حتى لو اعتقد غير ذلك.. لكن أنا لم أعرف عنك أي شيء حتى الآن..

– أنا إنسانة عادية.. أبي موظف وأمي ربة منزل ولي أخ بكلية الحقوق.

– اسمحي لي أن أسالكِ سؤالاً: لماذا لم ترتبطي حتى الآن؟

– لقد وضعت هدفا منذ تخرجي.. ألا وهو استكمال دراستي العليا..

لهذا رفضت أي شخص تقدم لـي.. دعـك مـني الآن وقـل لـي: لمـاذا لم تـسمع كلامي وتذهب للبرنامج؟

– ربما يكون ذلك في مصلحة ابني.. على فكرة لـي صـديق اسمـه طـه أخبرني أنه يعرف طريق معلم من الذين يستغلون الأطفـال في التـسول وبيـع السلع التافهة ووعدني بأن يرتب لي موعدًا معه.

– برافو.. لكن هل تـسمح لـي أن أذهـب معـك لأن ذلـك لـه فائـدة في رسالتي؟

– سأخبرك فور معرفتي بالموعد.

– هناك موضوع آخر ألا وهو عملك..

– لقد تقدمت باستقالتي ولن أتراجع.

– وماذا ستفعل إذًا؟

– كل ما يهمني الآن هو ابني.. سوف أتفرغ للبحث عنه.. والحمد لله معي قرشين في البنك كنت أضعها للظروف والطوارئ.. وأعتقد أنه ليس هناك ما هو أشد مما أنا فيه.

عاد يوسف ينتظر مكالمة طه لعله يحمل الأمل.. يعذبه طـول الرجـاء وتستبد به الليالي وتتأرجح به بشائر الانتظار.. زاد من قلقه أن رأى مظـاهر التعب والإرهاق تبدو على والدته فقال لها مشفقاً:

- هل تأخذين الأدوية في مواعيدها كما حدد الدكتور؟

- طبعًا.

- هل تشعرين بالتعب؟

- يا ولدي لا تشغل بالك بي.. أنا والحمد لله بخير.

- كيف لا أشغل بالي يا حبيبتي يا نور عيني ونبض فؤادي؟

فضحكت أمه.. فقال على الفور:

- الله.. ما أجمل ضحكتك يا أمي.. أريد أن أراها دائمًا فهي القوة التي تعينني على تحمل الصعاب.

رن جرس الهاتف.. فأسرع يوسف يرفع السماعة ليجد صديقه طه كما توقع الذي قال:

- أبشر يا صاحبي واستعد للقاء المعلم عكاشة غدًا إن شاء الله.

بعد أن أنهى المكالمة اتصل فورًا بشاهيناز يخبرها بلقاء الغد.

وجاء الغد والتقى الثلاثة تجمعهم سيارة يوسف في طريقها إلى منشية ناصر حيث يوجد المعلم عكاشة.. وكان طه يشرح لهما كيف استطاع أن يأخذ موعدًا من عكاشة.. فرد يوسف بتهكم:

- يعني ميعاد مع الوزير يا خي؟

فصاح طه مدافعًا:

- أصعب بكثير.. هـذا الرجـل لا يقابـل أحـدًا.. وأتحـدى أي إنـسان يستطيع الوصول إليه.

فردت شاهيناز:

- ولكن لماذا تتركه الشرطة هكذا؟

فرد طه:

- أرجوك لا تتحدثي بهذا الكلام عندما نقابلـه.. حتـى لا يظـن أننـا مرشدون للمباحث فلا يساعدنا.. وربما أصابنا أذى منه.. ولكن كل مـا أعرفـه أن الشرطة فشلت في إدانة هذا الرجـل أو الوصـول لأي دليـل يدينـه.. وكلمـا قبضوا عليه يخرج لعدم كفاية الأدلة.

فردت شاهيناز:

- غريب هذا والجميع يعرف أنه يستغل الأطفال ولديه جيش منهم ويستولي على ما يأتون به سواء عن طريق التـسول أو الـسرقة وبيـع المناديـل والنشل.. لهذا فلا حل لقضية أطفال الشوارع إلا بوَأد هذه النوعيات من أمثال عكاشة.

فرد يوسف:

- ولا تنسي التوربيني.

فردت قائلة:

- هناك للأسف المئات من عكاشة والتوربيني وغيرهما يعيثون في الأرض فسادًا.

فقال طه:

- يبدو أن الآنسة متحمسة أكثر من اللازم.

فرد عليه يوسف:

- نسيت أن أخبرك.. الآنسة شاهيناز تعد رسالة ماجستير عن أطفال الشوارع.

فقال طه:

- لكن يا آنسة شاهيناز هناك فرق بين الدراسة الأكاديمية والحياة العملية.

فقالت:

- من أهم أسباب المشكلات التي نعانيها أن هناك بالفعل فجوة بين الدراسة الأكاديمية والحياة العملية.

قال يوسف موجهًا حديثه لطه:

- هل تعتقد أننا قد نجد طارق عنده؟

- كل الاحتمالات واردة.. وحتى لو لم نجد طارق فهذا الرجل يعرف طرقًا ومسالك كثيرة يمكن أن تساعدنا.

السيارة تطوي الطريق حتى وصلوا إلى المقابر يشقون طريقهم وسط الأموات وطه يمسك بورقة يحدد من خلالها خط السير حتى ظهر أمامهم رجل ضخم فظ ذو ملامح غليظة أمرهم بالتوقف والخروج من السيارة ففعلوا وأخبره طه بأنهم على موعد مع المعلم عكاشة.. فرد الرجل بصوت كريه:

- سيادتك الأستاذ طه؟

- نعم.

- تعالوا معي.

ساروا خلفه وصمت القبور يلف المكان ويوسف يسأل نفسه ويتعجب من أعداد المقابر ويقول: كل هذه مقابر؟ هل أعداد الأموات تفوق أعداد الأحياء؟ لكن ليس كل من على الحياة حيًّا.. هناك كثيرون يعيشون مثلنا لكنهم في حقيقة الأمر أموات.

توقف الرجل أمام حوش يقف أمامه رجلان أشار لهما فأفسحا الطريق ودخل يوسف ومن معه واستقر بهم المقام في حجرة لا يمكن وصفها إلا أنها بالفعل مقبرة.. جلسوا على كنبة عليها فرش بالٍ وتمر اللحظات ويوسف يترقب أن يدخل أحد حتى دخل رجل طويل ذو شارب كثيف وعيناه واسعتان.. ذو نظرات حادة ووجه صارم جلس على شلتة في مواجهتهم وقال بصوت غليظ:

- أهلا بالبهوات.. أي خدمة؟

فرد طه:

- أهلا يا معلم عكاشة.. نحن جئنا إليك من طرف المعلم فرج.

وأكمل يوسف بصوت يحمل الرجاء:

- يا معلم أنا ابني تم اختطافه بالقوة من وسط البلد وهو يسير معي.

- وهل قالوا لكم إنني شرطة الأحداث؟

فقال طه:

- يا معلم أنت رجل شهم وقد جئنا إليك لكي تساعدنا.

وأكمل يوسف:

- يا معلم ممكن يكون أحد رجالك هو الذي خطف ابني.

فظهر الغضب الشديد على المعلم وهو يقول:

- ليس عندي رجال يخطفون الأطفال ولا يمكن لرجل تبعي أن يتجرأ ويفعل ذلك.

فرد طه على الفور:

- يا معلم لا تؤاخذ المهندس يوسف.. فقد خُطف ابنه من بين يديه ولكن ربما يكون الولد قد تعرف على الأطفال الذين يعملون عندك وجاء معهم إلى هنا.

فرد المعلم بعد أن هدأ قليلاً:

- معك صورة لابنك؟

فأخرج يوسف الصورة وأعطاها للمعلم الذي نادى على شخص اسمه مرسي.. الذي دخل على الفور ليعطيه المعلم الصورة وهو يقول له:

- هل هذا الطفل عندنا؟

تفحص الرجل الصورة لحظات مرت كالدهر على يوسف ثم تحدث الرجل قائلاً:

- لا.. ونحن ليس لدينا طفل صغير هكذا.. كم عمره؟

رد يوسف:

- ثلاث سنوات.. وأرجوك دقق جيدًا.

رد الرجل:

- الأطفال الموجودون عندنا أعمارهم بين الخامسة والخامسة عشرة.

قال المعلم عكاشة موجهًا حديثه لمرسي:

- هل حدث أن خطفنا طفلاً من أهله؟

- استحالة يا معلم.. نحن فقط نجمعهم من الشوارع.

فنظر المعلم إلى يوسف ورفيقيه قائلاً:

- صدقتم أنني لا أخطف الأطفال.. أنا فقط أجمعهم من الشوارع

وأحميهم من الانحراف.

فردت شاهيناز باحتجاج:

- كيف يا معلم وأنت تعلمهم التسول وتسرحهم لبيع السلع التافهة وتستولي على كل ما يكسبونه ويا عالم ماذا تفعل معهم غير ذلك؟!

فظهر الغضب الشديد على المعلم وقال وهو ينظر نظرة شزراء:

- لا.. أنا لا أحب هذه اللهجة.. أنا رجل أعرف ربنا جيدًا.. أنا أعتبر هذا المكان مؤسسة لحماية الأطفال من المصائب التي تنتظرهم لو ظلوا في الشوارع.. أليس بيع المناديل والفلايات أرحم من شم البنزين والكلة وشرب البانجو.. والتسول أرحم للبنت من أن تقع في يد شيطان من شياطين الإنس يعتدي عليها جنسيًا؟ لهذا فأنا أعلمهم أن اليد العاطلة نجسة.. وآخر اليوم يجدون مكانًا ينامون فيه بدلاً من النوم أسفل الكباري ولا يجدون غطاء يحميهم من البرد.

قال طه بحدة موجهًا حديثه ليوسف وشاهيناز:

- يا جماعة نحن لم نأتِ إلى هنا لكي نحاسب المعلم.. كل هدفنا هو العثور على طارق.

بينما أكمل المعلم حديثه:

- تصوروا من حوالي شهر قبضت الشرطة على ثلاثة عيال تبعي

ووضعوهم في الإصلاحية قل لهم ماذا حدث يا مرسي.

- هربوا ورجعوا إلى هنا مرة أخرى لأنهم لم يجدوا إلا الأمان هنا.

رد يوسف:

- يا معلم أنا ابني خُطف أمام عيني وقلبي من لحظتها يتمزق.. فأرجوك ساعدني في الوصول إليه.

- يا أستاذ أنا لم أتأخر.. لكن طفلك ليس عندي.

قال طه:

- لكن أكيد تعرف معلمين يجمعون الأطفال من الشوارع وربما تعرف آخرين يخطفون الأطفال.

رد المعلم عكاشة:

- بصراحة مسألة خطف ابنك بهذه الطريقة غريبة.. لكن أظن أن تفسير ذلك له احتمالان فقط. إما أنه تم خطفه لبيعه لإحدى الأسر التي لا تنجب.. خاصة أن سن ابنك لا تسمح له بإدراك الأمور من حوله جيدًا.. أما الاحتمال الثاني فهو أن تكون لك عداوة مع أحد وخطف ابنك تصفية حسابات.

قال طه:

- وهناك عصابات تخطف الأطفال للاستيلاء على أعضائهم.

رد المعلم:

– أنا سمعت عن ذلك.. ولكن لا أدري إن كانت حقيقة أم لا.

قال يوسف:

– هل تعرف شخصًا اسمه التوربيني يا معلم؟

رد المعلم على الفور غاضبًا:

– قطيعة.. أنا لا أحب أن أسمع اسمه.

عاد يوسف يسأل:

– لماذا؟

– من أفعاله.

– أريد مقابلته.

– أنا لا أعرف له طريقًا.. فهو لا يستقر في مكان.. لكن لماذا تريد مقابلته؟

– ربما يكون وراء خطف ابني.. تصور أنني سمعت طفلين من أطفال الشوارع يقولان إنه ألقى بطفل من فوق القطار أثناء سيره ومنذ تلك اللحظة وأنا أعيش في رعب.

– ليس بعيدًا أن يرتكب هذه الحماقات.

– قل لي إذًا على شخص آخر أذهب إليه ربما أجد عنده ابني.

– كما قلت لك خطف ابنك ليس له تفسير إلا ما قلتـه ولكـن كـل مـا يمكن أن أقدمه لك أن أحتفظ بصورة له وإذا ظهر أتصل بك فورًا.. أعطني رقـم محمولك.

* * *

لقاء لم يحرك المياه الراكدة وتبقى الأحـزان تـزداد اشتعالاً وريـاح الخوف والقلق تعربد كيفما تشاء.. الأيام تمـر والكـلام مـا أكثـره لكـن تبقـى القـضية علـى حالهـا.. الجـراح تنـزف والآلام تـئن والحمـاس يعلـو ويهـبط وسرادقات البطولات الزائفة تزداد بريقًا.. تبكي بكـاء المبتـسم وترسـم دمـوع التماسيح وتلحن نشيد الوهم..

هنـاك عـزائم صـادقة مثـل أمـه وشـاهيناز وطـه.. لكـن في النهايـة الخاطفون بلا عقاب..

وابنه.. كم من المسافات تفـصل بينهمـا؟ وهـل الأيـام تمـر لتقربهمـا إيذانًا باللقاء أم تمر لتزيد المسافات وتقتلع زهرة الآمال؟ الغـد هـو المجهـول والمجهول هو الغد.. لكن هل يظل الظلام مصاحبًا للغد؟ من ينتصر على من؟! ما السر وراء خطف ابنه؟ يصرخ يوسف وهو يسأل نفسه هذا السؤال..

لماذا عدد الأسئلة دائمًا أكبر من عـدد الإجابـات؟ لـماذا الحيـاة أسـئلة

وأجوبة؟

لماذا لم تكن أجوبة فقط؟! حتى هذه أيضًا تساؤلات بلا إجابات..

الصبر.. قالها يوسف لنفسه.. لكن هل يصمد هذا الدواء والأمل يتراجع والعناء رايته تلوح من بعيد؟ في لحظات خُطف ابنه.. وربما في لحظات يعود أيضًا ابنه.. هكذا كان ينام يوسف على هذا المُسكِّن بعد أن تكون كل هذه الأفكار تلاعبت به.. ينتظر الفجر وأن تتفتح زهرة الآمال.. يدعو الله ليل نهار أن يمحو الغمة وينقشع الضباب..

فهل يطول الانتظار والظلام ما زال ينشر رداءه؟ وهل يحفظ ابنه من كل سوء؟

يتساءل: هل هناك إنسان بلا قلب؟ نعم من خطفا ابني بلا قلب.. لماذا اختارا ابني؟ لماذا اخترع الإنسان من الأساس معاني الخطف والسلب والنهب؟

ألم ينظم الخالق الكون ويتكفل بأن يعطي لكل ذي حق حقه؟ ومستحيل أن يظلم أي أحد.. لأن العدل الإلهي لا يعرف إلا الحق.. فهو الحق.. لكن بكل أسف خُلق الإنسان من عَجل لا يرضى بنصيبه.. رضي أن تكون لغته هي الطمع والجشع ليظلم هذا ويجور على حق هذا وتبقى الحياة غابة لا تعرف إلا معنى القوة والبلطجة..

مأساة الإنسان تكمن دائمًا في ميله للجشع والطمع ليأخذ حقًا غير حقه..

أول قطرة دم أُهدرت في الكون بسبب ذلك.. وتبقى أيها الإنسان الباحث عن السلام في صراع دائم.. فالظالمون لن يدعوك تهنأ بالأمان وخدعوك بكلامهم المنمق ينشرون الضباب.

تنغمس في التوهان وتبقى وحدك في الميدان تصارع ظلمهم تنكسر سيوف وتراق الدماء وهم يلقون عليك رداء اليأس لعلك تنبطح.

ابتسم مهما طال الظلام.. فالعدل الإلهي تكفل بالحق ونصرته.. لكن الحق لا يأتي إلا لمن يسعى ويجتهد.. فما ضاع حق وراءه مطالب..

أم تلهو بنا الحياة وتضيع الفرصة تلو الأخرى وتزداد الأمور تعقيدًا وتبقى المسافات تتسع والنسيان يهدد الأجيال المقبلة..

ما زالت هذه الأفكار كلها تتلاعب بيوسف.. تختلط القضايا لكن تبقى ثمة روابط مشتركة تعلن عن نفسها تود الانطلاق فهل من مجيب؟

وتعود صورة طارق تلوح لتسرق النوم من عينيه.. وتظل الأسئلة كلها بلا إجابات..

4

في الكازينو قالت شاهيناز ليوسف:

– يبدو عليك الإرهاق.

– مرض أمي يزداد عليها.

– لماذا لم تذهب بها للطبيب؟

– هي تكابر.. مسكينة لا تريد أن تزيد من آلامي.. لكن لو ظل حالها هكذا فلن أسكت..

– ألم يتصل بك عكاشة؟

ضحك يوسف ضحكة خفيفة قائلاً:

– لا أعتقد أنه سيتصل.

– هذا الرجل ليس سهلاً.. لقد كان يحاول ارتداء ثوب البراءة والشهامة..

– ليس وحده.. معظمنا أصبح يغير ثيابه في اليوم مرات عدَّة حسب الظروف..

– إنه يتاجر في براءة الأطفال.

– هذا الرجل لم يصنع نفسه بل المجتمع مسئول عن صناعته تركه يفعل ما يشاء ولو ضرب على يديه منذ البداية ما أصبح الآن كالسرطان.

– تراكمات صنعتها الظروف.

فقاطعها يوسف غاضبًا:

– لا تلقي باللوم على الظروف بل أخطاء البشر نتاج كل خطيئة.. طريق الخير واضح وطريق الشر واضح أيضًا.. لكن النفس البشرية لا ترضى بحالها.. تسعى للمزيد ولو على حساب الآخرين فتلقي بنفسها في أحضان الشر.

– لكن لا تنسَ أن الفقر أحيانًا يدفع الإنسان لفعل أشياء لا يحبها..

– ومن أين جاء الفقر؟ أليس من جشع الناس الذي قسمهم إلى أغنياء وفقراء؟

– يا سيدي.. أنا جالسة أمام مفكر ولا أدري.

لم يرد يوسف بل سرح بخياله فقالت:

– فيمَ تفكر؟

– هل هناك غيره؟

– سيعود إن شاء الله.

– الأيام تمر بلا أي جديد.

– لقد لفت عكاشة نظري لأمر مهم.. عندما سألك هل لك أعداء فربما يكونون بالفعل وراء خطف طارق؟

عاد يوسف لضحكته الخفيفة وهو يقول:

– أعتقد لو كان لي أعداء فعلاً لكان حالي غير ذلك تمامًا.

– وأهل زوجتك.. لماذا لا يبحثون معك؟

– زوجتي –يرحمها الله– كانت يتيمة الأب والأم.. لم يكن لها سوى أخ قمت بإحضار عقد عمل له في السعودية عندما كنت أعمل هناك وما زال يعمل بها حتى الآن أما باقي أهلها فهم أقارب عاديون انقطعت بهم صلتي بعد رحيلها.

– لغز غامض بلا أي ملامح أو معالم تقود لأول الخيط نحو الوصول للحقيقة.

– بعد رحيل زوجتي قررت العودة لوطني بحثًا عن الأمان لكن يا ليتني ما عدت.

– لا تقُل هذا.. إنها أقدار ويبقى الوطن دائمًا رمز الأمن والأمان..

فالعيب ليس فيه بل في البشر.. أليس هذا كلامك؟!

- ما بين الأمل واليأس أعيش أنتظر الغد هل يحمل البشرى أم أظل أعيش على الذكرى.

ذهب يوسف إلى الضابط يبحث عن الأمل ويسأله: هل من جديد؟ فقال الضابط:

- للأسف ما زلنا نبحث.

- ألم تقل لي إنه قريبًا سوف ترجعون لي ابني؟

- نحن نبذل أقصى ما في وسعنا.

- سئمت من هذا الكلام.

- بصراحة خطف ابنك موضوع غامض.. فلا أثر له حتى الآن وأوصاف المختطفين لا تنطبق حتى الآن على أحد.

فصرخ يوسف غاضبًا:

- أفهم من ذلك أن ابني لن يعود؟

- بل سيعود.. المسألة وقت فقط.

- أرجوك لا تعطني أملاً زائفًا.. صارحني لو أن ابني لن يعود فقل لي حتى لا أعيش على أمل بلا أمل.. لو كان قد مات قل لي فلن أحزن.. المهم أن أعرف مصيره.

- نحن ليس لدينا أي معلومات.

* * *

عاد يوسف ليجد المرض قد اشتد على أمه وهي تحاول أن تطمئنه.. لكن الحالة تزداد سوءًا فاتصل بالطبيب المعالج الذي أمره بإحضارها للعيادة فورًا وهناك وهو يمر بنفس الشارع الذي شهد خطف ابنه هاجت به الذكرى الأليمة وفارت الأحزان وتفاقمت عندما أخبره الطبيب بأن حالة الست الوالدة غير مستقرة ويلزم نقلها إلى المستشفى.. يحاول أن يطمئن والدته لكن جو المستشفى يزيد الأوجاع.. ترك البحث عن ابنه.. يلازمها في المستشفى يخفف عنها الآلام يدعو الله أن يحفظها فهي نوره الوحيد الآن في حياته.. تذرف دموعه عندما يخبره الطبيب أن والدته تحتاج لعملية عاجلة لتغيير صمام في القلب.

يزوره صديقه طه.. يشد من أزره ويسأله عن طارق فيرد يوسف قائلاً:

- ما بين أمي وابني تتمزق آمالي.. فقدت ابني ولا أحتمل الآن أن أفقد أي أحد عزيز عليَّ.. فما بالك بأمي؟

- إن شاء الله سوف تُشفى والدتك ويعود ابنك ليجتمع شمل أسرتك مرة أخرى.

- يا رب.. يا رب.

تزوره شاهيناز.. تراها والدته تفرح بها كثيرًا وهي تخبرها أن ابنها حكى لها كثيرًا عن جهودها في البحث عن طارق.

قالت شاهيناز ويوسف يقوم بتوصيلها لباب المستشفى:

– اعلم أنها ما ضاقت واستحكمت حلقاتها إلا وفرجت.. أتمنى ألا تفتر عزيمتك.

– الحمد لله على كل شيء.. كما أنني أخذت حصانة من كثرة الهموم والنكبات التي تعرضت لها.

– الهموم والنكبات ربما تكون اختبارًا من الله لينظر ماذا سيفعل عبده هل سيصبر أم سيجزع.

– اطمئني.. إيماني قوي.. فمهما طال الليل واشتدت الظلمة لا بد أن يأتي الفجر لا محالة لأن الحق لا يرضى إلا أن يسود الحق.

تودعه بابتسامة فيردها لها.. وفي تلك الليلة يجافيها النوم.. تتزاحم الأفكار ما بين رسالتها المشغولة بتحضيرها ويوسف وقصته الغريبة.. تسأل نفسها:

لماذا يوسف؟ ولماذا ارتبطت به هكذا؟ ولمجرد أنه اختفى يومين سارعت بالاتصال به بل وذهبت لزيارة أمه في المستشفى رغم أن الصدفة هي التي جمعتهما.. فهل تكون الصدفة نقطة إيذان بعلاقة متواصلة وتتوثق

بمرور الأيام؟

غريبة الحياة تلقي في طريقنا أناسًا يصبحون بعد ذلك شموعًا ونصبح نحن شموعًا لهم أيضًا.. بهم تتلون الحياة بألوان مبهجة وربما صاروا منبع السعادة.. لهم نبكي لو اختفوا عنا ونتألم لألمهم.

هل وقوفها بجانب يوسف مجرد تعاطف معه في مشكلة خطف ابنه؟

وماذا لو عثر على ابنه؟ هل يكون ذلك بداية النهاية لتلك العلاقة؟

ويا ترى كيف ينظر لها يوسف؟ هل مجرد زاد يعنيه في رحلته الشاقة.. أم أن الله أرسلها له لتكون له عونًا له وتخفف آلامه وتزرع الأمل لديه؟

وهل هناك شعور آخر متبادل يربط بينهما ستوضحه الأيام المقبلة؟

الأسئلة تطاردها تحاول الفكاك منها بلا جدوى.. تريد الانشغال برسالتها لكن موضوع يوسف يقتحم خلوتها يسيطر على وجدانها وعقلها.

تقوم من فراشها.. تجلس على المكتب.. تمسك بالقلم تكتب رسالة إلى يوسف لن يقرأها أي أحد إلا هي حتى يوسف.

"يوسف.. من أنت؟ لماذا اقتحمت حياتي هكذا؟ وأنا لا أدري أن الصدفة وراءها بحر متلاطمة أمواجه وأنا لا أجيد العوم.. أخشى من الغرق فهل تكون طوق النجاة الذي يأخذ بيدي لبر الأمان أم تكون الرياح الغادرة

التي تلقي بي في غيابات هذا البحر فأكون كالملاح البائس الذي خانته عواطفه أحب البحر واكتشف في النهاية أن البحر لا عزيز له؟ نعم الظروف صنعت علاقتنا ولا مجال للحديث إلا في اتجاه واحد البحث عن طارق.. فهل يكون طارق الجسر الذي يربط بيننا أم السكين التي تقطع الأواصر كلها؟

يوسف.. لا أدري لماذا أربط مصيري بمصيرك المجهول؟ تبحث عن ابنك كمن يبحث عن إبرة في كوم قش وأنا التي لم أفكر في أي رجل من قبل لم يكن يشغل تفكيري سوى الدراسة فقط لا غير لكن منذ أن خاطب لسانك لساني اختلف الأمر.

وماذا سيكون الأمر بعد ذلك؟ ماذا لو عاد ابنك؟ هل تتحول إلى يوسف غير الذي أعرفه الآن وتلقي لي بمجرد كلمات شكر؟

وماذا لو لم تعثر على ابنك؟ هل تظل هكذا تؤجل حياتك وتبقى أسير البحث مستسلمًا للقيد بلا جديد ونبقى نحن ننشد أناشيد الأمل ونشجب وندين ونستنكر والقضية تضيع معالمها من بين أيدينا دون أن ندري؟

يوسف.. أنا أعذرك.. ومهما فعلت فلك الأعذار كلها.. فأنت في موقف لا تحسد عليه.. خطفا ابنك من بين يديك وتركاك تتقلب على الجمر.. وأمك الآن المرض ينهش أوصالها والآلام تحاصرك من كل جانب فتماسك واصبر لعل الفرج يكون قريبًا ونغني في النهاية نشيد النصر بعد أن تلتئم جراحك وتنتهي قضيتك.

يوسف.. لا أدري هل أنت زهرة الأمل في حياتي.. أم مجرد نسمة عابرة تصبح في قاموس الحياة مجرد ذكرى والأسوأ لو صارت كابوسًا؟

يوسف.. أعلم أنك لن تقرأ رسالتي.. فرسائلي يتيمة لا يقرؤها سواي.. لكنهم قالوا إن النظرات أحيانًا أبلغ من الكلمات فهل يضمنا قارب واحد أم يظل كل منا على شاطئ يعزف لحنًا مكسورًا؟

وفي النهاية مهما طالت الكلمات تبقى الأفعال وحدها المحرك لكل خطواتنا.. فهل تكون أفعالنا في صالحنا أم تضيع الفرص وتتفرق السبل ويعيش كل منا بقية عمره أسير الندم؟".

أحست بارتياح فور كتابة تلك الرسالة فمزقتها وعادت للفراش تمني نفسها بنوم عميق..

في اليوم التالي تم تحديد موعد العملية.. بكى يوسف في حجرة الطبيب لا يدري هل يبكي لمرض أمه الخطير أم لخطف ابنه والطبيب يحاول تهدئته.

يمسح دموعه وهو يدخل على أمه يصطنع البسمة لكنها تشعر به وبجراحه فتطلب منه أن يتركها ويعود للبحث عن طارق فيرد عليها:

– لا يا أمي لن أتركك.. فلا فائدة من بحثي عن ابني ويكفي أن الشرطة تبحث عنه.

- يا حبيبي أنا بخير اطمئن اذهب أنت لمصالحك.

- يا أعز من لي في الوجود الابن من السهل تعويضه أما...

وهنا تلعثم لسانه ولم يستطع أن يكمل فخرج مسرعًا خارج الغرفة لينفجر باكيًا.. في تلك اللحظة حضرت شاهيناز وهالها أن تراه يبكي فقالت منزعجة:

- ما بك يا أستاذ يوسف؟

فالتفت نحوها لتسري في عروقه مشاعر السعادة لرؤيتها.. كان يود لو ارتمى في أحضانها يشكو آلامه لتطارحه همومه وتخفف عنه لكنه تماسك وقال وهو يمسح دموعه:

- لا شيء.. مرض أمي يزيد من قلقي.

- هل طرأ على حالتها أي سوء لا قدر الله؟

- بعد غد سيتم إجراء العملية.

فالتقطت أنفاسها بارتياح وهي تقول:

- خيرًا إن شاء الله.. ألم أقل لك تماسك؟

- أشعر أن أمي تضيع من بين يدي ولم أعد أحتمل أي شيء آخر.. فهي التي بقيت لي ومن دونها لا يمكن أن أعيش.

- إنها أقدار لا يعلمها إلا الخالق.. ومهما حدث ولو حتى على غير

رغبتنا لا بد أن نرضى.. فما نراه شرًا قد يكون خيرًا.. فهو خالقنا وأدرى بالأصلح لنا.

– ونعم بالله الذي أحمده كثيرًا على أن أرسل لي نعمة غالية من دونها لا أدري كيف كنت أستطيع مواصلة حياتي في تلك الظروف وهذه النعمة هي أنت فلا أدري كيف أشكرك على ما تفعلينه تجاهي.

اضطربت وهي تسمع هذا الكلام واحمر وجهها خجلاً واستدارت عائدة وهي تقول: بعد إذنك أنا ذاهبة للجامعة.

كلامه يزيد من تفكيرها.. لم تستطع أن تركز مع الدكتور المشرف على رسالتها الذي أحس بذلك فنبهها فاعتذرت وأكمل الدكتور حديثه:

– الحياة مليئة بالمشاكل والأفكار والأزمات لكن طالما وضعنا هدفًا نصب أعيننا فلا بد أن نتفرغ له.. خاصة أنك مقبلة على مرحلة صعبة وأمامك تحدٍ للانتهاء من إعداد الرسالة والوقت ليس في صالحك.

– أعلم ذلك جيدًا يا دكتور وأعدك ببذل مزيد من الجهد.

– أنت مجتهدة وتتميزين بالحماس والدافعية.. لكن أخشى أن تفتر عزيمتك وتضيعي مجهودك السابق وأنا قلت لك إن المشوار طويل ويحتاج للنفس الطويل.

ما بين كلام يوسف والدكتور تتأرجح مشاعرها.. السرحان والشرود

سمة أصبحت تلازمها.. أمها لاحظت ذلك.. سألتها عن سبب ذلك فردت:

- لا شيء يا أمي.. اطمئني.

- أنت تجهدين نفسك في المذاكرة والبحث والاطلاع.. لو كان الأمر كذلك اتركي التحضير وكفاية شهادة الكلية.

- لا يا أمي.. لا بد أن أكمل الرحلة للنهاية.

- الرحلة شاقة ومتعبة وأنت بنت والعمر يجري والأفضل لك مهما حصلت على شهادات هو بيت الزوجية.

- أمي.. لقد سبق أن تحدثنا في هذا الموضوع وأنت تعلمين ردي جيدًا.

هل تتركه وحده في الميدان وهو الذي استراح لها وشعرت معه بالارتياح؟

لن تنسحب من استكمال دراستها.. لكن هل تنسحب من حياة يوسف؟ هكذا سألت نفسها وفشلت في الإجابة.. هل تتخلى عنه في محنته؟

صحيح أنها عرفته في تلك المحنة لكنها وعدته ألا تتركه وتواصل معه الرحلة حتى تنقشع تلك الغمة.

بالأمس كانت كل أحلامها منحصرة في الدراسة.. أما الآن فالدائرة تتسع والخوف أن تظل الدائرة تتسع حتى تتمزق وتتحطم معها كل أحلامها فلا تطول هذا ولا ذاك.. وتبقى وحدها تلملم ذكرياتها تتجرع من كأس الندم.

أين الجنة والنار؟ هكذا تسأل ويحتار عقلها وتتوه عواطفها وسط ركام الأفكار ومشقة الاختيار.. العقل والقلب متصلان في الإنسان منفصلان في القرار.. تظل دوامة الانتظار تتلاعب بنا قبل أن ننهي الحوار أو نواصل المشوار.

أما يوسف فهو يشعر بها.. لكن الظروف تجعل تفكيره محصورًا في ابنه المخطوف وهاهو مرض أمه قد زاد من متاعبه وأجل البحث عن ابنه حتى يطمئن عليها وتجرى تلك العملية التي يرى القلق في أعين الأطباء كلما سألهم بما لا يدع مجالاً للشك حول خطورتها ورغم محاولاته أن يهون الأمر على أمه فإنها تعرف ابنها من نظراته وتبدو راضية تتألم لألم ابنها.. لا تفكر في مرضها بقدر تفكيرها في عودة حفيدها.

صبيحة يوم العملية بدت السماء ملبدة بالغيوم التي تشع في النفس الكآبة ويوسف بدا وجهه شاحبًا وعيناه يشع منهما الاحمرار من شدة الإرهاق وقلة النوم وبدا المستشفى في حالة غير طبيعية.

دخلت الأم غرفة العمليات تشيعها دعوات ابنها ودموعه التي يحاول أن يواريها لكنه انخرط في بكاء شديد فور أن أَغلق باب العمليات وبقي وحيدًا يتجرع من مرارة الآلام.. الساعات تمر لا تحمل جديدًا وظلت أعصاب يوسف تحترق حتى خرج الطبيب مرهقًا وعلامات عدم الارتياح تبدو على وجهه ولم يعطِ يوسف إجابة وافية.. وبعدها بدأ الفريق الطبي يخرج

تباعًا ويوسف يحاصرهم لكنهم يفلتون منه بالإجابة نفسها:

"الحمد لله بخير وبقي أن تفيق من البنج حتى نطمئن أكثر".

ونار الانتظار ما زالت تحرق أعصابه.. لا يطيق ألا يرى والدته.. يود لو اقتحم الغرفة ليرى أمه.. أزمات متتالية يتعرض لها والضربات المتلاحقة لا يقوى على مواجهتها.. نعم هي الحياة لا مفر يود الهروب.. لكن إلى أين؟ فالإنسان لا يختار ظروفه ويحتار أحيانًا في أمره.. صحيح أنه يختار طريقه لكن الألم داء بلا دواء.. نرضى بالصبر وننتظر الفجر.

هكذا رد على صاحبه طه وهو يحاول أن يخفف عنه وقلبه يتمزق ألمًا وكمدًا على أمه وابنه.

وافق أن يخرج مع صاحبه بعد طول تردد.. الشوارع مزدحمة والبشر أمواج متلاحقة بعضهم يتسكع خلف أضواء الحوانيت والفاترينات وحول موالد الباعة الجائلين.. وآخرون يسارعون السير كمن يصارع في حلبة المصارعة والسيارات تتعانق في معركة بلا عنوان.. لوحة من الفوضى والمعقول واللا معقول ويوسف تائه يتلفت حوله يتفحص زخم الوجوه ويتمعن النظر إلى الأطفال يود لو صرخ ونادى على طارق فهل يسمعه؟!

يتساءل في ضيق وضجر:

– لماذا طارق بالذات؟

رد طه ونظره عالق بالأفق:

– فعلاً الأمر غريب ومريب وتبدو المسألة مدبرة ولا تخضع للصدفة ويبدو أنهما كانا يخططان لخطف طارق منذ فترة ووضعاك تحت المراقبة حتى جاءت اللحظة المناسبة ونفذا فعلتهما الخسيسة.

فرد يوسف بعصبية شديدة:

– من اللذان خطفا طارق؟

– لغز ربما تكون مفاتيحه معك.

– ماذا تقصد؟

– هل لك أعداء؟

فأشاح يوسف بيده بشيء من العصبية وهو يقول:

– سنعود ندور في دائرة مغلقة وبلا فائدة.. وحتى لو افترضنا أن لي أعداء لا شك أنهم كانوا سوف يتصلون بي عقب خطف طارق لمساومتي.. ويا ليت الأمر كذلك والله لو طلبوا حياتي فداء ابني فلن أتردد.

– المسألة معقدة ولا أدري هل التأخير في صالح طارق أم العكس.

– لقد وصلت لمرحلة كل أملي الآن أن أعرف فقط مصير ابني حيًا أم ميتًا.

– أنت تحتاج لحملة إعلامية للتضامن معك وربما تؤتي ثمارها.

– لقد نشرت صورته في معظم الصحف بلا جدوى.

- لا يكفي.. أنا لي زميل صحفي يعمل بقسم التحقيقات سأطلب منه عمل تحقيق موسع ينشر بسرعة حول خطف طارق.. هل معك صورة لطارق الآن؟

- الصورة لا تفارق وجداني وجيبي.

- إذًا تعالَ معي.

اتجها لمقابلة الأستاذ صلاح عامر الصحفي الذي رحب بهما وأنصت باهتمام شديد لما يقوله يوسف.

بعدها بيومين نزل تحقيق صحفي على مساحة ربع صفحة بعنوان "من وراء خطف طارق؟" ويتضمن صورة طارق وأبيه المكلوم وتفاصيل التحقيق تحكي قصة الخطف رواها يوسف بدموعه.. وفي النهاية يناشد من خطفا ابنه أن يعيداه سالمًا ولن يتعرض لهما بأي سوء.

إنها آمال يزرعها يوسف في طريقه ربما يحصد ثمارها وربما تذهب أدراج الرياح.

قرأت شاهيناز التحقيق.. تتمعن في النظر لصورة طارق كأنها تستعيد شيئًا من ذاكرتها تهز رأسها تنفض عقلها من أفكار اجتاحتها لكن القلق يلازمها يجهض بشائر سعادتها.

* * *

في اليوم التالي اتجها إلى مناطق منشية ناصر وعزبة الهجانة والحرفيين يبحثان في وجوه الأطفال البؤساء حيث يستخدمهم الزبالون في فرز القمامة والخردة.

وفي محطات السكك الحديدية برمسيس وشبرا الخيمة وإمبابة واصلا رحلة البحث.. مئات ومئات الأطفال لا أهل ولا سكن ولا حتى زمن يعترف بسنهم.. الوطن موجود لكن من يسأل عمَّن؟!

تخصصات شتى.. هناك من يعيش وسط القمامة يصنفها ويتنفس هواءها الكريه.

البعض يتسول ويستجدي المارة أو يبيع المناديل ولا مانع من السرقة إن أتيحت الفرصة.. تحت الكباري ينامون وفي دهاليز السكة الحديد يجتمعون.. دماؤهم تنمو على الشر والجريمة ليقدموها للمجتمع مستقبلاً كمن يتبرع بدمائه لإنقاذ المرضى.

لا يعرفون للحياة معنى.. بأي ذنب جاءوا إليها؟ وبأي ذنب آل مصيرهم إلى الشارع؟ من الجاني؟ ومن الضحية؟ جريمة اشترك فيها الجميع وجلسوا في مقاعد المشاهدين والثمن في انتظار أن يدفعه الجميع.

الضابط اتصل به مرة أخرى.. تم القبض على عصابة تخصصت في خطف الأطفال.. يهرول يوسف إلى القسم.. يتفحص وجوه العصابة لكن

الملامح مختلفة عن الشخصين اللذين خطفا طفله من بين يديه.

يتفرس ويدقق في الأطفال الذين وُجدوا بحوزة العصابة.. السمات تتقارب والأسماء تتشابه.. فهذا اسمه طارق وهذا عيناه تشبهان عيني طارق لكن لا وجود لطارق ابنه.. يسأل الأطفال عنه.. ينظرون في بلاهة لا يدركون سر دموعه وأفراد العصابة ينكرون.

الضابط يشعر بخيبة أمل ويوسف يخنقه اليأس بعد أن ضاقت به السبل وضاع الرجاء في سرادق الإحباط وبقي في انتظار أمل جديد.

على باب القسم رن هاتفه المحمول ليسمع صوت شاهيناز كنسمة باردة في ظهيرة يوم حار رغم رده الحزين والمعتاد: "لا جديد".. اتصال الضابط يُحيي آماله لكن يزيده تعاسة.

شاهيناز تدعوه إلى الصبر لكن رصيده منه بدأ ينفد والرحلة تمتد بلا هوادة أو نهاية.. لوغاريتم خطف ابنه يزداد تعقيدًا.. الحياة توقفت لحظة اختطاف طارق.. هكذا رد عليها وهي حائرة تتمنى أن تنتهي تلك القضية ويبزغ الفجر لتضع عنوانًا لعلاقتها معه.. إما الاستمرار وإما العكس.. وكأن شيئًا لم يكن ولتكن الأيام دواء للنسيان.

عاد إلى المستشفى ليجد حالة أمه تزداد سوءًا.. صرخ في الأطباء أن يفعلوا شيئًا وأصر على أن ينقلها لمستشفى آخر لكن أحد الأطباء همس في أذنه قائلاً:

"لا ترهق والدتك وتجعلها عرضة للبهدلة.. الأفضل أن تدعو الله أن يخفف عنها".

صرخ يوسف.. شعر أن أمه تودع الحياة.. ارتمى في أحضانها باكيًا لكنها على غير العادة لم تداعب خصلات شعره أو تغمره بقبلاتها لا تعي ما يجري حولها.. انتزعوه من بين أحضانها وهو يصرخ: "لا تتركيني يا أمي لم يعد لي سواك".

ظل طوال ليله بالمستشفى يدعو الله ويتضرع إليه أن يشفي أمه ويخفف عنها.. فهي الأمل الباقي في الحياة وهي الزاد في رحلته والضياء الذي ينقذه من براثن الظلمات.

بعد أن صلى الفجر عاد لحجرة أمه.. وجد حركة غير عادية.. الأطباء يهرولون إلى داخل حجرتها والقلق والفزع على وجوه المرضات.. حاول الدخول بقوة.. منعوه بقوة أشد.. أدرك أنها النهاية.. ألقى برأسه على الحائط لينخرط في بكاء هستيري.. بعدها توالى خروج الأطباء منكسي الرءوس.. يندفع نحوهم يسألهم بلا إجابة حتى جاء الجواب على لسان آخر من خرجوا:

"شد حيلك.. البقاء لله".

أغشي عليه فور سماعه النبأ.. بعد أن أفاق تعالت آهاته وصرخاته وتكالبت بحور الأحزان والدموع فقد رحلت من كانت تمسح له دموعه.. بقي

يتجرع المرارة وألم الفراق وكأن الآلام لا تعرف سواه ولا أحد بجواره يخفف من زخم المحن التي يتعرض لها.. لكنه بعد أن استرد جزءًا من توازنه اتصل بصديقه طه الذي حضر على الفور وتكفل بإنهاء جميع الإجراءات وكذلك الاتصال ببعض الأقارب والمعارف.

توشح سرادق العزاء كالعادة بالأحزان وكلمات المواساة وحضر بعض أقارب يوسف على استحياء وهو يحاول في خضم أحزانه أن يلملم ذاكرته ليتذكرهم فمنذ سنوات لم تتقابل الوجوه.. وقد أصبحت المناسبات فرصة للقاء الأحباب.

* * *

عاد لمنزله تحمله أحزانه ليجد عددًا من النسوة من المعارف والجيران توشحن بالسواد.. يثرثرن كالعادة.. لحظات وأغلق يوسف بابه مستقبلاً وحدته وأحزانه وأشجانه.. بقي وحيدًا شريدًا في عالم لا يرحم.. أحبابه وسنده في الحياة يتساقطون كأوراق الخريف ليتجرع كأس الفراق.. تنهمر دموعه بغزارة وهو يستعرض ذكرياته من خلال الصور المعلقة على الحائط.. هاهي صورة والده في أوج حياته.. يتساءل في حسرة: أين هو الآن؟! بجوارها صورة والدته ملاذ الأمان الذي كان يرتوي منه عندما تشتد الصعاب لكنها لبت نداء ربها لتتركه يقاسي الوحدة والخوف من القادم وينال جزاءه حسب عمله.. ألم تمت من كان يُكرَم من أجلها؟

تنهد من أعماقه وتأوه بمرارة عندما انتقل لصورة زوجته.. الوردة التي ذبلت بسرعة وودعت الحياة مبكرًا وتركته يكمل المسيرة وحده.. غارقًا في بحار الحيرة والضياع.. غصة في حلقه تلازمه منذ رحيلها.

يرحل الإنسان ليبقى مجرد صورة معلقة على الحائط يكسوها التراب وذكريات مهلهلة سرعان ما تصاب بالنسيان فيصبح في النهاية كأن لم يكن.. أما تلك الدموع وما قد تحمله من بكاء مرير والتي تصاحبه وهو محمل على الأعناق فهي مجرد ديكور لاستكمال مراسم الدفن.. وعلى المتوفى ألا يحزن فبعمله يكون أو لا يكون.

هكذا حدث يوسف نفسه محاولاً أن ينسى أحزانه.. لكن عينيه اصطدمتا بالصورة التي حاول الهروب منها.. فلذة كبده الذي خُطف من بين يديه في لحظة غابت فيها الحياة.. اشتعلت كل آلامه وهاجت أحزانه.

الآخرون عرف مصيرهم أما هو فلا يدري هل لقي المصير نفسه أم أن أنفاسه ما زال صداها في الحياة؟ صرخ من أعماقه: "ليتك يا طارق كنت مثلهم انسحبت من حياتي وأنا أعلم مصيرك.. لكن الوغدين خطفاك دون أن أدري دوافعهما.. ولماذا أنت بالذات؟ هل تعود وتعوضني عمن رحلوا وتملأ حياتي برحيق السعادة والهناء؟".

الليل طويل كئيب يجلب الأحزان.. وكيف يأتي النوم والآلام تأبى الرحيل ودموع يوسف تنهمر؟ تطارده أفكار شتى ما بين وفاة أعز الناس

وضياع ثمرة فؤاده.. لا يدري مصيره يجتاحه الخوف من المستقبل.. وماذا يحمل في جعبته.. فهو لم يعد يحتمل صدمات أخرى.. أذان الفجر يعلو يخترق السكون ويحيي الأمل.. وفي الصلاة تكثر المناجاة والتضرع لمفرج الكروب.

بلا جديد يأتي الصباح وتبقى الأحزان في تزايد ومن يقدر عليها في زمن قلت فيه كلمات المواساة ولم يعد النسيان دواء يجدي؟ قد ينسى الأموات بل وكل الأحياء لكن مستحيل أن يترك ولده دون أن يعرف مصيره.. بل وينتقم ممن خطفاه وحرقا قلبه وحولا حياته لجحيم وجراح تتزايد آهاتها.

الأفكار تتلاعب به لا يقطعها إلا صوت الهاتف ليجد صديقه طه يطمئن عليه ويشد من أزره ويخبره بأنه مسافر إلى الإسكندرية حيث اتصلت به الشركة التي تقدم للعمل فيها وطلبت منه الحضور اليوم.. فسأله يوسف عن طبيعة العمل فصمت طه برهة ثم قال:

"موظف أمن".

فانزعج يوسف وصوته يحمل علامات الاحتجاج: "ليسانس اقتصاد وعلوم سياسية يشتغل موظف أمن؟!".

فرد طه بنبرة يأس: "أفضل من أن يقتلني الإحباط".

وهاهو صديقه الوحيد تضطره ظروف الحياة إلى الرحيل لبلد آخر

وليبقى هو وحيدًا لا يعرف ما يفعل.. كيف يسترد فلذة كبده؟ يصرخ: ليتني أموت وأستريح وليبقى له ربه أرحم به.

يسأل نفسه: ومن يدريك ربما مات وتبقى أنت في الحياة تتجرع صنوف العناء والشقاء إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً؟

يكاد يخبط رأسه في الحائط فعقله يكاد ينفجر وهو يشعر بالعجز.. تائه.. شُلت إرادته ولا يوجد أي بصيص أمل في العثور على ولده.

عاد الهاتف يرن.. أسرع نحوه كمن يهرب من نفسه.. من قدره.. جاءه صوتها كاد يصرخ: شاهيناز أين أنت؟

ردت: أحزانك دائمًا تسبق صوتك.

- ألا تعرفين؟ أمي ماتت.

صُعقت من الخبر وغلب البكاء صوتها فحاول تهدئتها وكأن النكبة حلت بها هي.

طلبت لقاءه.. كان يتمنى لقاءها لكنه اندفع معتذرًا.. ظروفه لا تسمح أن يخرج في الوقت الحالي.. بل عندما تهدأ أعصابه.

انتهت المكالمة وهي تكتم غيظها.. رفضه مقابلتها جرح كرامتها.. حاولت أن تبرر موقفه نتيجة ظروفه لكنها عادت تتساءل: ما ذنبي أنا؟ إنسان غارق في بحر الأحزان لماذا أتمسك به؟ هل الحب؟ وهل منطق الحب أن

تظل الصورة مشوشة بلا ملامح أو معالم.. أم أن الحب دائمًا بلا منطق؟

العمر يجري والأيام تزيد قسوتها.. معظم زميلاتها لحقن قطار الزواج بينما هي في خانة الانتظار فهل مجرد تعلقها بيوسف على هذا الأمل فقط؟ ردت على نفسها بلهجة حادة: لا.. لا.. فإنسان في ظروفه عسير أن يفكر في الارتباط. سألت نفسها مرة ثانية: هل هو إشفاق عليه؟ إنسان خُطف فلذة كبده أمام عينيه عنوة ولا يعرف مصيره.

ما أكثر الأفكار.. ويالقسوة الانتظار لغدٍ قد يحمل آلامًا وينسف آمالاً.. وتظل الدوامة تدور دون أن تعطينا مبررات لنبقى في دائرة الاحتمالات وينتصر المجهول ليؤكد في كل جولة أنه دائمًا عنوان الحياة.. والقدر ينطلق كعادته دون أن يلتفت لأحلامنا.

تتشابه أفكارهما.. هو يفكر فيها وهي بالمثل مشغولة به.. هل تكون أملاً جديدًا يجدد به حياته ويضمد جراحه فلم يعد له حضن دافئ يعينه على مشقة الحياة ونبع للحنان يرتوي منه.. أم مجرد نسمة عابرة بمرور الوقت تتلاشى ويطويها النسيان؟

هل تقبل أن تواصل معه رحلته الشاقة وتتحمل الآلام ولا تضجر من الصعاب وتواجه الأشواك دون شكوى أو تفكير في الانسحاب؟

يبتلع ريقه.. يتبعه نفس عميق يعيده لدائرة التفكير.. يتساءل: حتى لو وافقت هل يرضى هو أن يحملها آلامه؟ ما ذنبها أن تحرم نفسها من

بهجة الحياة في انتظار سعادة قد تأتي أو لا تأتي؟ أليس من الأفضل أن تربط مصيرها بإنسان يحمل إليها متع الحياة بدلاً من الشقاء ومصير مجهول ينتظر سعادة مزعومة.. فربما أعثر على طارق غدًا وربما تفنى حياتي دون الوصول إليه لتظل التعاسة تلازمني حتى آخر نفس؟

هي ما زالت تفكر وتتساءل بلا إجابات وتبقى الدوامة تدور.. والعقل عاجز عن الحسم والحزم تتأرجح به الأفكار والآمال يهرب منهما بالتسويف وانتظار الغد فقد يرسم أحلامنا وفق ما نريد.

كل منا يريد.. يحلم.. يتمنى.. يخطط.. يرسم.. قد تتشابه الأمنيات.. تختلف.. تتناقض.. تتصارع.. لكن يبقى في النهاية أننا لا نملك ولا نقدر.

التفكير يأخذه لنقاط متشابكة متباعدة ومسافات شاسعة.. وعندما يفيق يجد نفسه بلا جديد.. يقف محلك سر.. فيزداد إحباطًا وتعتصره الآلام.. يصرخ: أنا لا أريد منفعة ولا مصلحة.. أريد فلذة كبدي.. حقي الذي لا يمكن أن ينازعني فيه أحد.. لماذا خطفاه وحرماني منه؟ ما ذنبه؟ وما ذنبي أنا؟

هي أيضًا تعيش سكرة التفكير.. المتنفس الوحيد في حياة ضاقت حلقاتها.. تتساءل: لماذا خطفا ابنه؟ شيء غريب.. هل هناك سر يخفيه عني؟ لا أعتقد.. فكلماته وتعبيرات وجهه تدل على مصداقيته وأن حدود

معرفته لا تتعدى حدودنا.. إذًا أين الحقيقة؟ ومتى تظهر؟ وهل بمجرد عثوره على ابنه تنتهي القضية أم تكون بداية لسلسلة من المتاعب والمنغصات؟

يقطع حبل تفكيرها دخول أمها بوجه لا يحمل علامات الرضا:

- أحوالك لا تعجبني.. دائمًا في حالة شرود وسرحان.

ردت ببطء:

- ليس هناك داعٍ لقلقك يا حبيبتي.. أنا بخير.

- إحساس الأم لا يكذب.. فضفضي لي يا ابنتي.

تبتسم في بلادة:

- عندما يكون هناك شيء سأحكي لك فورًا.

- الحديث معك لا يجدي.. دائمًا أنت كتاب مغلق لا تعطين سرك لأحد.

تخرج أمها تغمغم بكلمات كثيرة.. أما هي فلم تتعود أن تحكي لأحد آمالها وآلامها.. تفضل الصمت والكتمان.. حتى أمها لم تقو بينهما روابط الألفة ربما لطباع الأم الحادة التي دائمًا تميز في المعاملة بينها وبين شقيقها هاني.. تبرر له دائمًا أخطاءه وفشله المتكرر.. أما فيما يخصها هي فدائمًا تعاملها بقسوة.. تفكر في العقاب دون أن تسمع التبريرات.. فضلت العزلة عن صديقاتها.

أبوها زرع بداخلها أن العالم كائن متوحش يتربص بها فيجب أن تنشئ لنفسها عالمًا خاصًا بها تتقوقع بداخله.. زميلاتها في المدرسة والجامعة كن يتسمن بالجرأة في التحدث والتباهي بعلاقاتهن بالشباب.. تكتفي هي بأن تمصمص شفتيها تستنكر وتدين.

وعندما تخرجت هربت مرة أخرى إلى الدراسة.. فالتعامل مع الكتب أرحم وأسهل بكثير من التفاعل مع البشر حتى قابلت يوسف وتبادلا الحديث انتابها إحساس غريب عجزت أن تفك رموزه حتى الآن.

تفكر جديًا في الهروب والانسحاب وتغلق نافذتها أمام يوسف.. لكنها تتساءل: إلى متى سأظل خارج إطار الحياة؟ ربما تكون فرصة لا تتكرر رغم ما يحيط به من أشواك.

ثم تعود وتقول: يقولون إن لذة الحياة في مشقتها.. فلماذا لا أجرب هذه المشقة؟!

* * *

بعد عدة أيام جمع بينهما لقاء في الكازينو نفسه.. قالت شاهيناز:

– إلى متى ستظل هكذا؟

– إلى أن أعثر على ولدي.

– ربما يطول الوقت.. عد إلى الحياة ومارسها بشكل طبيعي.

فرد يوسف بحدة:

- لا يمكن أن أفعل أي شيء دون أن أطمئن على ولدي.. فحياتي مجمدة والنار التي بداخلي لم تخمد بعدُ.. ربما أنت تقولين ذلك لأنك لا تشعرين بمعنى أن يُخطف ولدي وهو معي دون أن أحميه أو أفعل أي شيء يحميه.. تعرفين لو أنه خرج ولم يعد ربما كان الألم أخف وطأة.. أما ضياعه بتلك الطريقة المهينة فهذا ما يعمق من جراحي.. فردت مشفقة:

- أنا أشفق عليك.. العمر يجري وربما ضاع منا.

- اختطاف ابني أصابني بالشلل.. وما فائدة أن نبكي على العمر وهناك جرح لا يمكن بمرور الأيام أن يداوى؟ من شدة يأسي أحيانًا أتمنى حتى لو عثرت على ولدي وهو جثة هامدة أو أعرف أنه قد مات أرحم لي من هذا العذاب.

- بإذن الله سوف تعثر عليه وتضمه بين أحضانك.

يلتقط يوسف أنفاسه ويقول وهو يشعر بقليل من الرضا:

- أنا آسف أزعجتك بمشاكلي وهمومي.. لكن لم يعد لي أحد أفضفض له سواك.. وهذا ما يجعل لك معزة خاصة.

فردت وحمرة الخجل تعتري وجهها:

- مشكلة طارق لم تعد تخصك وحدك فقد أصبحت شغلي الشاغل.

٦

انكشفت الأوراق وتوحدت المشاعر.. لكن يوسف وضع الشرط الذي جعل المياه تظل راكدة: "لا شيء سيحدث قبل أن أعثر على طارق".

انزوى داخل شقته معزولاً بأحزانه وآلامه.. بينما انشغلت شاهيناز بإعداد الماجستير لا يجمع بينهما سوى مكالمات عابرة عن الأحوال والتمسك بالصبر.

وتمر الأيام سراعًا وتطوي الشهور صفحاتها بلا جديد وطارق لا خبر عنه وكأنه لم يكن في الحياة من قبل.. ويوسف دموعه لا تتوقف.. يريد أي معلومة عنه حتى لو وفاته كي يستريح.. وانتقل الضابط إلى مكان آخر وجاء ضابط آخر تسلم ملف القضية لم يكن أوفر حظًا من سابقه.. حاول وجاهد واستدعى يوسف أكثر من مرة لعله يصل لأي خيط.. لكن الفشل كان حليفه فلم يجد سوى أن يقول ليوسف:

"اصبر.. فلقد تعلمت أن أي قضية عندما يحكمها الغموض الشديد نتركها ونحن ندرك أنه سيأتي يوم ما تكشف نفسها وتتعرى الحقائق كلها..

فنحن قد نظل طوال الليل نحارب الظلام دون جـدوى لكـن الـشمس تبيـده في لحظات.. والحق مهما تأخر وصوله فله ساعة لا بد أن يصل فيها".

حمل يوسف تلك الكلمات وعاد لعزلته ينتظر في حياة صارت بلا طعم وبدت كصحراء قاحلة يسير فيها يكاد العطـش يقتلـه في انتظـار الوصـول إلى الماء ربما لحق به قبل أن يخطفه الموت.

قد تكون شاهيناز أملاً يعينه لكنه أمل مع إيقاف التنفيذ قد تدب فيه الحياة لو عثر على طارق وربما قتله طول الانتظار.. وهل يكون للحـب مكـان عند إنسان يقتله الانتظار ويخنقه اليأس وحياته بلا طعم؟ هل يمكن أن يولـد الحب وسط النار؟!

أوَيكون قادرًا على اختراق الجليد؟ صعب أن تعثر على إجابة وأنت لا تملك إجابة لحياتك.. هكذا رد يوسف على نفسه بدموع حارقة.

دعاه صديقه طه لزيـارة الإسـكندرية للاسـتجمام في اتـصال هـاتفي.. رفض.. فلا راحة قبـل أن يحقـق مـراده.. طـه قـال لـه: "أنـت تقتـل نفـسك بالبطيء".

تنهد يوسف وهو يرد عليه: "نفسي فقط أن أعرف إن كان ولدي حيًا أم ميتًا.. هذا كل ما أطلبه من الحياة".

"ما المانع أن تستمر الحياة وتبحث في الوقت ذاته عن طارق؟".

"كلام قُتل بحثًـا.. هـل يمكـن أن يـسير القطـار مـن دون إشـارات؟!

حياتي لا يمكن أن تسير من دون أن يحل لغز الاختطاف".

انتهـت المكالمـة.. شـعر يوسـف بعـدها بالنـدم.. لمـاذا لم يـذهب للإسكندرية ليبحث عن طارق ربما يكـون هنـاك؟! ربمـا يكـون قريبًـا جـدًا وربما بينهما مسافات شاسعة لكن هذا كله لا يهـم الأهـم متـى يلتقيـه لـيس مهمًا المكان.. الزمان هو المعيار.

ويطول الانتظار.. فالأيام تمر بلا هوادة لا يشعر بها إلا الجالسون في محطات الانتظار رغم تباين ما يطمحون إليه ودائمًا الحياة انتظار ويأتي الغد يعطينا أحداثه ويرحل ونحن نتصارع وننتظر الغد وما بعد الغد وكل غد.

"خلق الله لنا العين لكي ننظر للأمام".

هكذا قالت شاهيناز في التليفون فرد يوسف:

"الحياة تأخذ ما تريد ولا تعطينا ما نريد".

"يصعب علينا أن تمر عليك الأيام دون أن تستغلها".

"أحيانًا لا تأتي الحياة لمن يسعى إليها".

"كلامك بعيد عن الواقع ويحمل لهجة التشاؤم".

"الأمور كلها سينصلح حالها عندما أعثر على طارق".

"وماذا لو قدر الله ولم تعثر عليه؟".

"لا أعرف لأنني وقتها سأكون ميتًا".

وضعت السماعة بعد حوار بلا فائدة.. تتخبط أفكارها.. فالكلام معه لا يجدي وكأنه أوجد قضية ابنه لكي يهرب من الحياة ويبرر عزلته ويركن إلى انتظار أمل تاه في ظلمات الحياة.

لكنها تعود تقول: معذور خطف ابنه أمام عينه أصابه بالشلل وقلب حياته رأسًا على عقب.. ربما ننسى أو نسامح من خطف منا أي شيء إلا فلذة كبدنا.. فالحياة من دونه عذاب وآلام.. مسكين يوسف يتحمل همومًا لا يقوى على حملها الكثيرون.. لديَّ يقين أنه سيعثر على ولده ويعوضه الله عن تلك الأيام القاسية.

* * *

وتواصل الأيام رحلتها تغزل شهرًا وراء شهر.. وبينما يوسف غارق في النوم استيقظ على طرق على الباب ليجد صديقه طه ليرتمي في أحضانه بلهفة وشوق وكأنه يحتمي به من العالم لا يود أن يتركه وكم كانت فرحته طاغية عندما أخبره طه أنه استقال من عمله وسوف يستقر في القاهرة فرد يوسف على الفور:

"أحسن.. فأنا في أشد الاحتياج لك".

فقال طه ونظره يشير إلى صورة طارق على الحائط:

"أليس هناك جديد؟".

فهز يوسف رأسه يأسًا.

فرد طه في حدة:

– معقول كل هذه المدة من دون أي معلومة؟!

فأطرق يوسف محاولاً كتم دموعه.

يستطرد طه حديثه:

– حتى من خطفاه لم يظهر أي شيء وكأنهما من كوكب آخر نزلا خطفا طارق ثم صعدا.. عقلي يكاد ينفجر من التفكير.. الأسئلة كلها بلا إجابات.

صمت يوسف هنيهة ثم قال بصوت متقطع:

– رغم هذا السواد لديَّ يقين أنني سأعثر عليه إلا إذا كان قد مات.

وهنا أجهش بالبكاء.

فهدأ طه من روعه وهو يقول: "دع أمرك للخالق".

في اللحظة نفسها كانت شاهيناز تكاد تطير فرحًا بعد أن انتهت من جمع المادة العلمية وأثنى عليها الدكتور المشرف وبدأ الإعداد لمناقشة الرسالة.

ويبدو أن السعادة لا تأتي إلا مجتمعة.. فقد عادت مبتسمة لتستقبلها والدتها بابتسامة مشرقة على غير العادة.. ألقت شاهيناز الخبر الذي يقف خلف سعادتها.

لكن الأم امتعضت قليلاً ثم عادت لابتسامتها وهي تقول:

ليس مهمًا ذلك.. مبروك.. خالتك أحضرت لك عريسًا.

تبددت ابتسامة شاهيناز وسرحت بخيالها تجاه يوسف وصمت

أذنيها عن كلام أمها عن هذا العريس ومميزاته لتهرب إلى عزلتها في حجرتها تلملم أفكارها وتعيد ترتيب تلك المفاجآت التي هوت عليها دفعة واحدة.. تشعر بقليل من الفرح لأن هناك شخصًا تقدم طالبًا يدها.. تزهو بنفسها.. هناك من فكر فيها.. لكنها سرعان ما تفيق عندما تتراءى إزاء عينيها صورة يوسف تتساءل: ماذا أفعل؟ وكيف أتصرف؟ هل أرفض العريس وأتمسك بيوسف لكنه غير مستعد بينما العريس جاهز؟ وربما لو فرطت فيه أندم وأصبح كمن فرط في عصفور وتعلق بعشرة على الشجرة.. كما أن أهلي لن يسمحوا لي أن أرفض هذا العريس.. إذًا ما الحل؟

أسرعت تتصل بيوسف.. طلبت منه أن يلتقيا غدًا لأمر مهم ولم تشأ أن تخبره بأي شيء ولم يكن يوسف لديه رغبة في سماع أي شيء في تلك اللحظة فتركا لقاء الغد يفصح عما فيه.

وفي الكازينو جمع بينهما اللقاء حيث كان يوسف على عادته عبوس الوجه متجهمًا بينما شاهيناز تحمل قدرًا من السعادة والتفاؤل وبدأت الحديث تسأله:

"هل هناك جديد عن طارق؟".

فأومأ يوسف رأسه بالنفي ثم قال:

"صوتك بالأمس كان ينم عن أمر مهم".

ردت شاهيناز بنوع من التردد:

"بصراحة هناك أمران.. الأمر الأول: أنني انتهيت من إعداد الرسالة

وأستعد لمناقشتها".

فرد يوسف ببرود:

– مبروك.. وإلى ماذا توصلت في هذه الرسالة؟

– كل منا مسئول عن ظاهرة أطفال الشوارع بل وشريك في هذه الجريمة رغم وجود القانون...

فقطع يوسف حديثها بقوله:

– القانون ضيف شرف.. سيف في أيدي الأقوياء مسلط على رقاب الضعفاء.

– من المفترض أن نستخدم القانون للوقاية وليس مجرد أداة للعقاب واسترداد الحقوق.

– وماذا عن عكاشة والتوربيني وغيرهما؟

– هذه مجرد نماذج.. هناك العشرات من عينة عكاشة والتوربيني.

– هؤلاء نماذج صنعناها بأيدينا كمن أهمل نظافة داره فأصبحت مرتعًا خصبًا للفئران عاثت فيها فسادًا.

– ألم أقل لك إن المجتمع كله مسئول؟

– ما الحل إذًا؟

– يبقى العلاج بالمسكنات.. ولكن دعنا من هذا الحديث الآن.. ألا تريد أن تسمع الموضوع الثاني؟

- هل هناك جديد؟

فردت وقد عاودها الخجل والتردد:

- بصراحة هناك شخص تقدم يطلب يدي.

أطرق يوسف هنيهة وكأنه توقع سماع هذا الخبر.

ثم قال بصوت مكتوم:

"مبروك".

شحب وجه شاهيناز وحاولت أن تكتم صدمتها وهي تقول بحدة:

- أنا لم أقل لك ذلك حتى أنتظر منك هذا الرد.

فصمت يوسف ونظره عالق نحو الشجرة العملاقة المرابطة أمامهما بينما واصلت حديثها:

"إن لم أفهمك حتى الآن أحيانًا أشعر أنك نهر من المشاعر الفياضة والرومانسية المتدفقة وأحيانًا أشعر أنك عبارة عن جبل من الثلج".

ثم أشاحت بوجهها عنه حتى تداري دموعها وضعفها.

فرد يوسف بنبرة حادة:

- أنت تعلمين ظروفي.

- ولماذا لا تقدر أنت ظروفي؟ بصراحة وحتى لا أفرض نفسي عليك هل أنت متمسك بي أم نبقى مجرد ذكرى جميلة؟

فرد يوسف مندفعًا وبخوف ورجاء:

- لا.. أرجوك أنا في أشد الاحتياج لك.. فلم يعد لي أحد سواك في هذه الحياة.. فأمي رحلت ومن قبلها زوجتي.. وابني لا أعرف مصيره حتى الآن.. فأنت أملي في الحياة الذي أستمد منه القوة التي تعينني على مواجهة الحياة.

انتعشت وهي تسمع كلامه وبدت لو أن الحياة عادت إليها.. بينما أكمل يوسف حديثه:

- لكن المشكلة أننا نتمنى أشياء وتفاجئنا الحياة بأشياء تعطل مسيرتنا ربما الشيء الوحيد الذي فزت به من أزمة اختطاف ولدي هو أنت.

- أنا؟!

- نعم.. وكل أملي الآن ألا نفترق.

- اعذرني إن كنت قد حدثتك بلهجة قاسية لكن الضغوط عليّ تخنقني.

- كلنا يعاني ولكل منا عذره.

- أنت قلبك كبير تحمل ما لا يطيقه أحد.

- مستعد أن أتحمل أضعاف ذلك في سبيل العثور على طارق.

وهنا فلتت دمعة تدحرجت على خده فقالت شاهيناز:

- بإذن الله سيجتمع الشمل مرة أخرى ويعود طارق إلى أحضانك.

انتهى اللقاء دون حسم وعادت شاهيناز لتستقبلها أمها تسألها عن رأيها في العريس.. لكن شاهيناز ردت في ثقة وتحدٍ:

"لن أفكر في الزواج إلا بعد أن أحصل على رسالة الماجستير".

وبمجرد أن سمعت أمها ذلك ثارت ثورة عارمة رافضة رد وفكر ابنتها ونادت على زوجها الذي دخل محاولاً تهدئتها وفي الوقت نفسه قال لابنته:

"ما المانع يا بنيتي في أن توافقي وستكون خطوبة فقط وبعد حصولك على الماجستير يكون الزواج؟".

فردت الأم في عصبية حادة:

"ماجستير إيه؟ الزواج أهم.. أنا من البداية وأنا رافضة موضوع أن تكمل دراستها.. كفاية إلى هذا الحد ماذا أخذت من الدراسة؟ وبعد أن تأخذي هذا الماجستير ألا تنظرين إلى سنك؟ أتريدين أن تصبحي عانسًا؟".

فقاطعها الأب بعصبية قائلاً:

"كفاية ودعيني أتفاهم مع ابنتي".

لكنها واصلت عصبيتها قائلة:

"دعني أنا أربي ابنتي وأختار لها إن كانت لا تعرف مصلحتها.. بالله عليك كيف ترفضين هذا العريس بدلاً من أن تحمدي الله؟ إنك بذلك ترفسين النعمة".

وخرجت وهي تغمغم وتضرب كفًا بكف بينما اتجه الأب ناحية ابنته قائلاً بحنان:

"كفى بكاء يا شاهيناز.. إنها أمك ويهمها مصلحتك وأن تكوني سعيدة في حياتك".

فردت شاهيناز وهي تجفف دمعها:

"لكن أنا حرة في اختياري".

– لست حرة.. فمن حقنا أن نختار معك ونوضح لك الأمور بميزان خبراتنا في الحياة.. ممكن أعرف سبب رفضك؟

– قلت لك يا بابا السبب.

– غير مقنع.. أنت تعلمين أنني أحب الصراحة وعلمتك أنها أقصر الطرق لتحقيق ما نريد.

أطرقت شاهيناز تنازعها رغبتان.. هل تقول له الحقيقة ربما تعاطف معها أم تدفن نفسها في دائرة الكتمان ربما تهدأ الريح؟

لكنها لم تجد بدًا من أن تفضح مشاعرها وتقول الحقيقة.

6

طارق هدف لن أتنازل عنه ولن تكون شاهيناز البديل أو دواء للنسيان.. فلا يمكن لأب أن ينسى ولده.

هكذا رد يوسف على سؤال طه بعد أن أخبره بآخر تطورات موضوع شاهيناز وعزمه على التقدم لخطبتها لكن طه عاد يسأله:

وهل تستمر الحياة على أمل طال انتظاره؟ كنت تحمل همًّا واحدًا أرجو ألا يكون من الآن همين.

– وهل من الأفضل أن تظل حياتي تمر هكذا؟ أنا أحتاج لإنسانة تشاركني حياتي بكل ما فيها من أفراح وهموم.

– وهل ستتحمل شاهيناز همومك؟

– أمرك غريب.. كنت تنصحني أن أخرج للحياة وعندما فعلت تهاجمني الآن!

– كثرة الهموم أحيانًا تجعل حياتنا غيومًا وضبابًا لا نميز الطريق الصحيح.

– لقد توكلت على الله ولا أعتقد أنه سيحدث لـي أكثـر ممـا أنـا فيـه الآن.

– ربنا يوفقك.

– يا رب.

يأتي الليل.. يغرق يوسـف في دوامـة أفكـاره.. مـا زال قلبـه منقبـضًا خائفًا مما هو قادم.. هل تكون شاهيناز بسمة تخفـف آهاتـه أم شـوكة تزيـد أوجاعه؟

أما هي فالنوم جافاها.. تُمنِّي نفسها بسعادة مقبلة لكن القلق يساورها بعد أن سمعها أبوها وتركها دون رد منه وتتوقع ثورة من أمها عنـدما تـسمع عن يوسف.

وصدق حدسها.. فقد جاءها صياح أمها وصوتها الغاضـب العاصـف.. حاولت أن تسترق السمع أيقنت أن حديث أمها يخصها.

ثورة عارمة وغضب شـديد وكلمـات عاصـفة تعلـن أمهـا مـن خلالهـا رفضها اختيار ابنتها والأب يحاول تهدئتها وإعطاء فرصة للقادم ربما يكـون أفضل فيشتد غضبها.. تصفه بالضعف والسلبية وأنه فشل في تربية ابنته.

في تلك الأثناء يفتح باب الشقة ويدخل الابن يستنكر صوت أمه العالي التي تستنجد به لكي يقف معها لكنه رد عليها بلا مبالاة قائلاً:

"اتركيها على حريتها لتختار من تشاء".

ثم دخل غرفته وأغلق الباب خلفه وأمه ما زال صوتها لم يهدأ تعاتبه قائلة:

"حتى أنت يا هاني".

فرد الأب متهكمًا: "هو البيه فاضي لنا ولمشاكلنا؟ نحن لم نعد نراه إلا نادرًا".

فردت الأم بعصبية: "أنت دائمًا ضده وتحبط من عزيمته".

فضحك ساخرًا: "عزيمة؟! ابنك عنده عزيمة؟ ليته كذلك".

- اتركه يشق طريقه كما يشاء.

- "ومن قال لك إنه لا يفعل إلا ما يروق له؟ للأسف دلعك زرع فيه صفات سيئة".

- أنا؟! ابني والحمد لله زينة الشباب.

- لكنه فاشل.. تصرفاته مريبة وسلوكه دائمًا يجلب لنا المشاكل.

- بل ناجح ويعمل ويكسب.

وما هذا العمل؟ حاولنا مساعدته كلما سألته يتهرب.. مرة يتاجر في الموبيلات ومرة يوزع إكسسوارات على الصيدليات ومرة عاطل ومرة عليه شيكات وإيصالات أمانة.. لا يعمر في عمل لمدة طويلة.. ابنك مهدد بدخول السجن في أي لحظة.

- دعه.. لم يعد صغيرًا ويعلم ما يفعله تمامًا.. أنت الذي لا يعجبك أي تصرف منه حتى لو كان صحيحًا.

- أنا أتمنى أن يكون في أحسن حال لكنه يخيب ظني دائمًا.

- دعك منه وقل لي ماذا عن ابنتك؟

- الكلام معك لن يجدي الآن.. النوم أفضل الآن.

ودخل غرفته وهي خلفه تغمغم بانفعال.

بينما خرج هاني من غرفته يفتش في المطبخ عن أي طعام في اللحظة نفسها دخلت عليه شقيقته شاهيناز تقول له:

لم نعد نراك إلا في المناسبات.

مشاغل يا أختي.. أنت تعلمين أنني لا أحب القعدة.

- المهم يكون بفائدة.

- طبعًا.

- على فكرة هناك سؤال من زمن أود أن أسألك عنه لكن كنت دائمًا أنسى.

- خيرًا؟

- الولد الذي كان معك هل سلمته لأهله؟

سقط كوب الماء من يده فور أن انتهت من كلامها وظهر عليه الاضطراب الشديد كأن ثعبانًا لدغه.. ونظر إليها نظرة خوف ودهشة وعيناه تكاد تخرجان من مقلتيه ورد بعصبية وهو يجمع معها أشلاء الزجاج المكسور والشرر يتطاير من عينيه:

– ما الذي فكرك به الآن وقد مرت شهور طويلة على هذا الموضوع؟

– لا مجرد سؤال و...

فقاطعها وهو يفر خارجًا من أمامها:

– أبوه تسلمه وانتهت القصة ويا ليتك تنسين هذا الموضوع.

لكن شاهيناز استحضرت صورة طارق التي رأتها مع يوسف من قبل من الذاكرة وهي تبدي دهشتها تحاول أن تتهرب من علامات استفهام تحيرها.

اتجه هاني إلى صديقه علاء الذي يعمل في سنترال خاص والقلق يعتصره.. فلما رآه صديقه سأله فورًا عما به.

– لا شيء.

لا.. شكلك يؤكد عكس ذلك وأنا أعرفك جيدًا أعصابك لا تهتز بسهولة.

– الحكاية أن أختي سألتني عن الولد إياه.

فانتفض هاني وقام ترتعد أوصاله لا يستطيع أن يجمع كلامه فقال وهو يرتعش:

- يا نهار أسود.. هي عرفت حاجة؟

فرد هاني بعصبية مستنكرًا رد فعله:

- اهدأ يا علاء.. خوفك هذا سيفضحنا.. إنها كانت تسأل مجرد سؤال.

- ومن فكرها به الآن؟ لا.. لا.. أكيد هناك شيء.. الموضوع انتهى من زمان فلماذا تسأل الآن؟

- هي كانت تريد سؤالي من فترة لكنها كانت تنسى.. كما أنني لا أراها كثيرًا فمعظم وقتي كما تعلم أقضيه خارج المنزل.

أنا قلت لك من الأول لا تأخذه إلى منزلك حتى لا يشك أهلك في الموضوع.

فرد هاني بعصبية وهو يهم بالخروج من المحل:

- اسمع يا علاء كفاية كلام وفتح دفاتر قديمة.. الموضوع خلاص انتهى.. الولد تسلمه أبوه ولا تنسَ أننا في محل فيه داخل وخارج.. ممكن الكلام يفتح علينا أبواب الجحيم.. الولد الآن في أحضان أبيه.. انسَ.

- وماذا عن أبيه الحقيقي؟ من أدراك ربما يعرف طريقنا؟

- ربنا يعوض عليه.. وانسَ الموضوع وكأن شيئًا لم يحدث.

في تلك اللحظة دخل زبون فخرج هاني بينما القلق لا يزال يطارد صديقه علاء.

في الصباح أخبر الأستاذ إبراهيم ابنته شاهيناز بأنه يريد مقابلة يوسف.. انتعشت السعادة في أوصالها لكنها جاهدت أن تخفيها وأومأت برأسها.

وفور خروجها من المنزل اتصلت من المحمول بيوسف الذي استيقظ على هذا الخبر واتفقا على يوم الخميس موعدًا لهذا اللقاء وأنهى المكالمة ومشاعره ما زال الحزن يملؤها وكأنه خبر عادي فكل شيء تساوى لديه إلا ابنه طارق لا أي خبر عنه وقلبه ما زال يتمزق ولا يدري ما نهاية هذه الرحلة المريرة والأيام تمر وتتباعد المسافات بينه وبين ابنه.

ينام ويستيقظ على الدموع.. يتمنى أي نهاية حتى لو عرف أن ابنه مات.. سيحزن أيامًا وينسى لأن قلبه سيكون قد اطمأن على مصير ابنه وتنتهي المأساة.. لكن أن تظل هكذا سيظل الجرح ينزف ولن يعرف لحياته طعمًا وتبقى الأحزان ترافقه تسقيه مرارة وآلامًا.

يخرج لعله ينسى لكن قدميه تقودانه إلى قسم الشرطة.. يكاد يصرخ في وجه الضابط الذي أعطاه الإجابة نفسها: ما زال البحث جاريًا ولا جديد كالعادة وتبقى الأمور مياهًا راكدة لا أمل يلوح كي تتحرك.

٦

جاء يوم الخميس وحان موعد لقاء يوسف بالأستاذ إبراهيم والد شاهيناز التي بدا عليها القلق نظرًا لموقف أمها ورفضها ليوسف الذي حضر في الموعد فاستقبله الأستاذ إبراهيم وجلسا في حجرة الصالون وبعد كلمات الترحيب قال الأستاذ إبراهيم:

– لقد حكت لي شاهيناز عن ظروفك.. لكن ما يحيرني هو موضوع اختطاف ابنك.

تنهد يوسف من أعماقه وهو يقول حزينًا:

– أنا صاحب الموضوع في حيرة أشد.. لا يوجد أي مبرر لخطفه فليس لي أعداء ولم تظهر معلومات عمن خطفاه ولا خيط يقودنا لمعرفة الحقيقة.

– اعذرني.. أنا أعلم ما بك من حزن.

– لا عليك.. من حقك أن تعرف كل شيء عني.

– وماذا تنوي أن تفعل يا ابني؟

– عندما أعثر على ابني سأفكر.

- لكنك الآن من المفترض أنـك مقبـل علـى حيـاة جديـدة ولـن تكـون وحدك.

- ربما أحد أهم أسباب تفكيري في الزواج هو محاولـة خروجـي مـن الحالة التي أنا عليها الآن وأنا لديَّ خبرة في مجال عملي كافية لعثوري علـى العمل بسهولة عندما أفكر في ذلك.

- أتمنى لك التوفيق.

- أنا ولله الحمد إمكاناتي تساعدني في إتمـام الـزواج بـسرعة.. لعلـك تعلم أنني سافرت للسعودية عدة سنوات وفَّرت لي الكثير.

- أهم شيء لدينا الأخلاق.. أنا سوف أعطيك جوهرة غالية تعتبر هي الشيء الذي خرجت به من الحياة رغم أن لي ولدًا كنت أتمنى أن تقابله لكـن البيـت عنـده مجـرد "لوكانـدة" للنـوم والأكـل.. لا نـراه إلا نـادرًا.. فـشل في الدراسة وسبب لي متاعب كثيرة يحب المشاكل ولا يستر نفـسه في أي عمـل.. حاولت مساعدته وأعطيته أكثر من مرة نقودًا كي يبـدأ بهـا مشروعًا تجاريًـا ويواصل حياته في أمان.. لكنه يضيعها في تفاهات بـل وتتراكـم عليـه الـديون ويهدِّد بدخول السجن فلا أجد مفرًا من السداد بدلاً منه.. للأسف كـان الابـن الوحيد.. "دلعناه زيادة عن اللزوم".

- طيش شباب وغدًا سوف ينصلح حاله.

- أما أخته شاهيناز فالعكس تمامًـا.. متفوقـة منـذ صـغرها وقمـة في

الأدب والالتزام.. نجحت في تربيتها وفشلت في تربية من سيحمل اسمي.

– لكن يا أستاذ إبراهيم رغم هذا كله هم فلذات أكبادنا التي تمشي على الأرض مهما فعلوا فلن نتخلى عنهم.

– شيء طبيعي.. نحن نتمنى أن يكونوا أحسن منا ولا يمكن أن نتخلى عنهم حتى لو تخلوا هم عنا.

– من أجل هذا لن يهدأ لي بال ولن يغمض لي جفن حتى أعثر على ابني.

وهنا غلبت الدموع يوسف فقال الأستاذ إبراهيم مخففاً عنه:

– اهدأ يا باشمهندس وإن شاء الله سوف تجده.. فالله لا يرضى بالظلم ومهما طالت الأيام فالحق سيعود.

خارج الحجرة كانت الأم تغلي وعندما رأت ابنتها تعد العصير قالت:

"سمعت أباك؟ لا يستريح إلا عندما يشغل الأسطوانة المشروخة عن هاني وكأنه عدو له".

فقالت شاهيناز وهي تحمل الصينية: "إنه أبي ونحن نعرف طباعه يا ماما ولا جديد عليه ذلك رغم أننا نبهناه أكثر من مرة".

دخلت شاهيناز بابتسامة الخجل تقدم العصير فقال والدها:

- تعالي يا شاهيناز اجلسي.

قال يوسف:

- أنا سعيد أنني تعرفت على حضرتك.

- فقال الأستاذ إبراهيم:

- بارك الله لك.. نحن الأسعد وربنا يديم المودة.. أهم شيء بين الناس المعاملة الطيبة.. فهي التي تبقى وتدوم حتى عندما يفارق الإنسان الدنيا يتذكره الناس ويترحمون عليه لمعاملته السمحة.. وهذا ما حرصت عليه طوال حياتي.. معاملة الناس بالحسنى.. فالدين المعاملة ولن تُقبل منك أي فروض أو طاعات إلا من خلال معاملاتك مع الناس وحب الخير لهم.

فرد يوسف:

- أكيد أهم ميراث يتركه الإنسان هو حسن تعامله مع الناس.. لكن للأسف هناك بعض البشر يقابلون الحسنى بالإساءة وربما تفاجأ بأناس لا تعرفهم يؤذونك وأنت لم تسئ لهم.. بمعنى آخر تريد العيش في سلام لكن من البشر من يدخلك في صراعات.

قال الأستاذ إبراهيم مازحًا:

- كن متفائلاً.. فالحياة بها الخير والشر ولا بد أن نتعامل معهما.

ثم خرج تاركًا يوسف مع شاهيناز التي قالت:

– أتمنى أن تكون سعيدًا.

– سعادتي الآن عندما أكون معك.

– وأنا إن شاء الله سأكون عند حسن ظنك.

– أنت الآن شعاع النور في حياتي التي تحولت بخطف طارق إلى ظلام.

ثم تنهد من أعماقه وهو يواصل حديثه:

– آهٍ لو يعود وتكتمل سعادتنا عندها لن نريد من الدنيا سوى الأمان فالحب سيجمعنا والدفء.. فأنت ستكونين أمه.

– اشتقت كثيرًا للقائه فهو بالفعل ابني.. أنا أحب الأطفال جدًا ولديَّ يقين إن شاء الله أنه سيعود.

– أنا أعيش على أمل أن يعود.. فلا أدري سببًا لخطفه وأنا لم أحاول إيذاء أحد.

ما زالت صورة الشابين وهما ينتزعان طارق من بين يدي تمزق قلبي وتشعل النار بداخلي.. كلما سرت في الشارع أتفحص وجوه الناس لعلي أصادف وأقابل أحدهما لن أحاول إيذاءه بل لكي يعيد لي ولدي وأعرف لماذا خطفاه.. لو طلبا حياتي فداء له فلا مانع لديَّ.. هو ما زال نبتة صغيرة لا ذنب له في أن يحرماه من حضن أبيه.. ألا يكفي أنه حُرم من حنان أمه؟

- أرجوك اهدأ وكن على يقين أن الله سينصرك.

- لنا الله.

في الصالة قال الأستاذ إبراهيم لزوجته:

- إنه إنسان على خلق ولكن ظروف ابنه الغامضة أثرت عليه.

فردت زوجته:

- وهل يعقل أن تتزوج ابنتي برجل سبق له الزواج وظروفه هكذا؟ هل تفرط فيها بهذا الشكل؟

- هي التي اختارت.

- لا بد أن ننصحها.. هي عديمة الخبرة وستندم بعد ذلك.

- الرجل من خلال لقائي معه يحبها وسيحافظ عليها ولا بد أن نحترم اختيارها.

انتهى اللقاء وخرج يوسف يحمل قليلاً من السعادة الغائبة بينما عاتبت شاهيناز أمها لعدم دخولها لمقابلة يوسف والتعرف عليه فردت الأم غاضبة:

- أنا رافضة هذا الموضوع ولن أوافق عليه.. ما الذي يرغمك على الزواج من رجل سبق له الزواج والمشاكل تحاصره؟

- أرجوك يا ماما هذا اختياري وهذه حياتي وأنا فكرت جيدًا ولن

أتراجع.

- ستندمين بعد ذلك.

فرد والد شاهيناز:

- يا ابنتي أمك يهمها مصلحتك وهي خائفة عليك.

- يا بابا أنا أدرك مصلحتي جيدًا.

فقالت الأم وغضبها تزداد حدته:

- كيف توافقين على إنسان فشل في الحفاظ على ابنه؟ من يدري ربما لا يستطيع الحفاظ عليك أيضًا.

- أرجوك يا ماما مسألة ابنه خارجة عن إرادته.. لا بد أن نقف بجانبه ونسانده حتى يعثر عليه.. وأنا لي رجاء عندكما.. لا تذكرا مسألة خطف ابنه أمام أخي هاني فأنتما تعلمان أنه يخلط الهزل بالجد وربما يحاول الهزار مع يوسف فيجرحه بكلمة.

فردت أمها بسخرية:

- ممكن أن تعملي "كتالوج" لنا بما يجب أن نتحدث به مع سي يوسف.

* * *

تطايرت نسمات السعادة عندما عاد يوسف إلى شقته ووجدها كما هي مقفرة موحشة بلا روح ولا تحمل أملاً ومن يدري ماذا يحمل الغيب؟ اصطدم بصورة زوجته الراحلة.. وقف يتأملها يتمنى لو عاد الماضي يخاطبها: "اعذريني.. الحياة هي التي فرضت عليَّ ذلك.. لم أكن أود أن يحمل القلب غيرك لكن لا بد الآن أن أعيش مع غيرك ربما أعثر على السعادة التي رحلت معك.. اعذريني.. طارق ما زال مجهولاً لا أعرف له مكانًا وأنا لم أقصر في البحث عنه ولا يمكن أن يكون موضوع زواجي بديلاً عنه.. لا وألف لا.. ولا مجرد محاولة نسيان بل سأظل أبحث عنه ولن يهدأ بالي حتى يعود لدفء أحضاني.. اعذريني.. أحيانًا يتمنى الإنسان الموت مثل غيره لكن لا يمكن أن يكون حلاً حتى لو أحس أن الموت يقترب منه سيحاول الهروب تدفعه غريزة البقاء فلننتظر الغد ربما يحمل الأمل ويشفي آلامنا".

تحولت نظراته لصورة ابنه طارق يخاطبها:

"أنت أيضًا اعذرني.. فعلت المستحيل حتى تعود بلا جدوى.. لا أثر لك وكأنك لم تولد أصلاً.. أشعر بالخجل منك.. لكن لا بد أن تعذرني فأنا لم أقصر ولم أتخاذل أو أتخلَّ عنك لكن الوغدين نجحا في إبعادك عني.. لماذا؟ لا أدري.. هل تعرف أنت الجواب؟ الأيام تمر وأنت ما زلت بعيدًا كالنجوم نتمنى أن نصل إليها لكن لن نصل.. فهل تكون كذلك؟! لكن نحن نرى النجوم أما أنا فمحروم من رؤيتك ومعرفة مكانك.. لماذا؟ لا أدري.. المساجين من

حقهم أن يزورهم أولادهم ويجلسون معهم.. أما أنا فلا.. بلا أي ذنب ورغم ذلك محرم علينا اللقاء.. أين أنت؟ هل تسأل السؤال نفسه أم أن الوغدين نجحا في محو صورتي من ذاكرتك وجعلاك يتيما؟ لكن اصبر لا بد أن تشرق الشمس وحتمًا سيجمعنا لقاء.. فالله لا يرضى بالظلم.. وأنا وأنت تعرضنا لظلم فادح وغدًا سيدفع هذان الوغدان الثمن غاليًا وما دامت الأيام تمر فهذا يعني الأمل في اللقاء وأن تعود تنير حياتي.. اعذرني.. لكن سوف أعوضك عندما تعود.. كل ليلة بعدت عني فيها سأعوضك عنها فإن حناني بلا حدود.. عد أولاً وسترى كيف يكون الحنان..

تمر عيناه على الصورة التالية.. أمه يخاطبها:

ما زلت من دونك أتخبط في الحياة يا نور عيني.. تركتني وحدي.. كم تبدو الدنيا مظلمة منذ رحيلك.. كنت الأمان والمرجع.. بك لم يكن للتفكير مكان فأنت جاهزة لكل خطوة أخطوها.. تعطيني القرار والاختيار.. أما الآن فأقف تحت الشمس المحرقة.. فقد رحلت يا ظلي وسكني وأمني.. قد تتواصل الحياة من دونك لكنها حياة ألم وشقاء.. فما عاد أحد يسقي زهور السعادة.. كنت في أشد الاحتياج إليك عن أي وقت مضى لكن ماذا نقول وقد قال القدر كلمته؟ وتبقى الذكرى ربما تنعش الآمال ونتغلب بها على تقلبات الأيام.

يوسف يفكر في الأموات.. بينما شاهيناز يأخذها التفكير إلى الغد

المشرق طالما ستكون مع حبيبها الذي اختاره قلبها والأحلام الوردية تداعبها.. تتمنى أن تمر الأيام سراعًا وتزف إليه وتتنفس معه نسمات السعادة وترفرف عليهما طيور الحب والمودة.. أخيرًا عرف الحب قلبها ووجدت من يبادلها هذا الحب وتتوحد مشاعرهما.. لم تعد ترى سواه.. هو الأمل والسعادة المنتظرة وتبقى الأحلام الوردية في انتظار أن يأتي يوم تتحقق فيه وتنشر البسمة والسرور.. لكنها تذكرت طارق الغائب الذي يمثل شوكة قد تئد كل سعادة قادمة.. لكنها أحضرت أحلامًا ترسم صورة طارق وقد عاد وعادت معها ابتسامة يوسف المؤجلة.

ما أكثر الأحلام في زمن يرفض أحيانًا الاعتراف بها ومن يبحث عنها يجد من المتاعب ما يجعله يرضى بالهموم وينكر وجود شيء اسمه الأحلام.. حتى من يحاول أن يحلم يطارده المستحيل ويغلق في وجهه الأبواب ويلقي عليه شباك الإحباط وينشر سيمفونية الفشل.

إنها الآن على وشك مناقشة رسالة الماجستير.. لكن ليس لديها أي أمل في التعيين في الجامعة.. فالأبواب مغلقة وممنوع الاقتراب.. يخالطها حزن كلما تذكرت ذلك.. لكنها تمضي في الطريق ربما تنهار أحلام من يرفضون أحلام الآخرين وتفتح السبل كلها وتصبح الأحلام مشروعة وتحقيقها حقًا لكل مجتهد.. من يدري؟ ربما تتفتح الصورة وربما تزداد قتامة ويطاردنا المستحيل بضراوة.. يصبح حتى مجرد تنفس الهواء والوقوف

على الأرض أمرًا عسيرًا بفضل من يرفضون أحلام الآخرين وليبقَ الكون مرتعًا لهم يأكلون فيه بعضهم البعض.

ليس المستحيل مستحيلاً.. لكن بأيدينا قد نجعل اليسير مستحيلاً.. ونسير في جنازة أخطائنا نلطم ونسب القدر ونخدع أنفسنا بأنه السبب في أحوالنا.

حاولت أن تخرج من أحزانها وتستحضر صورة يوسف والأحلام الوردية لكن صورة طارق ما زالت تطاردها.

في اليوم التالي التقت الدكتور المشرف على رسالتها وتم تحديد هيئة المناقشة وبقي الموعد لم يتحدد بعدُ.. عليهم الانتظار حسب القاعة التي ستتم فيها المناقشة والوقت الذي تكون فيه خالية.

بينما استيقظ يوسف على قدوم صديقه طه الذي قال مداعبًا:

– مبروك يا عريس.

لكن يوسف ظهر على وجهه الضيق وهو يقول:

– كلامك يحمل سخرية.

– بل نيتي سليمة ولا أقصد الاستهزاء.

– لقد ذهبت أمس وتقريبًا اتفقنا على كل شيء.

– ومتى الزفاف يا عريس؟

واقعًا جديدًا.. وعندما تقدم إليها من يريد أن يرتبط بها طلبت أن أتقدم ولأنني سبق أن اعترفت لها بمشاعري كان لا بد أن أستجيب ولا أراوغ.. فهي إنسانة على خلق وفيها صفات كنت أبحث عنها كما أنني في حاجة لمن يكون بجواري يشاركني همومي ويشد من أزري.. الوحدة قاسية ومنذ رحيل أمي أصبحت الحياة بلا طعم.. أنا لا أتزوج لكي أبحث عن السعادة بل أتزوج لأبحث عن الحياة.. ولا يمكن أن أشعر بأي سعادة وطارق بعيد عني.. لا تظلمني.

– أنا لا أظلمك.. فلا يمكن أن يلومك أحد.. فمن حقك أن تتزوج.. لكن التوقيت ربما يكون فيه تعجل منك.

– لقد توكلت على الله ولا أعتقد أنه سيحدث لي أكثر مما أنا فيه.. لقد تساوت كل الأفراح والنكبات لا فرق بعد فاجعة ابني.

– ابنك إن شاء الله ستجده.

– الأيام تمر بلا أمل.

– الأيام لا تصنع أملاً بل نزرعه داخلنا يقينًا منا أن الله لن يخيب آمالنا.. ومن يدري ربما يكون اختبارًا من الله؟ فلا بد أن تصمد.

– نعم وهو الوحيد سبحانه العليم بموعد لقاء ابني وهل في الدنيا سيجمعنا لقاء أم الآخرة ستعوضنا حرمان الدنيا!

– لن تكون أفضل من نبي الله يعقوب الذي حُرم من ابنه يوسف –

- لن تطول المدة.. سنتزوج عما قريب.. عقبالك.

- الله يكرمك وتكتمل سعادتك.

- أبوها رجل طيب وإن كان يساورني شك في أن أمها وأخاها لا يوافقان.

- من أوحى لك بذلك؟

- رغم أن شاهيناز تعللت بأن أمها مريضة وأخاها لا يجلس في البيت فإن زيارتي لهم جعلتني أشك في ذلك.

- أهم شيء أن العروسة موافقة.. دعك من الآخرين.

- أنت حالاً أطلقت عليها عروسة؟

- على اعتبار ما سيكون.

- أرى في عينيك كلامًا يقول: لماذا يسرع؟ ألم يكن من الأفضل أن يبحث عن ابنه وعندما يعثر عليه يفكر في الزواج؟

- أنا...

لكن يوسف قاطعه ليواصل حديثه:

- نعم.. كان في نيتي ألا أفكر في هذا الموضوع حتى عندما كان طارق معي.. لكن أحيانًا الظروف تأتي على غير هوى الإنسان.. لقد قابلت شاهيناز صدفة وتواصلت علاقتنا من دون أن ندري أن الحب يتسلل إلينا ويفرض علينا

عليهما السلام- سنين طويلة حتى كتب الله لهما اللقاء فتعلم الصبر.

- ليس لي من دواء سوى الصبر كالمريض ينتظر الشفاء ولا يدري متى يتحقق.

في تلك اللحظة رن هاتفه.. كانت شاهيناز تتصل عليه تطمئن وتخبره بنتائج لقائها مع الدكتور المشرف.. لكن يوسف رد ببرود وسرعان ما أنهى معها المكالمة.. مما أدهش صديقه وسأله عن سبب رده الجاف.. لكن يوسف نفسه لم يكن يدري لماذا فعل ذلك وشعر بتأنيب الضمير لما فعله.

بينما كانت الصدمة قد حلت بشاهيناز وانفلتت دموعها وهي توبخ نفسها لاندفاعها وتكاد تنفجر وهي تتساءل: هل شعر بالملل من ناحيتي؟ كان يجب ألا أتصل به حتى لا يظن أنني متلهفة عليه.. كان لا أبد أن أكون أكثر حرصًا حتى لا يظن أنني متلهفة أو أنني مفروضة عليه.. كان لا بد أن أكون أكثر اتزانًا.. هو الذي يسعى إليَّ وأنا أمتنع.. هذا هو المفروض أما ما فعلته فكان حماقة.

عادت للمنزل في حالة نفسية سيئة.. وبمجرد دخولها استقبلتها مشاجرة كلامية بين والدها وشقيقها كالعادة.. والأم كعادتها تدافع عن ابنها.. لم تشأ أن تشغل نفسها فقد تعودت على ذلك لتدخل غرفتها.. وبمجرد أن أغلقت بابها انفجرت دموعها وارتمت على سريرها تدفن رأسها تصم أذنيها عن العالم وكأن لسان حالها يقول: أنا لا أريد إلا السعادة فلماذا

تعاندني الظروف؟ أما آن الأوان ليعود ابنه لكي يتفرغ لحبنا ويشعر بي وأشعر أنا أيضًا بحبه وحنانه بدلاً من تجهمه وحزنه المستمرين؟

كان والدها لا يزال صوته العالي يصلها كالدخان من خلال الأصوات المتداخلة.. إن شقيقها يريد نقودًا.. وأبوها يرفض إعطاءه.. يأتيها صوت أمها تدعوها للغداء.. تنهض وصوت باب الشقة يغلق بعنف.

خرجت تستطلع الأمر لتجد أمها حزينة.. تسألها عن السبب.. جاءها صوت أبيها من خلفها:

– البيه لا يشبع من أخذ نقود.

ردت الأم بحدة:

– أنت دائمًا تعامله كأنه عدوك.

احمر وجهه وظهر الغيظ الشديد وهو يقول:

– أنا أريد أن أصلح أخطاءك في تربيته.. دلعك الزائد جعل منه إنسانًا مستهترًا قد يفعل المصائب ببرود ومن دون أدنى تفكير في العواقب.

ثم اندفع تجاه ابنته وهو يقول لها:

– بالله عليك احكمي بيننا.. من السبب في أحوال أخيك التي لا تسر؟

لم ترد شاهيناز وكأنها لم تسمع سؤاله وعقلها يفكر في أمور أخرى.

اتجه هاني إلى صديقه علاء في السنترال والحزن يطوقه فلما رآه علاء

قال:

- عدت بخفي حنين كالعادة.

رد هاني غاضبًا:

- اصبر.

- إلى متى؟ لقد صبرت ويبدو أنه لا فائدة وبصراحة أنا أريد نقودي الآن.

فرد هاني غاضبًا:

- قلت لك اصبر ولا تنسَ أنني أخرجتك من ورطة وقعت فيها وكنا متفقين أن ذلك مقابل ألا تطالبني بنقودك وقد خنت هذا الاتفاق.

فتلفت علاء حوله وكأنه يخشى أن يسمعهما أحد ثم قال:

- أخرجتني من ورطة فعلاً لكن بمصيبة كبيرة.. ربنا يستر ولا ننكشف ويظهر والد الطفل.

- حتى لو ظهر والد الطفل خلاص الموضوع انتهى وأصبح الطفل في خبر كان.

فظهر الأسى على وجه علاء وهو يقول:

- ضميري يؤنبني باستمرار.. ما ذنب هذا الطفل؟ وما ذنب أبيه؟

فصرخ هاني في وجهه قائلاً:

- كفى كلامًا في هذا الموضوع وامحُه من ذاكرتك.

- إذًا أعطني نقودي.. أريد أن أحقق حلمي وأفتح سنترالاً خاصًا بي.. لقد تعبت من العمل عند الغير.

- ربنا يسهل.

- تصرف وأحضر نقودي.. لا أدري أين كان عقلي عندما وافقت وأعطيتك تحويشة عمري.

- الورطة التي أخرجتك منها تساوي الملايين.

- لا.. لقد أوقعتني في ورطة أشد لو انكشفت فسوف يضيع مستقبلي كله.. ليتني ما سمعت كلامك.. لقد ارتكبنا جريمة كبيرة دون أن نشعر.. كلما دخل عليَّ زبون أرتعد خوفًا خشية أن يكون هو والد الطفل.

- أنت جبان وخسارة خدمتي لك.

همَّ علاء أن يرد لولا دخول زبون حتى إذا ما انتهى الزبون من اتصاله وخرج قال:

- لم يعد للكلام معنى.. كل ما أريده نقودي.

- نقودك جزء فتحت بها مشروعًا للموبيلات لكنه فشل وخسرتها والجزء الآخر لهفه النصاب الذي خدعني وأوهمني أنه يوظف الأموال.. لهذا اصبر.

- النقود التي لهفها النصاب أنا مسامح فيها لأنه لا ذنب لك.. أما ما خسرته أنت فأريده.. لقد نفد صبري.

فقال هاني غاضبًا وعيناه تشعان شرًا:

- اسمعني جيدًا.. نقودك سيأتي يوم وتُرد إليك.. لكن لو استمر إلحاحك فلن تطول مني أي شيء ولا تنسَ أننا في مركب واحد منذ حكاية الطفل.. فمصلحتك الآن هي مصلحتي أيضًا والأفضل أن نستمر "حبايب".. فمن الممكن أن أقلب عليك الترابيزة بمنطق عليّ وعلى أعدائي.

ثم تركه وخرج بينما علاء يضرب كفًا بكف وهو يردد:

"كنت حمارًا عندما سمعت كلامك".

عاد هاني إلى البيت متأخرًا ليجد شقيقته لم تنَم بعدُ.. طرق باب حجرتها ثم دخل:

فبادرته قائلة:

- يبدو أنك لن تستريح إلا عندما يصاب والدي بأي مرض بسببك.. حرام عليك ما تفعله.

رد بكلمات مخنوقة ممزوجة بالغضب:

- معاملته لي هي التي تضطرني لذلك.

- من أفعالك ومهما فعل فهو أبوك.

– أحيانًا كثيرة أشعر أنـه لـيس أبًـا لا يعـرف حتـى معناهـا.. إنـه يعاملني بجفاء شديد.. والله لو كنت ألد أعدائه ما كان سيعاملني هكذا.. قبـل أن تلقي باللوم عليَّ عرفيه معنى كلمة أب.

– لا تقُل هذا.. والدنا يعاملنا بكل رقة وحنان.. لكن أفعالـك تجعلـه يغضب منك دائمًا.. لـيس هنـاك أب يكـره أولاده.. الوحيـد الـذي يتمنـى أن تصبح أفضل منه هو أبوك.

فابتسم وهو يقول ساخرًا:

– نعم كل الآباء هكذا إلا هذا.. إنه لا يعرف سوى مـصلحته.. حبـه للمال وكنزه جعله لا يعرف أي معنى للحنان.

– قلت لك هو أبوك ومهما فعل معك فلا بد أن تكون بارًا بـه.. صدقني لو تغيرت وأصبحت إنسانًا جادًا فستجده قلبًا يفيض عليك بالحـب والحنـان وسيعطيك كل ما تطلبه منه.

– أنت غلبانة والله لو تحولت لملاك فسيظل قلبًا متحجرًا.. إنه إنسان لا يصلح أن يكون أبًا يعيش لنفسه.

– لكن...

فقاطعها هاني:

– دعك منه الآن.. أنا أريدك في موضوع أهم.. أنا سمعـت مـن مامـا أن

خطيبك مهندس وكان في السعودية.

– نعم لكن ما علاقة...

– أنا عليَّ ديون كثيرة وعاجز عن سدادها فلو أنت كلمتِ خطيبك يسلفني ولن تطول المدة فسوف يكون السداد في أقرب فرصة.

– من أين لك بسداد هذا الدين؟

– أنا سوف أدخل في مشروع...

فقاطعته:

تاني؟! كل مرة تقترض وتدخل في مشروع ثم يفشل فتعجز عن سداد الدينين الجديد والقديم وتتراكم عليك الديون.

فوضع رأسه بين يديه يعصره وهو يقول:

– هل لديك حل آخر؟ ليس أمامي سوى ذلك.. لكن هذا المشروع نجاحه مضمون.

أطرقت شاهيناز دون رد وسرحت إلى بعيد بينما سألها هاني عن عدم ردها فقالت بعد هنيهة وما زال بصرها شاخصًا لبعيد:

– أفضل أن تجلس معه وتتعرف عليه ثم تحدثه عن مشاريعك ثم تطلب منه ما تريد ربما يقتنع ويعطيك.

تركها وخرج ولسان حالها يقول: من معه المال ومن يبحث عنه

يتساويان.. كل منهما لا يعرف للسعادة طريقاً.

في تلك اللحظة رن هاتفها المحمول.. نظرت لتجد يوسف يطلبها.. لكنها وجدتها فرصة في أن ترضي كبرياءها بتجاهله وعدم الرد عليه.. لكنه عاود الاتصال بها.. حينئذ ردت عليه ببرود فانسابت كلمات من يوسف تحمل رقة وحنانًا لم تألفهما من قبل وقدم اعتذاره عن رده الجاف عليها صباح اليوم.. حاولت أن تبدي تجاهلها وتأبى الصلح لكنها لم تتحمل أمام سيل كلماته وتمنت لو فعل معها كل يوم ذلك حتى تسمع منه هذه الكلمات العذبة على غير عادته.

كانت كلماته كفيلة بأن تنام وقد احتوت السعادة بين أحضانها.. بينما نام يوسف يتقلب على الجنة والنار: جنة حبه ونار ابنه.

ذهب يوسف بعد عدة أيام لزيارتها.. على باب العمارة لمح الفيسبا تقف.. تأملها بدهشة والذاكرة تعرض صور الفيسبا التي خطفت ابنه ربما وربما لا.. يعصر فكره يحاول أن يستوعب لكن تتشابه تلك المحركات.

صعد ليستقبله والد شاهيناز بحفاوة وجاءت أمها تسبقها كلمات الترحيب المتكلفة.. ما زال قلبها يرفضه.. رد يوسف بابتسامة باهتة.. ما زالت صورة الفيسبا تلعب في مخيلته.

بينما شاهيناز داخل حجرتها تجهز نفسها تستعد للخروج معه لشراء الذهب وعقلها مشغول هل توقظ شقيقها هاني لكي يتعرف على

خطيبها ويعرض عليه مشروعه لكنها تتخوف ربما يسبب هذا اللقاء مشاكل.. فهل يعقل من أول لقاء تعارف أن يطلب منه مالاً يقترضه منه؟ وربما يكون رد يوسف في خضم أحزانه جافًا يثير غضب هاني وبالتالي يزداد غضب أمها وتنقلب الأمور وهي التي تحمد ربها الآن أن أمها وافقت على مضض أن تستقبله.

تدخل أمها تستطلع سبب تأخيرها.. لكن شاهيناز تسألها عن هاني ويظهر الارتياح على وجهها عندما تعلم أنه ما زال نائمًا.

خرج يوسف ومعه شاهيناز ووالدها.. تصطدم عين يوسف مرة ثانية بالفيسبا يتخلف عن مواصلة السير ما زال يتأمل الفيسبا.. ينظر والد شاهيناز ليجد يوسف يقف أمام العمارة يرجع إليه مندهشًا حتى إذا ما رآه ينظر للفيسبا يبتسم وهو يقول:

"هذه الفيسبا خاصة بهاني يستخدمها في تنقلاته.. صمم أن أحضرها له وكان لديَّ أمل في أن ينصلح بها حاله لكن لا".

يومئ يوسف برأسه ويواصل السير محاولاً أن يطرد أفكارًا كثيرة داهمته.. في الوقت الذي استيقظ فيه هاني غاضبًا بعد أن أخبرته والدته أن يوسف كان موجودًا.

في المساء حضر طه ليطمئن على صاحبه فوجده كالعادة حزينًا فقال:

- ضع حزنك على حزني.

– حزني أنا معروف ولو عاد ابني سينتهي.. أما أنت فما سبب حزنك؟

– حتى الآن فشلت في العثور على أي عمل مناسب.

– قلت لك اصبر.

– نفد صبري وهناك حل لاح في الأفق.

– أي حل تقصد؟

– الهجرة.. أصبحت هي الحل إلى أي دولة أوروبية.

– لكن أعرف أن التأشيرة لأي دولة أوروبية...

فضحك طه متهكمًا:

– ومن قال لك إنني سأسافر بتأشيرة؟ المسألة الآن عن طريق الهروب.. هناك سماسرة متخصصون في ذلك.. المهم أن تدفع.

– لكن يا طه أنت إنسان متعلم وتعرف أن هذه الأساليب لها مخاطر كثيرة.

– كثير من الشباب سافروا ونجحوا هناك فما تحصل عليه من أجر في شهر يضاهي ما تحصل عليه هنا في سنوات.

– هنا الأمان و...

فقاطعه طه بحدة:

– وهنا البطالة.. والدولة لم تعد تعترف بالشباب.. كل عام يتخرج الآلاف من الشباب فيجدون الشارع في انتظارهم ولا تصدق مقولة إن القطاع الخاص يشغل أحدًا بل هو يريد أن يستعبدك ويستفيد منك ولا يعطيك إلا فتاتًا لا تسمن ولا تغني من جوع.. وإذا أبديت تذمرًا طردوك.

– واقع مؤلم أن يصل حالنا هكذا شباب مصر مستقبلها يهاجرون إلى المجهول والدولة لا تفعل شيئًا.. مجرد تصريحات وردية بينما الواقع يئن والأحوال تتدهور.

– الهجرة الآن هي الحل.

– لكن ربما تتغير الأوضاع وتنقشع تلك السحابة.

– شيء في علم الغيب والحياة لا تنتظر أحدًا فنحن في مرحلة تكون أو لا تكون.

– لنتكلم في هذا الموضوع في وقت آخر.. لقد حددت يوم الخميس المقبل إن شاء الله موعدًا للخطوبة.

– ألف مبروك لكن لماذا لم تتزوج بدلاً من المماطلة؟ أنت لا ينقصك شيء.

– هذا أفضل.

8

يوم الخميس ذهب يوسف ومعه صديقه طه ولم يشأ والد شاهيناز أن يدعو أحدًا بل جعلها عائلية.. فلم يكن هناك أحد.. بل إن شاهيناز اتصلت بشقيقها هاني تدعوه للحضور حتى تكون فرصة لكي يتعرف على يوسف في الوقت الذي كان في الموسكي ومعه صديقه علاء عند أحد تجار الإكسسوارات يلحان عليه أن يعطيهما بضاعة.. لكن التاجر يرفض قبل أن يتم دفع المبالغ السابقة فلما اتصلت به شقيقته قال لعلاء:

"هيا بنا خطوبة أختي الآن تعالَ معي حتى نتعرف على خطيبها ربما ينفعنا بعد ذلك".

وركبا الفيسبا وانطلقا في الوقت الذي استعد فيه يوسف لكي يلبس عروسه الشبكة وقد بدأ يستجيب للسعادة بعد أن وجد عروسه ووالديها سعداء وبجانبه صديقه أكثر سعادة إذا بهاتفه يرن فينظر يوسف لتبدو الدهشة عليه وهو يقول إنه ضابط المباحث ويرد عليه مباشرة ليطلب منه الحضور فورًا فهب يوسف واقفًا وكأن عقربًا لدغته.

وبعد أن استوعب الجميع الموقف طلبت منه شاهيناز أن ينتظر حتى تغير ملابسها لكن يوسف اندفع خارجًا وهو يقول: "لا داعي سأذهب لأرى ماذا حدث".. وصديقه خلفه يحاول اللحاق به.

بينما والدة شاهيناز تمصمص شفتيها.. بعد دقائق حضر هاني ومعه صديقه وسأل عن العريس فقالت أمه: الضابط اتصل به وطلب حضوره.

فصعق هاني وصديقه وشهقا يقولان: "ضابط؟!".

خرجت شاهيناز من حجرتها مندفعة وهي تقول:

"زميله الضابط وقعت له حادثة وذهب يطمئن عليه".

ثم دخلت بينما قال هاني وهو يدخل غرفته أيضًا:

"كان بودي أن أتعرف عليه".

بينما جلس علاء مع والد هاني الذي وجدها فرصة لكي يشكو من ابنه ومن أفعاله.

وعلاء يحاول أن يطيب خاطره.. فقال والد هاني:

– أنا كل همي أن يكون إنسانًا يتحمل المسئولية.. فأنا أحبه وأخاف عليه.. تصور أنني لا أنام وأضطر للسهر حتى يعود وأطمئن عليه وأشفق عليه.. يرهق نفسه ويظل طوال اليوم يلف بالفيسبا وهو أصلا يعاني حساسية في صدره ومصاب دائمًا بنزلات البرد.

فخرج هاني وهو يقول لصديقه: "هيا بنا".

فرد والده:

"يا ابني ارحم نفسك استرح بدلاً من اللف والدوران في الشوارع".

فنظر هاني لصديقه بغضب وهو يطلب منه القيام.. لكن والده أعاد كلامه السابق نفسه.

فانفجر هاني كالبركان وقال بصوت يشبه الصاعقة:

"ارحمني أنت ودعني.. أنا حر أفعل ما أشاء.. منذ متى وأنت تخاف عليَّ؟! أنا أفهمك جيدًا.. أنت تقول هذا الكلام حتى تبين لعلاء أنك الأب الحنون.. لكن الحقيقة غير ذلك فأنت طوال حياتي تعاملني وكأني عدو لك لهذا فأنت لا تستحق أن تكون أبًا.

فهب علاء واقفا وكأنه يود أن يضع يده على فم صديقه حتى يخرسه وهو يقول:

"عيب يا هاني مهما كان فهو أبوك.. حرام عليك".

فقال والد هاني بأسى:

"قل له يا علاء هذا الابن الجحود الذي أفنيت عمري في تربيته".

فواصل هاني بركانه:

"عمرك ما قلت لي كلمة حنان وأنت لا تسهر خوفًا عليَّ بل تسهر

حتى تسمع نشرة أخبار البورصة وتطمئن على سعر الأسهم وتطمئن على مدخراتك وحتى تستريح لن أعود إلى هذا البيت.. هيا يا علاء".

واندفع خارجًا وعلاء يقف مترددًا يحاول أن يواسي والد صاحبه.. هذا الوالد الذي راح يردد: "حسبي الله ونعم الوكيل".

في قسم شرطة الأحداث يكاد القلق يقتل يوسف في انتظار الضابط الذي فور دخوله أحاط به يوسف وطه.. لكن الضابط واصل سيره حتى جلس على المكتب وأشعل سيجارة أخذ منها نفسًا عميقًا بينما يوسف جلس أمامه يسأله فقال الضابط:

– هناك معلومات جديدة.. لقد تم القبض على شاب شهرته التوربيني..

فقاطعه يوسف وهو يضرب بيده على المكتب ويقول:

– صدقتني الآن؟ هناك شخص اسمه التوربيني.. لقد سخرت مني أنت وزميلك الذي كان يجلس على هذا المكتب قبلك والكل سخر مني كلما حذرتكم من هذا التوربيني.

فرد الضابط متجاهلاً كلام يوسف:

– موضوع التوربيني مأساة اتضحت من خلال التحقيقات الأولية التي خضع لها فور القبض عليه.. تصوروا أنه كان يفرض سطوته على أطفال الشوارع ويسخرهم لخدمته.. والمصيبة أنه اغتصب عددًا كبيرًا منهم بل وكان

يقتل من يغتصبه.. وذكر أنه اغتصب أحد الأطفال على سطح القطار ثم تخلص منه بأن ألقاه من على السطح أثناء سير القطار.. وآخـرون دفـنهم في سراديب السكة الحديد بمحطتي شبرا الخيمة وطنطا.. فقد كـان يتخـذ مـن العربـات القديمة والمهجورة بمحطات السكك الحديديـة مـسرحًا لجرائمـه الـشنيعة.. واعترف بأنه دفن بعض الأطفال أحيـاء في مقـابر الحـضرة بالإسـكندرية ولا تزال التحقيقات تجرى معه للكـشف عـن المزيـد مـن اعترافاتـه ولـو قرأتمـا صحف اليوم لوجدتما تفاصيل أخرى.

كان يوسف يسمع ذلك وهو يضرب كفًا على كف ويكاد رأسـه ينفجـر وعقله يفور مما يسمعه وانفجر في الضابط وهو يقول:

- معقول هذا؟ هل هناك شخص بهذا الشكل؟ والله الحيوانات لـديها رحمة عنا.. ولو اجتمع ذئب بغنم ما فعل ما يفعله الإنسان..

فرد طه:

- أكيد هذا الولد مختل عقليًا.

انتزع يوسف الجريدة الموجودة أمـام الـضابط وهـو يتـصفحها بعنـف والضابط يقول له:

- دقق في ملامح التوربيني جيدًا هل هو واحد مـن الشخـصين اللـذين خطفا ابنك؟

لكن يوسف لم يدقق طويلاً وأسرع يقول:

- لا طبعا ليس هو.. فهذا التوربيني وجهه ينم عن الإجرام وملامحه غليظة ونظراته حادة.. أما من خطفا ابني فهما شابان عاديان بل إن ملامحهما بعيدة عن شكل المجرمين.

فرد طه موجهًا حديثه للضابط:

- المهم هل لديكم بيانات عن الأطفال الذين كانوا معه ومن قتلهم؟

فرد الضابط:

- بكل أسف ما زالت التحقيقات تجرى معه دون التوصل لشخصيات هؤلاء الأطفال.. هو نفسه لا يعرف أسماءهم.

فهب يوسف واقفًا: أريد مقابلة التوربيني.

فقال الضابط:

- ما الهدف من هذا اللقاء؟

- سأتكلم معه وأسأله عن ابني.

ثم انخرط يوسف في البكاء والنحيب وهو يردد:

"أمر فظيع".

وفي طريق العودة قال يوسف لصديقه:

- المجتمع كله مسئول عن وجود هذا التوربيني.. فلو أنه وجد الرعاية والحنان وكان مجتمعنا قائمًا على مبدأ التكافل لما ظهر التوربيني أو

عكاشة أو غيرهما.

– أعتقد أن التوربيني يستحق الإعدام على جرائمه.

– ليست هذه هي المشكلة.. أعتقد أن هناك المئات من التوربيني يملأون حياتنا ونحن ندفن رءوسنا في الرمال ونتشدق بالشعارات نحن نعيش في مجتمع أصبح عاريًا من القيم.

تحكمنا المصالح والصراعات.. وأصبحت الغابة أكثر أمنًا وعدلاً منا.. نحن حولنا مجتمعنا إلى أراجوز يعطينا دائمًا المبرر لأفعالنا ويصفق لنا ويتراقص على أنغام أخطائنا.

– كل يوم نسمع عن أمور كان من المستحيل أن يتصورها أحد من قبل ولو تنبأ بها أحد من أجدادنا لقالوا عليه مجنون.

– أجدادنا كانوا يفكرون فينا.. أنجزوا الكثير من أجلنا ونحن نهدم الآن ما فعلوه ولا نفكر إلا في أنفسنا وأخشى أن تلعنًا الأجيال المقبلة.. هل كنت قديمًا تسمع عن أطفال الشوارع أو عن شباب يفكرون في الهروب والهجرة أو من يقترض المليارات ثم يهرب من دون أدنى تفكير في المصلحة العامة؟ الذئب ظل ذئبا والغزال ظل على عهده لم يتغير.. أما أن يتحول الإنسان لذئب فهنا المصيبة والمأساة وكأننا اشتقنا لعصور الجاهلية.

– وهل أصبحت الحياة ضبابًا ولا أمل في تغيير؟

– الحل في أن يعود الإنسان إنسانًا.. فالحياة ليست جنة ولا جهنم..

بل إنسانية بما تحمله تلك الكلمة من معانٍ.

– لكن يظل من صفات الإنسان الطمع والجشع.

– الإنسان ليس ملاكًا ولا شيطانًا.. بل هو كائن فريد منحه الخالق صفات عدَّة منها الخير ومنها الشر ويظل الصراع قائمًا.. المصيبة أن يخلع رداء الخير والشر ويتعامل بمنطق الشياطين.. فليس عيبًا أن يكون الإنسان شريرًا.. المهم أن يعترف بوجود الخير.. فمن يعترف بشيء ما تكون بداية الاقتناع به.

– هل تعتقد أن التوربيني قد يحل لغز اختطاف ابنك؟

لم يرد يوسف وسيارته تسرع تخترق طريقها وكأنه يريد أن يسابق بها الزمن.. وعندما عاد اتصلت به شاهيناز أخبرها بما حدث شاركته القلق ولم تشأ أن تخبره بما حدث بين والدها وشقيقها بل تركته لأحزانه وقلقه.. وانصرف طه ليبقى يوسف وحيدًا يواجه آلامه وأحزانه وقلقه.. لا يستقر به المقام.. يدور في أنحاء الشقة يطارده قلق شديد وخوف لا نهاية له يكاد عقله ينفجر من التفكير رأسه يغلي ودموعه تحرق قلبه وتزيد جراحه.. وكلما اصطدمت عينه بصورة طارق يكاد يخبط رأسه في الحائط وعيناه لا تريان إلا ظلمة قاتمة.. والنوم جافى مقلتيه ولا يكاد يضع رأسه على الوسادة حتى يقوم والفزع يطارده.. ينطلق من حجرة إلى أخرى.. يفر من سوط العذاب يضرب كفًا بكف يبحث عن النسيان كمن يبحث عن الثلج في عين الشمس.. الليل كعادته

كئيب لا يرحم المستضعفين يقسو على المعذبين البؤساء وينشر الأرق بلا هوادة ينتزع الرحمة.. يوسف يبكي حينًا ويفكر حينًا آخر ينتظر الصباح يبحث عن أمل يجد ظلامًا يبدد كل طاقات الصبر ينظر حوله لا يجد سوى صورة التوربيني تملأ الأرجاء يغمض عينيه لكن ما زالت تلك الصورة تطارده.

بعد ساعات مضنية يغفو دقائق فيرى التوربيني على سطح القطار وهو يهم بإلقاء طارق والقطار يسابق الريح.. يصرخ ومعها صرخات طارق.. والتوربيني يحكم قبضته على طارق الذي ما زالت صرخاته تخترق الأجواء تفوق صافرة القطار ويوسف ما زال يصرخ وتتعالى صرخاته ولا أحد بجواره يوقظه.. حتى إذا ما أفاق وبدأ يستوعب الموقف ويدرك أنه كابوس ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ينطلق صوت مؤذن الفجر يخترق سكون الليل.. فقام مسرعًا وكأنه عثر على طوق النجاة.. ارتدى ثيابه بسرعة.. خرج كمن يفر من العذاب وبمجرد أن وطأت قدماه المسجد شعر بارتياح شديد.. عندما انتهى من وضوئه شعر كأنه اغتسل من همومه وأحزانه.. وقف خلف الإمام يصلي يود ألا ينتهي من صلاته.

عاد مع نسمات الفجر يستنشق عبير الأمل وقد هدأت آلامه وسكنت أحزانه وبدا الكون سعيدًا برحيل الليل الكريه ولاحت بشائر الفجر كأنها تصلح ما أفسدته ظلمة الليل وجاء الصباح يزهو في حلة من النور.

قبل أن يصعد شقته قابله بائع الصحف.. ابتاع جريدة الأهرام..

اصطدمت عيناه في الصفحة الأولى بصورة التوربيني.. عادت ملامح الحزن تناوشه وتعود الآلام تجتاحه وهو يقرأ تفاصيل الموضوعات المنشورة عن التوربيني فقد جلس بجوار البائع يطالع الصحف كلها التي معه بحثًا عن أخبار التوربيني.. قصص وحكايات متباينة وكأنه يطالع كتابًا عن آكلي لحوم البشر لا يمكن لبشر أن يفعل هذا.. يتساءل ودموعه تنهمر كالمطر: ماذا جرى في الدنيا؟!

لمح البائع دموعه فسأله عن السبب.. فلما عرف سر دموعه واهتمامه بالتوربيني ضحك البائع وهو يقول:

– هذا جزء من الحقيقة.. فحياة الشوارع وما يحدث لأطفال الشوارع لا يذكر مع ما ذكرته الصحف عن التوربيني.. فالشارع مليء بأمثال التوربيني.

فرد يوسف والدموع تخنقه:

– ومن أين أتى هؤلاء الأطفال؟ أين أهاليهم؟ ألم تعد في الحياة رحمة؟

– صعوبة الحياة وغلاء المعيشة جملا الأهل في وادٍ وأبناءهم في واد آخر.. بل إن هناك من يسرح أولاده في الشوارع لضيق اليد كل يوم.. ومن خلال جلوسي في الشارع أراهم زهورًا بريئة تتحول إلى وحوش.

عندما انتهى الأستاذ إبراهيم من صلاته وجد زوجته في انتظاره والحزن يطوقها وعيناها تنظران إليه في عتاب فقال بضيق:

– أكيد ذهب للمبيت مع صديقه علاء.. ويومان وسيعود.. ثم إنني لم أفعل شيئًا لكي يترك المنزل ويرد عليّ بهذه الصورة الفجة وأمام صديقه.

ردت بحسرة:

– قلت لك أكثر من مرة: حاول أن تغير أسلوب معاملتك.

فقال ساخرًا:

– وهل انقلب حال الزمن فأصبح الآباء يطلبون ود الأبناء؟! ما حدث أمس هو نتاج التربية الخطأ وللأسف عياره فلت ولم يعد يجدي أي نصح أو إرشاد.

– ليس هناك شيء سوى أن ندعو الله أن يوفقه.. نحن لا نريد سوى أن يكون أحسن الناس.

– أتمنى أن يتحمل مسئولية نفسه ويترك الطيش ويتعلم من أخطائه.

عندما عاد يوسف لشقته وجد الهاتف يرن ليجد شاهيناز تطمئن عليه واتفقا على اللقاء في قسم الشرطة.

لم يكن هناك حوار يدور داخل قسم الشرطة إلا عن التوربيني وجرائمه التي لم يسبق لها مثيل.. ضحاياه يقدرون بأكثر من ثلاثين طفلاً.. هكذا قال الضابط ليوسف.

فقالت شاهيناز:

هل لديكم قائمة بأسماء هؤلاء الأطفال؟

قال الضابط:

– صعب حصر أسماء هؤلاء الأطفال.. خاصة أن معظمهم لهـم أسمـاء حركية.. بل إن كثيرًا من هؤلاء الأطفال لا يعرف اسمـه الحقيقـي.. المشكلة معقدة والتوربيني اتضح أنه يتـزعم عـصابة كـبيرة ولـه أعـوان يـساعدونه في خطف الأطفال.

رد يوسف باكيًا ومنفعلاً:

– وأين كنتم وهذا التوربيني يعربد ويغتصب ويقتل أطفالاً أبرياء؟ ألم أقل لسيادتك؟ وهذه الغرفة تشهد أنـني سمعـت طفلـين مـن أطفـال الـشوارع يتهامسان عن التوربيني لكن كانت السخرية والتهكم هما الرد على كلامي.

– ما قلته كـان مجـرد كـلام ونحـن لا نتحـرك إلا بنـاء علـى دلائـل ووقائع.

فصرخ يوسف:

– خطأ.. أكبر خطأ أن ننتظر وقوع الكوارث ثم نتحرك بعدها.. وهـو عيب نعانيه جميعا ومن المفروض أن يكون هدفنا منع وقوع الكارثـة.. دعـني أسألك: أين كنتم طوال هذه المدة والتوربيني وأعوانه أحرار يعيثون في الأرض فسادًا وهناك مئات من التوربيني يملأون الشوارع؟

رد الضابط وهو ينفث دخان سيجارته:

هناك خبر سار آخر.. لقد نجحنا في الإيقاع بعكاشة والقبض عليه.

رد يوسف ولا يزال هائجًا:

– وما الفائدة من القبض عليه وقد ارتكب آلاف الجرائم في حق زهور بريئة انتهك طفولتهم ودنس إنسانيتهم؟ كما قلت لك لا نتحرك إلا بعد وقوع الكارثة.. كان لديَّ أمل أنكم الأمل في أن أعثر على ولدي.. لكن يبدو أنني مخطئ.

– لا تقل هذا.. نحن نبذل قصارى جهدنا ولا يمكن أن نقصر وما زال لديَّ يقين أن ابنك موجود بخير وسنصل إليه قريبًا وقريبًا أيضًا سوف تسافر طنطا وتقابل التوربيني كما أردت.

على باب القسم قالت شاهيناز:

– كنت قاسيًا على الضابط.

رد يوسف وبصره شاخص لبعيد:

– أعرف أنهم لم يقصروا لكنني مخنوق وأشعر بالضيق من يدري ربما وقع ابني في براثن التوربيني واغتصبه ثم دفنه حيًا؟ من يدري؟

– لا أعتقد.. أنا أتفق مع رأي الضابط في أن طارق لا علاقة له بالتوربيني أو أعوانه ولكن موضوع خطفه سر غامض سوف ينكشف بمرور

الأيام.

ظهر الاهتمام على وجه يوسف وهو يقول:

ماذا تقصدين؟!

- لا شيء.. مجرد إحساس.

عادت شاهيناز إلى المنزل وتفكير عميق يطاردها وهي تعتصر ذاكرتها وبمجرد أن دخلت الشقة تجاهلت والديها وهما يشاهدان المسلسل العربي واختلت بنفسها في حجرتها وفتحت الدولاب تفتش حتى عثرت على ضالتها صورة طارق.. كانت قد أخذتها من يوسف منذ فترة تأملت طارق مسحًا شاملاً لوجهه وملامحه وعقلها يكاد ينفجر من التفكير محاولة أن تقول مستحيل.. لكن الذاكرة تطاردها تعود للوراء.

ذات مساء بارد عاد شقيقها هاني ومعه طفل يشبه تمامًا طارق الذي صورته بين يديها الآن تندفع نحوه وتمسح على شعره وهي تسأل شقيقها الذي يظهر الاضطراب عليه وهو يرد على سؤالها ونظرات والديها حيث قال إنه ابن واحد صاحبه سافر إلى بلده في الصعيد ليحضر زوجته التي هي أيضًا والدة الطفل وسبب سفرها كما قال هاني أنها اختلفت مع صاحبه وحزمت حقائبها وسافرت لأهلها ولهذا فقد سافر ليصالحها.. فرحت كثيرًا بالطفل وظل ملازمًا لها طيلة بقائه ثلاثة أيام قضاها.

ما زال شريط الذكريات يصعقها.. الطفل كان حزينًا رغم محاولتها

إسعاده وشقيقها يتهرب من أي سؤال يوجه له عن هذا الطفل.. إجابات ناقصة مشوشة.. والمثير أن الطفل كان يرتعد خوفًا كلما سمع صوته ويرتعش كلما رآه فقد كان شقيقها ينظر إليه نظرة تهديد ووعيد تجعل الطفل يبكي.

كتمت صرختها عندما تذكرت شيئًا مهمًا.. الطفل عندما أخذته لحجرتها لحظة قدومه قال لها وهو يبكي إنه يريد أن يذهب لوالده.. فلم يكن ينطق سوى بكلمة بابا.

وعندما سألته عن اسم والده قال: يوسف. الغريب أنها عندما ذكرت ذلك لشقيقها نظر للطفل النظرة المخيفة نفسها.. مما جعله يبكي ولا ينطق بكلمة بابا مرة أخرى.

بعصبية أمسكت هاتفها المحمول تتصل بشقيقها لكن رقمه خارج نطاق الخدمة تلقي بالهاتف وتخرج مندفعة لتسأل أمها بحدة عن مكانه فنظرت أمها لوالدها وأطرقت صامتة فقال والدها:

- أخوك ترك البيت وأقسم إنه لن يعود مرة ثانية.

فردت أمها في حزن:

- ممكن يا ابنتي تتصلين به لتقنعيه بالعودة؟

- تليفونه مغلق.

فرد أبوها متهكمًا:

- شيء طبيعي أن يفعل ذلك.. نحن لم نعد ننتظر منه أي رجاء.

خرجت شاهيناز مندفعة والأفكار تطاردها حتى وصلت للسنترال الذي يعمل به علاء الذي ما إن رآها حتى ظهر عليه الاضطراب خاصة وهو يرى الصرامة على وجهها وباغتته بقولها:

- أين هاني؟ لا تحاول أن تكذب أنت الوحيد الذي تعرف مكانه.

تلعثم علاء محاولاً البحث عن رد مقنع يتخلص به منها فقال متحاشيًا النظر لها:

- حاولت الاتصال به أكثر من مرة لكن يبدو أنه غيَّر رقم تليفونه ولا أعرف طريقه.. لكن صدقيني لو عرفت مكانه سأبلغكم.. لقد اتصلت بي الست الوالدة أيضًا تسألني عنه.

فرمقته بنظرات حادة وقالت:

- ممكن أسألك عن موضوع وتقول الحقيقة كاملة؟

فأومأ رأسه بالموافقة وهو لا يزال مرتبكًا.. تستطرد شاهيناز:

- ممكن أعرف القصة الحقيقية للطفل الذي كان مع هاني؟

صعق علاء واحمر وجهه وانتابته حالة من الشلل والرعشة ووقف عاجزًا عن الرد.. لكن شاهيناز أيقظته وهي تستفسر عن سر صمته فانفجر صارخًا بكلمات مندفعة:

– هذا الموضوع يخص أخاك وحده اسأليه.. أنا لا أعرف شيئًا وليس لي علاقة به.. أنا.. أنا لا أعرف شيئًا.

– متأكد؟

– طبعا متأكد.

سهام نظرات شاهيناز تكاد تقتله وعيناه تبحثان عن مفر حتى خرجت فتنفس الصعداء وبدأ يلتقط أنفاسه وبدا كالفأر حين يهرب من المصيدة.

الشك ما زال كالسكين يوخز شاهيناز والأفكار اجتمعت.. ارتمت على سريرها تحاول الهروب.. لكن رنة الهاتف أيقظتها ردت لتجد الدكتور المشرف على رسالتها منفعلاً ويوبخها بشدة على إهمالها التجهيز للمناقشة.. اعتذرت ووعدته بالجدية من الآن وأن تستعد للمناقشة.

قامت إلى مكتبها تلملم أوراقها.. وجدت الدواء الذي يرحمها من التفكير.. مناقشة الرسالة التي تعبت كثيرًا من أجلها هي الأولى الآن.. نجحت أن تطرد فكرة أن يكون أخوها وراء خطف طارق.. لا يمكن لهاني أن يفعل ذلك.. تبرير هربت به من المواجهة تخشى أن تفتح على نفسها أبواب الجحيم لتخسر كل شيء: حبها.. شقيقها.. وتتحطم حياتها.. تنفست رائحة الكتب والأوراق انغمست بين السطور بعد أن تبددت أفكارها.

لكن علاء لم ينسَ نظراتها.. اتصل بصديقه يصرخ لينقذه ويرحمه من شكوك أخته.. لكن هاني رد ببرود ولم يعبأ بكلماته حتى عندما التقيا في المساء في شقة علاء حيث أقام معه حاول هاني أن يبدو باردًا لكي يهدئ من ثورة شريكه لكن نار الخوف بداخله متأججة وتساؤلات تناوشه حول الهدف الذي يجعل شقيقته تنقب في هذا الموضوع.. علاء ما زال يصرخ ويقول:

– اسمع.. أنا نفد صبري.. الخوف يقتلني في كل لحظة.. لو شاهدت أختك وهي تسألني سوف تتأكد أنها كشفت الملعوب.. نظراتها الحادة لي تؤكد ذلك.. خلاص يبدو أننا انكشفنا.. أنا لن أصبر حتى أجد نفسي في السجن سأعود لبلدتي بين أهلي أفضل.. من يدري ربما يدخل البوليس علينا الآن؟ يا خسارة لما سمعت كلامك قلت لك إن والد الطفل لن يسكت فليس معقولاً أن نخطف طفله من بين يديه ولا يبحث عنا.

فصرخ هاني في وجهه قائلاً:

– دعك من نواح النساء حتى لو شاهيناز عرفت أي شيء فأعتقد أنها لن تتحدث فلا يمكن أن تدخل أخاها السجن.

– وهل سأنتظر الاحتمالات؟ المسألة لم تعد تحتمل أي احتمال.

– أفكر في الاتصال بها.. لكن ربما اتصالي بها يؤكد شكوكها.. اسمع وكأنك لم تسمع منها شيئًا.. عش حياتك لا شيء ضدنا حتى لو ظهر والد

الطفل فلا يوجد دليل واحد ضدنا حتى الطفل أصبح وكأنه لا وجود له.. خوفك هذا هو الذي سيفضحنا.

- الخوف يطاردني في كل لحظة لقد ارتكبنا جريمة لا تغفر.. لا تنسى بالتقادم.

- أردت إصلاح خطئك.

- كمن أراد الخروج من تل فوقع في حفرة عميقة.

9

الأيام تمر من دون أن تعطي إجابات وتبقى علامات الاستفهام تـزداد والحيرة تملأ القلوب.. يوسف ينتظر لقاء التوربيني ربما يأتي بجديد.. أمـا شاهيناز فقد فرت بعقلـها إلى رسـالة الماجـستير هربًـا مـن تـساؤلات حـائرة والقلق يتلاعب بشقيقها وصديقه المجهول سوط يطاردهم ويبقى طارق السؤال الأكبر واللغز الكبير.. البعض يبحث عن إجابـات وآخـرون يحـاولون طمـس هذه الإجابات في انتظار أن يقتل اليأس أبـاه وكـي لا تـشرق الـشمس وتـضيع الحقيقة في زحام الأيام.. علاء يحلم بـذلك لكـن كـوابيس الحقيقـة تطـارده.. يعض أنامل الندم يشاركه هاني قلقه لكن يحاول أن يبدو باردًا.. لكن سخونة الأحداث وتساؤلات شقيقته تجهض ذلك.

إلى طنطا انطلق يوسف بصحبة رفيقه طه للقاء التوربيني المحجوز في نيابة طنطا بينما اعتذرت شاهيناز بحجة أن لديها اجتماعًا مهمًا مع الدكتور المشرف ولجنة المناقشة رغم أنها كانت تنتظر هذا اللقاء بفارغ الـصبر ودائمًـا ما كانت تفكر يوسف أن يـصطحبها عنـدما يـذهب لكنهـا مـا زالـت تحـاول

الهروب تخشى من الحقيقة المنتظرة.. ورغم حضورها هذا الاجتماع فإن عقلها كان مع يوسف والتفكير في المجهول المقبل.. بدت متوترة قلقة.. ضحك المشرف اعتقادًا أن قلقها بسبب خوفها من مواجهة المناقشة لكن القلوب غالبًا ترفض أن تفصح عن خلجاتها.

الطريق الزراعي يبدو مملاً والتوتر يقود سيارة يوسف.. بينما يحاول طه تهدئته لكن بلا جدوى.. يوسف يرفض الاعتراف بالزمن.. بالمسافات.. يريد أن يغمض ويفتح ليجد نفسه أمام مراده.. صورة التوربيني تطارده.. الخوف يطوقه وأفكار سوداء تجثم على عقله.. يتساءل: هل يفك التوربيني اللغز ويكشف الحقائق أم أن طارق والتوربيني طريقان لم يلتقيا؟ يتمنى ذلك لكنه يتمنى أن يحل اللغز ويستريح بأي طريقة كانت.. فالحزن أرحم من التفكير.. الأحزان تتلاشى بينما الأفكار تكبر وتصبح ماردًا لا نقوى على مواجهته.

الرجاء والخوف يتلاعبان به.. يقطع المسافات يريد اختصار الزمن ولقاء التوربيني.. لكنه يقف على حافة الخوف يخشى المواجهة.. من يدري ربما تتبدد علامات الاستفهام وربما تزداد توحشًا؟

دهاليز نيابة طنطا اكتظت بأمهات ثكلى كل واحدة تحمل صورة فلذة كبدها.. فيض من الدموع لا ينقطع.. جئن وراء أمل ربما يجدن إجابة عند التوربيني.. فأطفالهن تشردوا في الشوارع.. وأنت تعجز مع من تتعاطف..

هل تشارك الثكلى دموعهن أم تكون سوط غضب وتحملهن المسئولية؟ الغضب الجامح لم يعد يجدي ولم تعد الأحزان تكفي وتجاوزت الآلام مراحل المواساة.. فالمأساة تفرض وجودها الغادر ويبقى الأطفال غرقى في بحار المسئولية.. مسئولية من؟ سؤال بلا إجابة يضاف إلى قوائم الأسئلة الباحثة عن إجابات.. وهل يكفي الزمان لكي يشبع فضولنا ويمدنا بأنصاف الحقائق أم نظل نجلس بجانب الشموع تحترق أمام أعيننا وما زال لدينا أمل أن الليل يكفيه شمعة واحدة؟

الواقع المر يتجلى ولم يكن أحد يتمنى أن تظهر الحقائق رغم أننا نبحث عنها.. وعندما تبدو نشعر بالمرارة محاولين دفن رءوسنا في الرمال.

دخل يوسف إلى حجرة وكيل النيابة تحمله آهات الحزن والكآبة.. بعدها يدخل العسكري يجر معه التوربيني الذي دخل بخطوات ثقيلة كالغارق في غفلة النوم والوسن.. قصير القامة مكتنز رأسه منتفخ يحمل شعرًا كثيفاً.. عيناه زائغتان لا تستقران على حال.. شفتاه غليظتان.. نظراته حادة تنم عن التحدي والكراهية.. ملابسه رثة لا تُعرف لها هيئة ولا لون.. انقبض قلب يوسف وهو يتابعه ووكيل النيابة يسأله طالبًا منه النظر إلى صورة طارق متسائلاً: "هل رأيت هذا الطفل من قبل؟".

نظر التوربيني بطرف عينيه للصورة ثم هز رأسه بالنفي.. تقدم يوسف نحوه تسبقه دموعه وهو يقول راجيًا:

"دقق في الصورة جيدًا.. هل رأيت هذا الطفل؟".

فأشار التوربيني إلى الصورة ونظرات يوسف المكتومة بـدموع وآهـات تتابع أنفاسه.. لكن التوربيني أعرض عن الصورة وهـو يقـول متهكمًـا: "إنـه نونو.. وأنا لا أعرف طفلاً نونو".

تراجع يوسف خطوات حتى ألقى بنفسه علـى الكرسي يلـتقط نفسًا متقطعًا وعقله يغلي.. لم يدرِ أيفرح أم يحزن.. أطرق لحظات لم يـدرِ خلالهـا أي شيء حوله ولم يسمع أسـئلة وكيـل النيابـة وإجابـات التـوربيني.. عقلـه شارد إلى بعيد يكفيه الرد الذي حصل عليه.

يعود صامتًا حزينًا يرى السماء سوداء والكآبة تملأ الـدنيا مـن حولـه حتى عندما طلب منه صديقه طـه أن يـستريحا في إحـدى الاسـتراحات علـى الطريق لدقائق لم يجبه بل ظل منطلقًا بسيارته كأنه يهرب من قدره.

حتى عندما اتصلت به شاهيناز رد باقتضاب بينما انقبض قلبها بعـد المكالمة كانت تتمنى أن يكون حل لغز اختفاء طارق في يد التوربيني.. هاجـت أفكارها حول الحقيقة الناقصة التي داهمتها ومما يزيد مـن حيرتـهـا اختفـاء شقيقها وأصبح السؤال الـذي يقـض مـضجعها: هـل شـقيقها لـه دور في هـذا اللغز؟ تحاول الهروب بفكرها نحو دراستها لكـن عـسير أن تنـسى حبيبهـا يوسف وبالتالي فلا مفر.. لكنها تحاول طرد هذه الفكرة.. مستحيل أن يفعـل ذلك هاني.. لن تـسعى وراء هـذه المـسألة.. سـتترك الأيـام تجيـب عـن هـذه

الأسئلة وتبدد علامات الاستفهام.. الأفضل أن تركز في هدفها الأول: الحصول على الماجستير الذي بذلت فيه قصارى جهدها.. هكذا حدثت نفسها.

لقاء زاد من الآلام وتضخمت علامات الاستفهام.. لكن هل يظل ينتظر ظهور التوربيني؟ من يدري ربما يكون ابنه بين براثن توربيني آخر لا يرحم؟ متى تفك الأيام طلاسم اللغز وتريحه؟ يسأل نفسه بلا إجابات.

هرب إلى الشارع يمضي بلا هدف ينظر لوجوه السائرين الشباب والأطفال.. تقوده قدماه إلى المكان الذي خطفا ابنه من بين يديه تعلو آهاته يدور ويقف ويتأمل تتدافع دموعه تحفر أنهارًا على خده.. يطلق زفرة عميقة عندما يرى طفلاً يسير بصحبة والده.. يداه تبحثان عن طارق.. تنكسر آماله تنهار أحلامه.. بدت الشمس زاهية بأشعتها الحارقة تشاهد الحياة في عليائها ولا أحد يدري هل تبدو راضية عن رحلة الإنسان فهي شاهدة عليه منذ نزول آدم للأرض وحتى الآن.. كل يوم تشرق تتبدل معه الأحوال والإنسان يجري غارقًا في متاهات الدنيا حتى يرحل غير مأسوف عليه ليأتي خليفته بنفس الخطوات بل أشد شراسة يمضي لا يتعلم ممن سبقوه تقوده شهواته تطوقه صراعات الجشع والطمع.. يبحث عن ملذاته مع أنه ساعات وسيرحل.

يوسف يفكر وما زالت صرخاته المكتومة تتساءل: لماذا خطفاه؟ ما

الهدف؟ أكانت العملية مقصودة أم المصادفة؟ وكانا يبحثان عن أي طفل؟ ولماذا؟ أين هو الآن؟ يضرب بقدمه الأرض بكل عنف فلا أحد يعطيه إجابة.. يمر نهاره متسكعًا.. رحلت الشمس بعد أن سلمت الراية للقمر هو الآخر يتفرج يعطي نوره بلا مقابل لكن ما قوله في حياة الإنسان؟ ربما يشاهد طارق الآن فهل يجيب.. أم أنه كالقدر يحمل الإجابات ولا يعطيها إلا في لحظة ظهور النتيجة؟ وما النتيجة في أن تظهر الإجابات لحظة ظهور النتيجة فالدواء عديم الفائدة للميت؟ وتظل الحياة تعطي الدواء للميت تحجبه عن المريض ليبقى الجريح يكابد آلامه يداوي جراحه بجراح أشد ألمًا.

قادته قدماه إلى النيل يعانق الليل.. نسمات الخريف تتهادى.. الأضواء ترسل أشعتها للماء لتكون لوحة عشق خالصة تبعث في النفس بسمة تفاؤل.. أصوات متباينة تقترب وتتباعد.. دبيب الناس على الكورنيش يحوله إلى مسرح استعراضي.

يحاول أن يغرق همومه ويغتسل من آلامه ويختلس من نسمات السعادة.. الوقت قصير وساعات الليل تنقر نقر الديك.. يندهش من سرعتها مع أنه لو عاد لشقته فستمضي بخطوات سلحفاة.

في الصباح التقى شاهيناز في الكافيتريا يطالع صحيفة في يديه يقرأ بشغف عن التوربيني.. ما زالت الصحف تسترسل وتحكي عن الأسطورة الجديدة.. قالت شاهيناز:

– تركوا القضية الأساسية أطفال الشوارع وانشغلوا بالتوربيني.

رد يوسف وما زالت عيناه في الصحيفة:

– التوربيني نتاج تلك القضية.

– التوربيني مجرد جزء.. تصور أن الإحصاءات أكدت أن هناك مليوني طفل مشردين في الشوارع بلا مأوى؟

أزاح يوسف الصحيفة وأطلق زفرة عميقة قائلاً:

– رقم مخيف في مجتمع يزخر بمشكلات جمة.. إذا كنا في دهشة من أفعال التوربيني فغدًا ينتظرنا ما هو أفظع.

– قضية التوربيني تستحق فعلاً وقفة والتعرف على أسبابها.. لكن كما قلت لا تشغلنا عن القضية الأهم فقد تكون قضية التوربيني مجرد قضية في سلسلة الجرائم الغريبة التي تفاجئنا مثل قضية ريا وسكينة وبعدها خط الصعيد وسفاح النساء وغيرها.

– لكن ما آخر أخبار أخيكِ؟ هل عاد للمنزل؟

سؤال مفاجئ أربك شاهيناز أعاد لها الأفكار التي تطاردها.. فجاء ردها مقتضبًا بصوت تبدو اللجلجة فيه واضحة.

لكن ذلك لم يلفت نظره بل قال:

– أنا مستعد أن أقابل أخاك وأصلح بينه وبين والدك.

انفجر لسانها بكلمة: "لا".. حاولت بعدها أن تستجمع الكلمات لكن ارتباكها فضحها فسألها عما بها فقالت مبررة:

– أنا مرهقة بسبب المجهود الذي أبذله في الاستعداد للمناقشة وأشعر بصداع خفيف.

– قلت لك من قبل لا ترهقي نفسك بهذه الصورة.

صمم أن يعود معها لمنزلها.. في الطريق كان على طرف لسانها سؤال لكن بذلت مجهودًا مضنيًا حتى لا يخرج.. كانت تود أن تسأله عن ملامح الشخصين اللذين خطفا طارق لكنها تدرك لو أنها سألت يوسف ربما تكون كمن عبث بأعواد الثقاب فاندلعت نيران أحرقت كل شيء.

دخلت حجرتها تلوم نفسها عن سبب ارتباكها عندما سألها يوسف وكأنها تأكدت أن شقيقها هو الذي خطف طارق.. سألت نفسها كيف تقضي على خوفها وتوترها أمام يوسف.. اليوم لم يلاحظ.. غدًا يلاحظ وتساوره الشكوك.

خرجت.. كان يوسف يجلس مع والدها يعرض عليه القيام بدور الوسيط ومصالحة هاني.. لكن والدها ضحك وقال له: لا تشغل بالك.

عندما دخلت خرج والدها.. جلست تطيل النظر ليوسف الذي ابتسم مندهشًا لنظراتها.. انفرجت أساريرها وهي تتنهد من أعماقها وتقول:

- أخيرا!! نجحت في أن أرى ابتسامتك.

أطرق يوسف هنيهة ثم نظر إليها قائلاً:

- اعذريني أنت تعلمين السبب.. قبل حادثة اختطاف طارق كنت دائمًا أضحك حتى بعد وفاة زوجتي لأن طارق ابني كان في حضني وهو الأمل والبسمة الوحيدة في حياتي.. لكن منذ أن خطفاه اسودت الحياة وصارت بلا طعم.. اصبري وبإذن الله سوف أعوضك عن ذلك كله.. إذا كانت السعادة لا تدوم فالحزن أيضًا يتلاشى.

- هل تحبني فعلاً؟

تنهد يوسف قائلاً:

- أما زلت تسألين؟

- حتى يطمئن قلبي.

- لا بد أن أحبك.. أنا شخص كانت حياته ظلامًا وأنت الشمعة.. فهل يمكن أن أستغني عنك؟

- هل تحبني لشخصي أم مجرد إنسانة تقضي بها على أحزانك؟

- الحب دواء فعال للقضاء على الأحزان.. وليس هناك شيء اسمه أحب فلانًا لشخصه إنما هو شعور متبادل به نستمد قوتنا ونتجاوز المحن ونضمد جراحنا.

- لكن ماذا لو حدث شيء ما؟ هل تتركني؟

- ماذا تقصدين؟

عادت شاهيناز لتوترها وارتباكها عاجزة عن التوضيح.. لكنه رد بعد أن يئس من ردها:

- من يحب إنسانًا لا بد أن يتقبل مساوئه ويساعده في التخلص منها.

ضغطت شاهيناز على نفسها وقالت وهي تخلع رداء التوتر:

- أنا محظوظة لأنني سأرتبط بإنسان مثلك.. وأتمنى فعلاً أن أكون منبع سعادتك والأمل الذي تواجه به الحياة وألا نفترق مهما حدث.

- أرجوك لا تذكري كلمة الفراق.. فأنا لم أعد أحتمل تلك الكلمة التي جرعتني كئوس العذاب.. مهما حدث لن يفرقنا سوى الموت.

أطلقت زفرة عميقة وهي تلقي برأسها للخلف على مسند الكرسي وتنفست الصعداء وفرت دمعة على خدها ممزوجة بنسمات السعادة.

دخلت أمها ترحب بيوسف وجلست ليمتد حوار ثلاثي في مختلف الموضوعات.. اتفقوا في النهاية على إتمام مراسم الزواج فور مناقشة رسالة الماجستير.

ليل بديع شعرت به شاهيناز وهي تطلق العنان لخيالها.. نسمات السعادة تتراقص حولها.. كلمات يوسف أثلجت صدرها بعثت لها الطمأنينة.

لكن ما زال الليل عند يوسف غصة في حلقه يكابد فيه آلامه وأحزانه.. يحاول بالتفكير في شاهيناز أن ينسى.. لكن الجروح العميقة آلامها تقض مضاجعنا..

في الصباح حضر صديقه طه تبدو عليه أمارات الحزن فسأله يوسف عن السبب فرد طه:

- موضوع السفر يشغلني وعقلي حائر.

- قلت لك: السفر ليس هو الحل.

فرد طه بحدة:

- بل هو الحل والمخرج.. من سبقني وسافر تعالَ شاهده الآن انقلب حاله تمامًا وعاد بأموال لا حصر لها.. قلت لك إن ساعة عمل في أوروبا تساوي راتب وكيل وزارة هنا.. الأبواب هنا مغلقة ولا توجد فرص عمل حقيقية.. الواسطة والمحسوبية تتحكمان في كل شيء.

- لكن القطاع الخاص...

فقاطعه طه:

- دعنا لا نضحك على أنفسنا.. أنت تدرك الحقيقة.. القطاع الخاص لا تهمه إلا مصلحته.. يستعبدك ويعطيك الفتات ولو أظهرت تبرمك وضيقك يقول لك: الباب يفوت ألف جمل.

– إذًا ما الحل؟ هل نترك بلدنا ونعمر بلادًا أخرى؟

– من حق كل إنسان أن يسعى للرزق وإذا لم يجده في بلده يهاجر.

– يهاجر.. لكن بالطرق المشروعة.

ضحك طه ساخرًا وهو يقول:

– أليست الطرق المشروعة تحتم أن تتساوى الفرص ويأخذ كل إنسان حقه؟ لكن نحن الشباب الفرص معدومة لدينا والمحسوبية تهدم كل القيم.

– كلامك معقول.. لكن السفر بتلك الطريقة مخاطرة كبيرة.

– كلها مخاطرة.. الجلوس هنا على المقاهي مخاطرة بل موت لطاقاتنا.

– لماذا لا تفكر في عمل مشروع ما وسوف أساعدك وأمدك بكل ما تحتاجه من مال؟

– حال البلد لا يشجع.. هل تتذكر حاتم زميلنا في الثانوي؟ بعد أن تخرج صدق الوعود وأخذ قرضًا من الصندوق الاجتماعي لعمل مشروع لكن مشروعه فشل وتبددت أمواله وهو الآن مهدد بدخول السجن.

– مهما تأزمت الظروف فليس السفر هو الحل.

– إذًا لماذا سافرت أنت من قبل؟

– سافرت بطرق مشروعة وبناء على عقد عمل.. لم أسافر من دون أن

أعرف أين سأذهب بالضبط وهل سأجد عملاً أم لا.

- المشكلة الآن في توفير المال اللازم للسفر.. تصور السمسار طلب 30 ألف جنيه؟!

- وماذا لو دفعت وسافرت لكن تم ضبطك وترحيلك لمصر لتخسر الأموال التي دفعتها ناهيك عن البهدلة؟

- قلت لك الكثير من الشباب سافر وعاد من دون أن ينكشف أمر أحد.. تصور أن هناك قرى بأكملها هاجر شبابها إلى أوروبا.

- مصيبة كبرى.. مسكين بلدنا مصر.. المشاكل تحاصره من كل جانب.

- مسكين أيضًا الشباب.

- مشاكلنا نتاج أخطاء كثيرة وقعنا فيها.

- المهم أنا طمعان في كرمك.. أريد أن تسلفني حتى أستطيع السفر وصدقني سوف أسدد لك المبلغ بعد بضعة شهور قليلة.

أطرق يوسف هنيهة ثم قال:

- لا يمكن أن أتأخر عنك لكن أنا ضد فكرة السفر.. اصبر وعندما أعثر على طارق سوف أعمل مشروعًا ستديره أنت.

لكن طه نظر إليه كأنه كان يتوقع رده.. لكن يوسف استطرد:

- أتمنى أن تصدقني ولا تحزن.. أنا خائف عليك فأنت أخي ولا أريد أن أفارقك.. فكر في مشروع يمكن أن تنجح فيه وأنا معك لن أتأخر عليك.

السفر كان محور حديث هاني مع صديقه علاء حيث يجلسان في السنترال.. قال هاني:

- ما يشغلني الآن هو السفر والهجرة إلى أوروبا أو أمريكا بأي طريقة.

فقال علاء ساخرًا:

- لكن السفر يحتاج لنقود كثيرة وأنت في الواقع مفلس.

فقال هاني حزينًا:

- المال هو العائق بالفعل.. وأنت تعلم كم دفع زميلنا سامح لكي يسافر إلى إيطاليا.

- لكنه عاد الآن ما شاء الله.

- هذا ما جعلني أفكر في السفر به.. أجمع نقودا كثيرة وأهرب من الخوف الذي يلاحقني بسبب موضوع الطفل إياه.

صاح علاء:

- فعلاً أهم شيء في السفر هو الهروب.. يا سلام لو معي هذا المبلغ

فلن أنتظر دقيقة واحدة.. لكن بالنسبة لك ممكن تطلب من والدك.

فرد هاني غاضبًا:

- كيف وأنت تعلم الخلافات التي بيننا؟ وحتى من دون تلك الخلافات مستحيل أن يعطيني هذا المبلغ الضخم.. أبي لا ينفق القرش إلا بعد تفكير عميق وتأنٍّ.. إنه كان يجفف ريقي حتى يرضى ويعطيني مائة جنيه فما بالك لو طلبت منه ذلك؟ خاصة أن موضوع السفر غير مضمون وممكن يتم القبض علينا فور وصولنا لنعود بخفي حنين ويضيع ما دفعناه.

- وأنا في رأيي أن تتصرف نظرًا لأن السفر غير مضمون.

- لكن سيفرق معي كثيرًا.. كل ما أريده سنتان فقط لو بقيت هنا أعمل ليلاً ونهارًا فلن أحصل على عُشر ما سأحصل عليه في هاتين السنتين.

مرة أخرى يذهب يوسف للضابط يسأله عن الجديد ربما تظهر حقائق في ظل تلاحق الأحداث بعد القبض على أعوان التوربيني.. رد الضابط:

- لا تقلق نحن نتابع التحقيقات مع عصابة التوربيني فليس ابنك وحدك هناك مئات الأطفال نبحث عنهم.

ثم أمسك بملف مكتظ بالأوراق وهو يكمل كلامه:

- هذا الملف به مئات البلاغات عن أطفال مفقودين.

فصاح يوسف غاضبًا:

- لكن ابني ليس مفقودًا بل تم خطفه.

تشابكت أصابع الضابط وظهرت الحيرة على وجهه وهو يقول:

- هذا ما يحيرني.. تحرياتنا لم تصل لشيء مفيد فلا توجد بينك وبين أحد خصومة أو عداوة.. حتى لو افترضنا أن هناك عصابة لخطف الأطفال كان من المفترض أن تظهر حالات اختطاف مشابهة لخطف ابنك.. لكن هذا لم يحدث.. حتى التوربيني نفسه التحقيقات معه أكدت أنه لم يخطف أي طفل بل كان يستقطبهم من الشارع.. أي أن هؤلاء الأطفال كانوا أصلاً مشردين هاربين من أهاليهم.

رد يوسف حزينًا تكاد الدموع تفر من عينيه:

- هل معنى ذلك أن ابني ضاع للأبد؟

- لا.. لديَّ إحساس كبير أن ابنك موجود وسنصل إليه.. فدائمًا الجاني لا بد أن يكون بينه وبين المجني عليه خيط لا ينقطع أبدًا.. مهمتنا أن نصل لبداية هذا الخيط لنشد به الجاني حتى يقع في أيدينا.. لكن هل لديك تفسير لحادثة خطف ابنك؟ هل اختلفت مع أحد مرة وهددك بأي تهديد؟ أرجوك ساعدنا.

- لو كان العثور على ابني يقودني لحبل المشنقة ما ترددت في تزويدكم بأي معلومة.. إنه ابني الوحيد نور عيني تكاد الحيرة تقتلني عن سبب خطف ابني.. لم أحاول يومًا إيذاء أي أحد ولم أغضب أحدًا.. أحيانًا

كنت أتنازل عن حقي لمجرد أنني أريد أن أعيش في سلام.. فجأة ومن دون مقدمات خطفا ابني من بين يدي.. لماذا أنا وابني بالذات؟ لا أدري.. ما هدفهما؟ لا أدري.. من هما؟ لا أدري.. سلسلة طويلة من الأسئلة بلا إجابات حتى أصبح العثور على ابني ليس لمجرد رؤيته والاطمئنان عليه ولكن لكي أسأل من خطفاه لماذا خطفاه ولماذا اختاراه بالذات.. الشوارع تعج بالأطفال ابني مثلهم لا يزيد عليهم شيئًا.

سار يوسف في الشارع تحاصره الأسئلة.. ما زال عند نقطة الصفر.. لم يظهر أي شيء يقود لكشف لغز اختطاف ابنه.. يتساءل: هل ضاع طارق للأبد؟ هل نجح الخاطفان في محو هويته؟ يكلم نفسه ويجيب بصوت عالٍ تخنقه الدموع وأنين مكتوم وآهاته تعلو.. أحيانًا لا يشعر أين تقوده قدماه حتى شعر بتعب شديد جلس على الرصيف يبكي.. الناس أمامه يمرون.. بعضهم يمضي بلا مبالاة وآخرون ينظرون إليه نظرات الشفقة وآخرون تعلو وجوههم ابتسامة السخرية.

تمر اللحظات.. كهل يربت على كتفه قائلاً: "قم يا ابني ما دمت حيًا فالأمل لن يموت".

يقوم يسير على غير هدى.. التعب والإرهاق جعلاه يلقي بنفسه على أول كرسي صادفه في أحد المقاهي الصاخبة ومع رشفات الشاي بدأت دموعه تكف عن تدفقها لفت نظره في التليفزيون نشرة الأخبار.. يتحدث المذيع عن

اختطاف مجموعة من الأجانب وأن الخاطفين يطالبون بفدية فضرب كفًا بكف ولسان حاله يقول: يا ليت كان خاطفا طارق من أفغانستان على الأقل كانا أعلنا عن نفسيهما وأن لهما مطالب.. أما هذان الوغدان ففعلا فعلتهما الشائنة واختفيا كأن الأرض ابتلعتهما ولا نعرف لهما هوية حتى الآن.

عيناه تجولان في المكان بصخبه وازدحامه.. الجالسون منهمكون في شرب الشيشة واللعب.. المارة يمرون سراعًا وكأنهم في سباق.. كل يبحث عن نفسه كأنه يريد أن يستحوذ على كل الأحلام الموجودة في الدنيا ظنا أن الرزق خُلق له وحده.. غابت قيم وضاعت نظم.. باتت الحياة أشبه بسيرك يتعاظم فيه دور المهرجين.. والكومبارس احتلوا مقدمة الصفوف.. هنا وهناك تمضي الحياة يصنع الإنسان فيها ما يشاء.. تبقى الحياة ويرحل الإنسان.

تقع عينا يوسف على طفل من أطفال الشوارع يسير منكسرًا بثياب رثة يندفع نحوه يراه الطفل يجري أمامه خائفًا يطارده.. يسأله يوسف وقد أخرج صورة طارق إذا كان قد رأى صاحب الصورة لكن الطفل فر وذاب في الزحام ليقف يوسف يلتقط أنفاس الخيبة والإحباط.. يعاود جلوسه يتسلى بالفرجة على رواد المقهى والمارة.

تمضي الأيام والجمود شعارها والكآبة منهجها.. يقف يوسف على شعرة من الأمل وإن كان اليأس بدأ يتسرب إليه.

١٥

حان يوم مناقشة رسالة الماجستير.. بـدت شـاهيناز في أوج سـعادتها يراودها قلق الفشل.. تداعبها أحلام النجاح.. يوسف بجوارها يشد من أزرها يشاركه في ذلك والداها.. وامـتلأت القاعـة بزملائهـا تـوزع ابتـساماتها علـى الجميع لكنـها لا ترى سوى يوسف.. لا صوت ينطق إلا عن المناقشة.. توحدت الأفكار وسارت في اتجاه واحد.. حتى يوسف لأول مرة ينشغل عن قضية ابنه ويندمج في الشد من أزر محبوبتـه.. أما والدة شاهيناز فتترقب باب القاعـة في انتظار حضور هاني.. فقد اتصلت به بعد أن حصلت علـى الـرقم الجديـد مـن علاء وبعد العتاب حصلت منه على وعد بالحضور.

تدخل لجنة المناقشة القاعة ليخيم صمت تبجيـل.. يتحـدث الـدكتور المشرف ويدير دفة المناقشة الساخنة.. يبـدو التـوتر علـى إجابـات شـاهيناز ويوسف يدعمها بنظراته يشير لها بالثبات.. تتعدد الإيجابيـات والـسلبيات عن الرسالة.. كل يدلو بدلوه.. لكن هناك شبه إجماع من أعضاء لجنة المناقشة على قيمة الرسالة والجهد المبذول فيها.

تنتهي المناقشة.. تخرج اللجنة للمداولة.. يندفع الجميع حول شاهيناز بكلمات الإطراء مقدمين التهنئة مقدمًا.. لكنها تكتفي بتوزيع الابتسامات تعطي أذنيها ليوسف الذي يمدحها مؤكدًا لها النجاح ترمي بنفسها في أحضان أمها تغسل إرهاقها.

تعود اللجنة ليعود الكل إلى مكانه.. يتلو المشرف قرار الجنة بمنح درجة الماجستير للباحثة بتقدير امتياز مع التوصية بتوزيعها وتبادلها مع الجامعات والمراكز البحثية.

تتنفس شاهيناز الصعداء وتدوي القاعة بتصفيق حاد وتعلو الزغاريد.

وتختفي شاهيناز وسط المهللين والمهنئين تبحث عن يوسف تنادي عليه ليصعد معها بصحبة والديها ليلتقطوا الصور التذكارية.

أمها تحتضنها.. تغمرها بقبلاتها رغم شعورها بخيبة أمل في عدم حضور ولدها.

تخرج شاهيناز في زفة المهنئين.. لكن سرعان ما يذهب كل إلى حاله لتبقى شاهيناز تطوق ذراعها بذراع يوسف لأول مرة ليخرج تعليق من والدها متمنيًا تكرار الفرحة نفسها عند زفافهما.

في طريق العودة يتصل هاني بشقيقته مقدمًا التهاني والأعذار عن عدم حضوره.. استدار يوسف بعد أن فرغت من المكالمة قائلاً:

- كانت فرصة اليوم أن يحضر ويبدأ صفحة جديدة.

لكن الأستاذ إبراهيم طالبه بأن ينظر أمامه ويركز في قيادة السيارة ثم أردف قائلاً:

- قلت لك لا تشغل بالك.. كل إنسان حر.. الباب مفتوح أهلاً وسهلاً في أي وقت.

يوم سعيد غسل به يوسف همومه.. نسي فيه مصيبته.. يشعر بسعادة بالغة عندما يجلس إلى شاهيناز.. صارت الدواء ومسكن الآلام.. كان يود ألا يتركها ويعود لوحدته المقفرة.

يعلم أنه بمجرد دخوله شقته تتبخر السعادة.. لكن ما خفف عنه حضور صديقه طه يمضي معه الوقت يحاول نسيان شعوره بالعجز تجاه ابنه وفشله في معرفة مصيره حتى الآن رغم ما يقارب مرور عام على تلك الحادثة.. هل الأيام تمر بالشهور والسنين بلا أمل؟ يسأل صديقه لكن تبقى أسئلة بلا إجابات.. إلى متى تهرب منه الحقائق؟ وهل يخونه الواقع بأن حرمه من الأمان وسمح للخداع أن ينتصر عليه رغم أنه لم يخدع أحدًا ولم يطالب إلا بالأمان؟ متى يسدل الستار على تلك المسرحية وتنكشف الحقائق؟ لقد مل الجمهور من طول الأحداث بلا مبرر؟ لماذا لا يظهر الحق الآن ويرحم الجميع وتنتهي فصول المسرحية الباردة ثم يصفق الجمهور ويسدل الستار؟ لقد جفت مقل الجمهور من مشاركة البطل دموعه وأشجانه وضجر من التطويل ينتظر النهاية.. يخشى البطل أن ينصرف الجمهور ليبقى وحيدًا

يؤدي دوره الملل ولا مناص من الهروب ثم يجد نفسه وحيدًا لا يشاركه أحد همومه.

ما زال الجميع في انتظار القدر أن يعلن كلمته لينتصر الخير على الشر وتنكشف ألاعيب الأشرار.. لكن يبدو أن المسرحية لها فصول أخرى وليصبر البطل رغم أنه لم يختَر هذا الدور بل وجد نفسه فجأة على المسرح يؤديه وليقدر الجمهور ذلك وينتظر بلا ملل النهاية ربما تكون سعيدة وربما ينهار كل شيء.

الأيام تمر على وتيرة واحدة.. ينتهي الحديث عن الماجستير ليتجه صوب الإعداد للزفاف وتحديد الموعد.. حاول يوسف الهروب.. لكن شاهيناز تلاحقه.. تستعجله.. كان يود أن يعثر على ابنه قبل تلك الخطوة.. لكنه وعد ولا بد أن يفي بوعده.. قال لشاهيناز:

– لماذا لا نؤجل الزواج حتى تعثري على وظيفة مناسبة؟

ضحكت ظنًا منه أنه يداعبها قائلة:

– لو كلامك بجد إذًا لن نتزوج.. من سبقوني حصلوا على الدكتوراه وانضموا لكتيبة المقاهي يقرءون باب وظائف خالية بلا جدوى.

– معقول هذا؟ تصوري أن جدي قديمًا فور حصوله على الابتدائية تم تعيينه في الحكومة وخرج على المعاش وهو مدير عام.

- كان.. وكان لا يعود.. دعنا نفكر في زواجنا أفضل حتى لا يصيبنا الاكتئاب.

انشغل يوسف في الإعداد لزواجه.. باع الأثاث القديم إلا حجرة ابنه طارق التي ما زالت في انتظاره ثم ذهب مع عروسه واشترى أثاثًا فاخرًا من منطقة المناصرة.. بقي تحديد موعد الزفاف.. بحماس ونشاط تستعد شاهيناز بينما يوسف يتحرك مترددًا فلا يهمه الزواج بقدر اهتمامه بالعثور على ولده طارق لكنه قال لصديقه طه:

- سعادتي مؤجلة حتى أعثر على ولدي.. تعرفت على شاهيناز وبادلتها الحب على أمل أننا سنعثر على طارق ثم أتزوجها.. لكن لم يتحقق حلمي الأول ولم يعد هناك انتظار فالأيام تجري وما دمت قد وعدتها فلا بد أن أنفذ وعدي.

- لكن ربما تظلمها معك.. هي تنتظر منك السعادة وفاقد الشيء لا يعطيه.

- لقد شرحت لها ظروفي كاملة فوافقت.. كما أنها لا بد أن تقدر ما أنا فيه.. من يحب فعلاً لا بد أن يضحي ومن يدري ربما تكون فأل حسن عليَّ ويعود طارق لتعود سعادتي الغائبة؟!

- أخشى أن تلهيك عن ولدك وربما بعد ذلك تنجب ولدًا فتنسى.

نظر إليه يوسف نظرة شزراء ثم رد عليه بغلظة:

– مستحيل.. ابني يساوي حياتي.. لن يشغلني عنه أحد ولن يهدم عزيمتي سوى الموت أنا المسئول عن ضياعه ولن أغفر لنفسي إلا عندما يعود سالمًا.

ثم انخرط في بكاء فقال طه محاولاً التخفيف عنه:

– أنا لا أقصد ولكن حاولت توضيح الأمور أمامك.

فرد يوسف وهو يمسح دموعه:

– قلت لك إنه ابني ولست محتاجًا للتوصية حتى عندما أعثر عليه إن شاء الله لو وجدتها تعامله معاملة لا أرضى عنها فسيكون الفراق هو الحل.. إنه يتيم والله أعلم أين هو الآن وهل هو سعيد أم شقي.

– أحيانًا تلهو بنا الحياة فنغض طرف أعيننا.. لكن كلامك الآن يجعلني أقول لك توكل على الله وألف مبروك.

ثم تعانقا حبًا وتعميقًا لأواصر الأخوة بينهما وقال يوسف مبتسمًا:

– عقبالك.

فأطرق طه حزينًا قائلاً:

– المهم أعثر على عمل أولاً.

– إن شاء الله سوف تحقق كل أحلامك: الوظيفة والعروسة.

فقال طه محاولاً إخفاء أشجانه:

- المهم ما ترتيبات زفافك يا عريس؟

- الأمور عادية.. لن نبالغ.. مجرد جلسة بسيطة في شقة شاهيناز ثم أحضرها إلى هنا في شقتي.. ليس هناك مجال للسعادة.. فلا يمكن أن أفرح وابني غائب عني.

* * *

جاء يوم الخميس موعد الزفاف.. تزينت شاهيناز العروس وبدت في أبهى صورها وامتلأت شقتها بأقاربها جاءوا مهنئين في انتظار رؤية هذا العريس وأمها ترحب بهم تتطلع إلى حضور ولدها هاني بعد أن اتصلت به ووعدها بالحضور.. على مقربة منها يقف الأستاذ إبراهيم زوجها يرحب بالمدعوين بينما العروس في حجرتها حولها صديقاتها في انتظار حضور العريس.

تمر دقائق ويحضر المأذون يتبعه يوسف العريس ومعه صديقه طه ليقدم اعتذاره عن التأخير بسبب عطل حدث بالسيارة اضطر لأن يذهب للميكانيكي ثم يتم عقد القران وسط سعادة المدعوين ويوسف يحاول جاهدًا أن يبتسم فمن حوله أطفال يلهون يذكرونه بولده ثم تخرج العروس وسط الزغاريد وتصفيق حاد يستقبلها يوسف بين ذراعيه ثم يجلسها بجواره.. يتلقى سيلاً من المعانقات وقبلات المدعوين.. بجوار العروس أمها تمسح دموع الفرحة وسط صوت موسيقى صاخبة يخرج من جهاز تسجيل.. العروس تكاد

تطير من فرط سعادتها.. لا تصدق.. أخيرًا بجوار فارس أحلامها.. تنظر إليه تتأمله فهو الذي اختارته.. أعطته مفاتيح قلبها.. به سيكون للحياة طعم مختلف.. سترجو الأيام أن تبطئ من سرعتها لكي تنهل من حنانه.. يوسف تغلب على آلامه يبتسم ينتظر سعادة تعوضه عن أيام الجفاف التي عاشها تجعله ينسى أحبابه الذين اختطفهم الموت.. صحيح أنه كان يحبهم وعقد الوفاء معه لكن الحياة والحب لا يعترفان بالموتى.. لا يغفران لنا تلك الأحلام التي عشناها معهم لتبقى الذكريات ألمًا يزيد معاناتنا.. مما يجعلنا نبحث عن منابع سعادة جديدة.. اليوم يبدأ ينهل من سعادة جديدة.. زهرة يراها كل يوم يتنفس معها المحبة والحنان ودفء المشاعر.. قوة تمده بالعزيمة في مواجهة الحياة.

لكن فجأة يطل هاني يقف على باب الشقة على وجهه علامات التحدي تراه والدته تسرع نحوه تعانقه تدعوه للدخول تعاتبه على غيابه فصاح غاضبًا:

– أنت تعلمين السبب ولولا إلحاحك ومن أجل شاهيناز ما كنت حضرت حتى لا أرى هذا الإنسان الذي للأسف مجبر أن أحمل اسمه.

ترد والدته بعصبية:

– لا داعي لهذا الكلام.. الآن ادخل سلم على أختك وعريسها بارك لهما.

تلمحه شاهيناز تشير له فيسألها يوسف عن هذا الشخص الذي لا يرى ملامحه من تزاحم المدعوين فترد شاهيناز بسعادة:

- إنه هاني أخي.

يخترق هاني الصفوف يصل لشقيقته يسلم عليها بحرارة.

قام يوسف يعانقه تقترب أعينهما واليدان تتقابلان.. تقابلت نظراتهما.. لا تختلف نظرات يوم اختطاف طارق.. تلمع عيونهما.. صاعقة هوت عليهما.. لحظات كالدهر.. شلل حل بهما من الدهشة.. الذاكرة لديهما أكدت الشكوك.. يصرخ يوسف صرخة مدوية بعد أن امتدت يداه فجأة تمسك هاني من تلابيب قميصه الذي يحاول أن يفلت منه:

"يا حرامي.. أنت الذي خطفت ابني.. أين ولدي يا حرامي؟ لن أتركك".

صُعق الحاضرون بعد أن عقدت الدهشة ألسنتهم.. اندفعوا نحوهما.. خرست الموسيقى وفرت طيور السعادة مذعورة.. هاني يحاول أن يفلت ويتخلص من قبضة يوسف لكن طه قيد حركته.. صرخت شاهيناز بهستيرية:

"لا يا يوسف إنه هاني شقيقي".

بينما اندفعت والدتها تشد ابنها موجهة كلامها ليوسف:

"اتركه يا مجنون".

فصرخ يوسف:

"لا.. إنه الحرامي الذي خطف ابني طارق".

والد هاني صاح في وجه يوسف:

- أكيد أنت مخطئ.. ابني لا يفعل ذلك أبدًا.

عاد يوسف يصرخ.

تنهار شاهيناز.. يغشى عليها ليندفع نحوها الجميع.. هرج ومرج حدثا.. نظر يوسف ناحية شاهيناز وجدها هاني فرصة ليتخلص من قبضة يوسف في الوقت نفسه وجه لكمة قوية له ثم قفز هاربًا ويوسف وطه يجريان خلفه.

تحول الفرح إلى مأتم.. خفتت أضواء السعادة.. تبددت كل آمال الحب.. غربت شمس الحنان.. هبطت طيور الأشجان من جديد.. انهارت الأحلام.. لم تشفع نسمات الصبر وانتظار غد مشرق.. عادت الدموع تحرق القلوب.

قفز هاني على الفيسبا لينطلق بها يرتعش من الخوف كلما نظر في المرآة ليجد سيارة يوسف تطارده.. يوسف يبكي.. طه يستحثه على أن يزيد من سرعته لكنهما دخلا شارعًا مزدحماً.. السيارات تسير كالسلحفاة لينجح

هاني في المرور بين السيارات ويختفي.. ينـزل طـه مـسرعًا يتعقبـه لكـن بـلا جدوى بينما انطلق يوسف إلى قسم الشرطة.

دخل منهك القوى على الضابط.. تهرب منه الكلمات يتلعـثم باكيًـا.. حاول الضابط تهدئته لكي يفهم ما يقوله.. لكن كلمات يوسف تتدافع فتخرج مشوهة كمن أصابه مس من الجنون.. رأسـه كتلـة مـن النـار.. لا يـصدق.. لا يدري كيف ولماذا ومتى.. كل الأفكار متوهجة.. عيناه سـحب غائمـة تنفجـر دموعًا.. قلبه يتقطع بكاء.

عندما أيقن هاني أنه أفلت من المطاردة ركن في مكان مظلـم ثـم اتـصل بصديقه علاء يخبره بما حدث لينفجر عـلاء صـارخًا: "يـا نهـار أسـود.. يـا نهار أسود.. ضعنا خلاص".

فيرد علاء غاضبًا:

- كفاية عويل لا بد أن تهرب الآن.

- إلى أين؟ ما خلاص انكشفنا.

- أنت حر لكن من الآن لن تراني.

- أين ستذهب؟ خذني معك.

- لا.. كل واحد يهرب بمعرفته.. سلام.

انقض علاء على الزبون المتواجد بالسنترال يخطف منه التليفون وهو

يقول:

"كفاية خلاص شطبنا".

ثم دفعه خارج السنترال ليخطف الباب يغلقه ثم أطلق ساقيه للريح دون أن يبالي باعتراضات الزبون.

في تلك اللحظة رن هاتف هاني رد بعصبية ليجد والده يسأله عما حدث فرد هاني غاضبًا:

– ماذا تريد؟ أنت السبب في كل ما سيحدث لي.

بكى والده:

– أنا؟! لن ينفع هذا الكلام الآن لكن طمني أين أنت الآن؟

– دعني وشأني.. كفاية.. من اليوم لن تراني مطلقًا.

– لكن هل خطفت ابن يوسف فعلاً؟

– نعم خطفته.. استرحت.. دعني في حالي.

ثم أغلق هاتفه وانطلق لا يدري أين سيذهب.

وصل طه إلى القسم يلتقط أنفاسه بصعوبة ليوضح للضابط ما حدث بينما يوسف ما زال عقله مشلولاً لكنه انتفض عندما رأى والد هاني يدخل اندفع نحوه يسأله صارخًا:

– أين ولدي طارق؟

- والله العظيم لا نعرف أي شيء عن هذا الموضوع.. نحن...

لكن يوسف قاطعه صارخًا:

- أنتم العصابة التي خطفت ولدي.

رد والد هاني والأسى على وجهه:

- عيب يا ابني أنا في مقام والدك وأنت دخلت بيتنا وعرفتنا جيدًا نحن والله لا نعرف أي شيء وفوجئنا مثلك تمامًا.

فدعاه الضابط للجلوس وتم فتح محضر جديد.

أثناء حديث والد هاني نافيًا أن يكون لديه علم بما فعله ابنه.. صمت هنيهة ثم قال:

- آه تذكرت شيئًا مهمًا.. منذ عام تقريبا حضر هاني ومعه طفل.. ولما سألناه قال إنه ابن واحد صاحبه ذهب لإحضار زوجته الغاضبة من عند أهلها بالصعيد وإنه أعطاه الطفل خشية أن يفشل في إرضائها ويأخذ أهل زوجته الطفل منه.

فقام يوسف مندفعًا نحوه:

- ممكن تقول لي أوصاف هذا الولد؟

صمت الأستاذ إبراهيم والد هاني يسترجع ويوسف كالوحش المتربص بفريسته لكن جاء الرد مخيبًا:

- بصراحة أنا لا أتذكر جيدًا لكنه كان طفلاً كأي طفل عمره تقريبا ثلاث أو أربع سنوات.

فقال يوسف: وكان يرتدي بلوفر نبيتيا وبنطالاً أسود؟

- نعم.

فصرخ يوسف متجهًا نحو الضابط:

- سمعت.. إنه ابني.

فقال الضابط:

- لكن لماذا خطف ابنك؟

فقال الأستاذ إبراهيم:

- منك لله يا هاني.. لماذا فعلت هذا؟

انتهى التحقيق دون الوصول لنتيجة بعد أن تأكد اختفاء هاني وصديقه الذي ذهب لصاحب السنترال وألقى له بالمفتاح وفر من أمامه دون أن يرد على استفساراته.

على باب القسم قال الأستاذ إبراهيم ليوسف:

- تعالَ معي.

- إلى أين؟

- زوجتك في انتظارك.

لكن يوسف قال لطه متجاهلاً ما سمعه:

- هيا يا طه.

لكن الأستاذ إبراهيم اعترض طريقه:

- اسمع يا ابني.. لقد أقسمت لك إنني وشاهيناز وأمها لا نعرف أي شيء.. وشاهيناز أصبحت زوجتك ولها حقوق عليك وما دمنا عرفنا من خطف ابنك فبذلك نكون قد قطعنا نصف المشوار وثق أنني لن أسكت حتى يعود ابنك بين أحضانك.

لكن يوسف مضى في طريقه ينادي على صديقه بعصبية شديدة.

فانفلتت الدموع من عيني الأستاذ إبراهيم فربت طه على كتفه قائلاً:

- اعذره لكن غدًا بإذن الله تتحسن الأمور.

عاد الأستاذ إبراهيم منكس الرأس.. الانكسار يحط عليه وقد خفتت الأضواء وانفض الحضور ليجد زوجته تبكي.. نظر إليها لا يدري ماذا يقول.. سأل عن شاهيناز دخل حجرتها ليجدها ترقد في هدوء مستسلمة لتأثير الحقنة التي أعطاها الطبيب إياها.

تطلعت عيناه لصورتها على مكتبها وهي تبتسم.. ترقرقت الدموع في عينيه.

عاد يوسف لشقته على حاله من الفوران وشلل التفكير أصابه.. لا يصدق مع حدث يضرب كفًا بكف.. يود لو ضرب رأسه في الحائط ليستوعب ما حدث.. طه يحاول تهدئته لكن بلا جدوى.

يوسف لا يستقر على حاله.. يجلس لحظات ثم يقوم كالمجنون واضعًا رأسه بين يديه.. يعض أنامله ينفث في غضب يرفض أن يشرب عصير الليمون.. فقال طه:

– كل ما تفعله لا جدوى منه.. وكما قال الأستاذ إبراهيم إنك قطعت نصف المشوار.

صاح يوسف غاضبًا:

– ومن يدري ربما قتلا ابني؟

– ادعُ الله أن يكون بخير.

– يا رب.

– شيء غريب ما حدث.. ألم ترَ هاني هذا من قبل؟

– لا.. لكن أرجوك لا تذكرني.. عقلي يكاد ينفجر.

– لكن أعتقد أن كلام الأستاذ إبراهيم صحيح.. إنهم مثلك لا يعرفون أي شيء.

– من يدري؟ ربما هم عصابة لخطف الأطفال ووضعوا الهانم شاهيناز

في طريقي حتى يعرفوا تحركاتي ويسيطروا عليَّ.

– حرام عليك لا تلقِ بالتهم جزافًا.. ولو كان كلامك صحيحًا لحرصوا على ألا تقابل هاني بتاتًا.

– إذًا فسر لي ما حدث.

– لن يفسر ما حدث سوى الوغد هاني وشريكه.. وما هي إلا أيام قلائل وسيقعان في قبضة الشرطة لنعرف سر خطف طارق.

* * *

١١

اليوم التالي استيقظت مصر على خبر أليم توشحت فيه بالسواد.. غرق العبارة السلام 98 في مياه البحر الأحمر.. كارثة انفطرت لها القلوب.. تبكي مصر أبناءها الذين غرقوا وراحوا هباء بلا ذنب عائدين ينسجون لحظات السعادة عندما تطأ أقدامهم تراب بلدهم.. ينفضون عن كاهلهم مرارة الغربة.. هانحن يا وطن عدنا لك نحمل الآمال نمني أنفسنا بالراحة بعد سنوات من العناء والشقاء.. نفتح لك ذراعينا لتستقبلنا نتنسم عبيرك.. نحن أبناؤك يا وطن ضمنا بين جناحيك.. ودعناك سعيًا للرزق بعد أن تواعدنا على اللقاء فنحن من دونك لا نساوي شيئًا.. تحملنا مرارة على أمل أن تعوضنا.

لكن يا وطن ماذا حدث؟ هاهو الموت الغادر يداهمنا في ظلمات البحر نحاول الهروب أو الفرار.. لكن إلى أين؟ نصارع الأمواج نقارع الخوف.. شبح الموت يطاردنا.. لا مفر غرقنا قتلنا بسكين الإهمال والفساد.. ما ذنبنا يا وطن؟ ألسنا أبناءك؟ فلماذا تركتنا فريسة لوحوش الإهمال والفساد؟ عدنا إليك يا وطن تحملنا النعوش.. لم يعد للبكاء ضرورة أن يستقبلنا فقد ضاعت أرواحنا

ولم يعد لنا وجود.. ذنبنا في رقبة من؟ لماذا تصمت يا وطن؟!

كارثة هاجت معها ذكريات أليمة لكوارث قديمة ما بين حوادث القطارات وغرق عبارات قبل ذلك واحتراق مسرح بني سويف وانهيار العمارات وغيرها.. قدرك يا ابن النيل.. ألقوا المسئولية على الإهمال.. فهل يتحول بناة الأهرامات إلى رمز للسلبية والفساد؟ التاريخ لا يشفع والحاضر وحده يتحمل كل العواقب.

رغم مرارة أشجان يوسف لكن كارثة العبارة زادت آلامه وانسكبت دموعه وهو يتابع على شاشات التليفزيون جثث أبناء مصر تصل تباعًا.. يتابع في الصحف روايات متباينة وتحليلات متفاوتة عن الكارثة.. لكن يبقى صاحب العبارة بعيدًا بلا مسئولية ولا محاسبة!

وسائل الإعلام تعرض صور البسطاء من أبناء مصر وقد هرعوا إلى سفاجا يبحثون عن ذويهم.. وجوه ممصوصة ذابلة شاحبة اللون حفر الزمان عليها البؤس والأسى.. مرارة تطل من أعينهم..

يوسف يكاد يجن مما يسمعه –رغم ما فيه– لكن الكارثة أكبر..

– الإهمال هو السبب.

هكذا رد عليه طه.. لكن يوسف قال:

– ومن زرع هذا الإهمال؟ ألسنا نحن؟ من سمح لعبارة متهالكة ليست

بها وسائل الأمان والإنقاذ تبحر بآلاف الأرواح؟ من سمح لها بذلك؟

– ابنك.. ماذا فعلت اليوم في قسم الشرطة؟

– لماذا بعد كل كارثة نختلق الأعذار ولا نلوم سوى الإهمال؟

– ابنك.

تنهد يوسف من أعماقه:

– ابني ضحية كضحايا العبارة.. هرب المسئول عن الجريمتين بلا عقاب.

– أعتقد أن صديقه هو الشخص الثاني الذي خطف ابنك.

– شيء مؤكد.

– لكن لماذا هربا؟ وأين ذهب ابني؟

– بصراحة هل كنت تعرف هاني أو صاحبه من قبل؟

فرد يوسف غاضبًا:

– سؤالك مستفز فأنت تعرف عني كل شيء.

– إذًا لماذا خطفا ابنك؟

فأشاح يوسف بيده بعصبية:

– اذهب واسألهما.

- لا تغضب.. لكني أحاول الوصول لتفسير.. هل اتصل الأستاذ إبراهيم أو زوجتك؟

- لا أريد أن أسمع سيرتهم.

- لكن ربما يكون في أيديهم الحل.. هذا بجانب أنهم لا ذنب لهم.. لماذا لا تسأل عن زوجتك؟

صمت يوسف وشرارة الغضب تطل من عينيه.

- يوسف.. اسمع كلامي اذهب لهم.

فقال يوسف يقاوم دموعه:

- كيف أنظر لهم وأكلمهم وابنهم خطف ابني؟

- قدرك هكذا ومن الظلم أن تعاقب من لا ذنب له.

كلمات طه جعلت يوسف في حيرة بالغة ماذا يفعل!

أما شاهيناز فعندما أفاقت استرجعت ما حدث.. أخذت تصرخ بهستيرية لا تصدق ما حدث.. ظنونها التي كانت تهرب منها أصبحت واقعًا لينهار كل شيء.. ليلة عرسها تحولت لمأتم.. تمسك برأسها تضغط عليه وصراخها لا يتوقف.. الطبيب أوصى بنقلها إلى المصحة لعلاجها من أثر الصدمة.

بكاء والديها لا ينقطع.. يجلسان بجوارها نائمة.. عقلها أذهبته

المهدئات.. بالأمس كانت وردة زاهية تنتظر فارسها تداعبها أحلام السعادة ونسمات الحب والأمل.. خطوات قليلة وكانت ستدخل عشها مع حبيبها الذي اختاره قلبها.. لكن هيهات هيهات.. انهار كل شيء كالرياح العاتية تقتلع الزهور وتجتث الأخضر واليابس.. فقدت حبيبها وضاع شقيقها.

اليوم التالي ذهب يوسف بعد أن اقتنع بكلام صديقه لكنه لم يجد أحدًا.. تعجب زادت شكوكه.. استدار عائدًا لكنه رأى الأستاذ إبراهيم يصعد درجات السلم:

- أهلا يا أستاذ إبراهيم.

الدموع تغرق عيني الأستاذ إبراهيم.

- أهلا يا باشمهندس تعالَ تفضل.

- أين شاهيناز؟

- في المستشفى.

يوسف مذعورًا:

- مستشفى؟! ماذا حدث؟

يدلف إلى داخل الشقة الأستاذ إبراهيم.

- طبعا بسبب ما حدث.. كلما أفاقت تصرخ بهستيريا فلا يجد الأطباء حلا سوى إعطائها حقنًا مهدئة لتظل في عالم آخر.

- لا بد أن أذهب إليها.

- يا ليت.. هي في حاجة إليك.. انتظر وسنذهب سويا.

ما زالت نائمة تطبق عينيها.. ينحني يوسف يطبع قبلة ليبتل جبينها بدموعه.. يجلس بجانبها فؤاده يكاد يتمزق لا يدري ماذا يفعل.. أصبحت زوجته وربما لا يكون لها ذنب لكن ابنه خطفه شقيقها ولا أحد يعلم ماذا فعل به.. هل يتخلى عنها ويعاقبها بذنب شقيقها؟ مسكينة كانت تحبه واختارته شريكًا تكمل به رحلة حياتها قبلت ظروفه.

لكنه انتفض مذعورًا يتساءل هل كانت تعلم أن شقيقها وراء خطف ابنه وأنها عرضت عليه حبها شفقة عليه.. ألقى نظرة فاحصة عليها يود أن يصرخ لكي تستيقظ وتبدد شكوكه.

خرج يجر خطواته وجد والديها يجلسان أمام الباب يبدو الانكسار على نظراتهما.

يقف أمامهما:

- لي رجاء عندكما.. لو اتصل بكما هاني قولا له أين طارق.. اطلبا منه أن يرجعه لي سالمًا وأنا سأسامحه.. لا أريد منه شيئًا سوى ولدي.

يعود إلى شقته يفتح التليفزيون تطالعه أخبار الكارثة والمشهد المروع لغرق العبارة فالبحر تعاون مع الجشع والطمع والإهمال والسلبية في ابتلاع

أكثر من ألف مصري.. وما بين هروب المتهم الأول صاحب العبارة وصرخات وآهات أهالي الضحايا تنهش في ليل الشتاء القارس.. من سمح له بالهروب حرًا طليقًا في شوارع لندن؟

كالعادة لم ينم.. ظل يتقلب ما بين البكاء على ابنه وهؤلاء البؤساء ممن قادهم حظهم العاثر لركوب العبارة.. ثمة تقارب بين كارثته وتلك الكارثة المفجعة.. لكنه لا يعجز عن تفسير ذلك.

في الصباح طلب من صديقه طه في التليفون أن يحضر.. يتنقل بين المحطات التليفزيونية يتابع أخبار الكارثة يشاهد منظر الجثث التي ألقت بها الأمواج كأنها تصرخ تنادي بالثأر من المسئول عن تلك الفاجعة.. التقط الصحيفة من يد صديقه فور حضوره.

قال طه:

– سيتم صرف تعويضات عاجلة لأسر الضحايا.

يخرج يوسف رأسه من الجريدة صارخًا:

– كنوز الدنيا لا تعوض.. الجريمة أكبر من أي تعويض ورحم الله الشاعر أمل دنقل عندما قال:

"أترى حين أفقأ عينيك ثم أثبت بهما جوهرتين.. هل ترى؟ هي أشياء لا تشترى".

- فعلا غرق 1023 مصريًا جريمة لا تغتفر.. تصور أن السفينة يقال إن ربانها أرسل إشارات استغاثة لكن لا مجيب.. نحن أصبحنا نسير بالفهلوة وتجري في عروقنا السلبية ويتحكم فينا الإهمال.

- معقول أحفاد بناة الأهرام يصبحون هكذا؟ لا.. أعتقد مهما طغت الظلمة وتوحشت المصري الأصيل موجود يظهر معدنه الحقيقي في أوقات المحن والشدائد يبزغ معه فجر الأمل ليستمر عطاء مصر.. فإذا كان قدر مصر أن تتعرض لكوارث فإن أبناءها قادرون على تجاوز كل المحن.

يتجه طه نحو المطبخ لعمل الشاي ويوسف يواصل قراءته للصحيفة بنهم.. قصص أليمة يرويها الناجون.. ينتقل لصفحة بمجرد أن يلقي نظرة عليها تجذبه صورة طفل لم يحتَج لوقت طويل لكي يتأكد منها.. لكنه قفز صارخًا صرخة مدوية: "طارق.. وجدت طارق.. هذه صورة ابني".

يخرج طه مسرعًا من المطبخ تحاصره علامات الدهشة يخطف الصحيفة يدقق في الصورة التي يشير إليها يوسف تنتابه نظرات الشك والحيرة يقرأ تفاصيل الخبر عن الصورة.. إنها لطفل كان في العبارة بصحبة والده الذي ظل يصارع الأمواج ممسكًا بطفله هذا لكن خارت قواه في اللحظات الأخيرة ليغرق قبل وصول فرق الإنقاذ بينما نجا الطفل الموجود الآن في مستشفى سفاجا بحالة نفسية سيئة للغاية.

أعاد طه قراءة الخبر أكثر من مرة.. نظر لصاحبه نظرة إشفاق..

صحيح أن الصورة تشبه ابنه طارق لكن تفاصيل الخبر تفند أي مجال للشك.. فليس هناك علاقة.. حاول أن يفهم يوسف الذي راح يتقافز من فرط فرحته يغمغم بأدعية الشكر.. لم يجد طه بدًا من مصارحته:

– لكن هل قرأت الخبر كله؟ ليس هناك علاقة بين هذا الطفل وطارق ابنك.

فصرخ يوسف غاضبًا:

– لا تقل هذا.. إنه ابني ومهما قالوا فلن أصدق سوى نفسي.. مستحيل أن أتوه عن معرفة ابني.. قلبي الذي ذاق المر لفراق ولدي لن يعجز عن معرفته ولو وسط مليون.

– يخلق من الشبه أربعين.. الصورة ليست دليلاً.. قد يكون الأصل غير ذلك.

رد يوسف والدموع تخنقه:

– بل هو طارق مهما حدث.. صدقني ابني لا يمكن أن أتوه عنه.

ثم اندفع لغرفته يرتدي ثيابه قائلاً:

– سأذهب الآن إلى سفاجا لأحضره.

اعترض طه طريقه:

– لا تكن مجنونًا.. لا بد أن نتأكد أولاً أنه بالفعل طارق.

– لم يعد وقت للانتظار.. الآن أعرف مكانه غدًا قد يختفي مع عجلة الحياة.

لم يجد طه ما يقنع به صديقه سوى أن يسافر معه.. بحثا عن وسيلة نقل سريعة فكانت سيارة أجرة خاصة.. الطريق طويل يبدو بلا نهاية مساحات شاسعة من الصحراء تمتد تبعث في النفس الوحشة.. يوسف يحث السائق على أن يزيد من سرعته.. لا تمر دقائق إلا وينظر في ساعته يكاد يتشاجر مع عقارب الساعة يطالبها بالتريث.. الدماء تغلي في عروقه.. الأفكار تنهش عقله.. يبدو كمن أصابته لوثة.. الحيرة تمزق كيانه.. كيف ذهب طارق إلى هذا الرجل؟ وهل كان حقًا على ظهر العبارة وكتبت له النجاة؟ لديه يقين راسخ أنه طارق.. بينما طه تساوره الشكوك يعجز عن الإجابة عن تساؤلات صديقه.. يرد على السائق الذي ظل يثرثر طوال الطريق عن الكارثة.. يصب جام غضبه على الإهمال.. يبدي حسرته على الضحايا.

تصل السيارة بعد ساعات طويلة إلى سفاجا مدينة الأحزان ومهما صورت شاشات التليفزيون حجم الكارثة لكن للواقع طعمًا مغايرًا.. نحيب الثكلى يملأ الأركان.. عويل المكلومات ينشر الأشجان.. رجال يبكون.. نساء يولولن.. شباب وأطفال يبحثون عن ذويهم بين الجثث التي تصل تباعًا وبين الناجين.. أمهات وزوجات يحملن صور رجالهن يفترشن الأرض بلا أمل.. وجوه ممصوصة حفر الزمان عليها خطوطاً من الآلام كُتب عليها "للأحزان

فقط" أو "من أجلها صنعت الأحزان".. حائرون لا يجدون من يعطيهم الأمل أو يجيب عن أسئلتهم.. تطوقهم عساكر الأمن المركزي لتزيد الهموم همًا.

آهات ودموع.. أنين ونواح ونشيج قابلت يوسف وهو يشق طريقه في مستشفى سفاجا يسأل عن الطفل الذي نجا وصوره تملأ الصحف.. أمواج من البشر تفوق أمواج البحر.. كلُ يفتش يدقق في الوجوه يبحث عن الناجين.. أم تصرخ تقسم إنها رأت ابنها الذي كان ضمن طاقم العبارة هنا بالأمس بعد نجاته لكنه اختفى.. همس يدور ربما خطفوه حتى لا يقول الحقيقة وتظل غارقة مع من غرقوا.. طبيب يصرخ كالمجنون يبحث في الناجين عن زوجته وطفليه.. ودعهم قبل أن يركبوا العبارة المشئومة على أمل اللحاق بهم بعد أيام قلائل.. لكنه لم يكن يدري أنه الوداع الأخير وأن هناك أيدي عابثة في الظلام تأبى أن تستمر المسيرة بسلام.. وهاهو وصل لتوه من السعودية يصرخ لضياع مهجة حياته.

قصص وروايات تدمى لها القلوب.. لنصل لهذا الطفل الذي ركب مع والده العبارة من أجل العودة لوطنه لديه شوق كبير لوطنه بعد حكايات والده عن هذا الوطن وعظمته ولم يكن يدري أن خفافيش الظلام تتربص بهذا الوطن تبحث عن أطماعها.. في لحظات يجد نفسه في عرض البحر تتقاذفه الأمواج يتشبث بوالده أملاً في الحياة والنجاة.. يقاومان الموت بضراوة يتلمسان شعاع الحياة في ظلمة البحر الكالحة.. لكن الوقت يمر بلا فائدة.. خارت قوى الأب

يرفع ابنه لأعلى يريد أن ينجيه من الموت ويضعه في إطار الحياة يشعر بدنو أجله ينظر حوله يجد بائسًا مثله ما زالت لديه صبابة من القوة ومقاومة الموت.. يصرخ فيه يعطيه ولده راجيًا منه أن يحمله ربما ينجو به.. يهوي الأب في قاع البحر وسط صرخات ولده تحمله أيدي هذا البائس حتى يصل لنش النجاة عادت إليهما الحياة بينما ما زالت صرخاته تقتل صمت الليل الكئيب: أبي.. أبي.. يضعوه في المستشفى وسط صراخه الهستيري لا تفارقه صورة الموت هذا الوحش الكاسر الذي خطف أباه أمام عينيه.. يصل إليه يوسف الآن يراه يتيقن أنه ولده طارق ليس هو زياد كما ذكرت الصحف يرتمي يوسف عليه يبتلعه في أحضانه لتعلو صرخاتهما يوسف يصرخ:

"طارق ابني حبيبي".

بينما يصرخ الطفل خوفًا ورعبًا.. صورة الموت تطارده.. بكاء والده بين أمواج البحر الغادرة يمزق فؤاده.

يحاول طه أن يجذب يوسف لكن بلا جدوى.. يدخل رجل ضخم الجثة كريه الطلعة ينظر ليوسف بغضب شديد ليجذب يوسف ويدفعه بعيدًا عن الطفل ليرتطم يوسف بالحائط.. يندفع طه ليواجه هذا الرجل مدافعًا عن صاحبه.. لكن الرجل سار خطوات يطوق الطفل وهو يقول صارخا: "من أنتما؟ ابتعدا عن ابن أخي".

لكن يوسف يقول صارخًا:

- لا.. إنه ابني طارق.. طارق ابني أنا أبوك".

يحاول الرجل دفع يوسف وطه خارج الغرفة وهو يقول ليوسف:

- أنت مجنون.. إنه ابن أخي اخرج ابحث عن ابنك بعيدًا عن هنا.

يدخل أحد أطباء المستشفى مندفعًا وأمارات الغضب على وجهه:

- ما هذه الفوضى؟ راعوا شعور الطفل.. إنه في حالة نفسية سيئة للغاية حرام عليكم.. تفضلوا خارج الغرفة.

يبكي يوسف موجهًا حديثه للطفل:

- أنا بابا يا طارق ألا تتذكرني؟

يصرخ الرجل موجهًا حديثه للطبيب:

- أين أمن المستشفى حتى يبعدوا هذا المجنون عن ابن أخي؟

يطلب الطبيب منهم الخروج.. وفي طرقة المستشفى يقول الرجل ليوسف:

- لو دخلت عند ابن أخي مرة ثانية سأدفنك حيًا في الحجرة.

على باب المستشفى وقف يوسف وطه يشاهدان أمواج البشر تبكي وتولول.. رجل عجوز يجلس على ركبتيه يصرخ يهذي بكلمات تتدافع كالسيل لا يفهم منها سوى:

"ابني.. يا حبيبي يا ابني.. قلت لي سأسافر لكي أحضر نقودًا أعوضك بها عن الشقاء في حياتك انتظرتك سنين كي تعود ويوم عودتك دعوت أهل البلد كي نستقبلك وأمك ذبحت البط والحمام وانتظرنا تعود لكن.. آه.. آه.. منهم لله ضيعوك.. ضعت يا ابني قبل أن أفرح بك وتفرح بشبابك.. حسرة عليك يا ابني.. منهم لله.. حسبي الله ونعم الوكيل.. يا رب.. يا رب انتقم من كل ظالم.. انتقم من كل ظالم".

يبكي يوسف.. تختلط دموعه بدموع هذا الأب المكلوم.. يشق طريقه وسط الأحزان يصل إلى شاطئ البحر يتطلع إليه يود أن يسأله لماذا لا يرحم البؤساء.. يضرب كفًا بكف وهو يسأل صاحبه:

– وما العمل الآن؟ كيف أستعيد ابني؟

بعد لحظات من التفكير يرد طه:

– هل أنت متأكد بالفعل أنه طارق؟

يصرخ يوسف:

– طبعًا طارق هل سأتوه عن ولدي؟ ومن المفروض أنك الوحيد الذي لا تقول هذا الكلام لأنك تعرف طارق.

– هناك شبه بالفعل كبير.. لكن كيف وصل طارق إلى هذا الرجل؟ ولو كان هو طارق كان بلا شك سيتعرف عليك.

- لا تنسَ أنه خرج لتوه من محنـة لا يتحملـها جبـل.. آه يـا طـارق سافرت للسعودية وكدت تغرق في البحر.. تعرضت لأهوال لا يصدقها عقـل.. منه لله هاني.

- إذًا لن يحل هذا اللغز سوى هاني وصاحبه.

تنطلق زفرة من يوسف وهو يقول:

- فعلاً هاني عنده الحل لكن أين هو الآن؟ ليته يظهـر ويفـسر كيـف وصل طارق لهذا الرجـل.. ليتـه يظهـر الآن حتـى يغفـر خطيئتـه هـذه وأنـا خلاص سامحته المهم أن ظهوره سيكشف عن كل الحقائق.

ذهب يوسف إلى قسم شرطة سفاجا لكنه فشل في مقابلة أحد.. انشغل الجميع بتوابع الكارثة يستقبلون الجثث وينظمون تـدافع الأهـالي بحثًـا عـن ذويهم.

عـاد إلى القـاهرة ليتجـه إلى الـضابط المـسئول عـن ملـف خطـف ابنـه ليخبره بما حدث.

ارتسمت علامات الدهشة على وجه الضابط وهو يقول:

- كلامك خطير جدًا فكل الصحف تؤكد أن اسمه زيـاد حمـدي وأنـه كان بصحبة والده في السعودية وغرق والده في حادث العبـارة.. بينمـا كتبـت أنه نجا بجانب أن عمه بجواره الآن.. أي يـدرك تمامًـا أن هـذا ابـن أخيـه..

فهل نكذب هؤلاء كلهم؟!

فرت الدموع من يوسف وهو يقول:

- عندما شاهدت صورته في الجورنال عرفته وأيقنت أنه ابني قبل أن أذهب للمستشفى وأراه.

- وهل تعرف عليك؟

- كان الله في عونه.. لقد تعرض لمحنة وتجربة قاسية جدًا.. أعتقد أن الأيام لن تفلح في مداواة آثارها.. مسكين طارق.

- لكن كيف وصل ابنك لهذا الرجل وهو أصلاً مجرد عامل بناء بسيط؟ أي مستحيل أن يكون قد اشتراه من الخاطفين.. القاسم المشترك بين ابنك وهذا الطفل أن كلاً منهما يتيم الأم.

- هذا سؤال يجيب عنه هاني وشريكه.. لو نجحتم في القبض عليهما سنعرف الحقيقة كاملة وتتأكد من صدق كلامي.

- قريبًا جدًا سنقبض عليهما.. نحن نتتبع خطواتهما وعرفنا بعض الأماكن التي يترددان عليها بجانب أنني سأعمل تحرياتي حول هذا الطفل وتحريات عن والده الذي غرق وهل هناك علاقة كانت تجمعه بهاني وصديقه.

خرج يوسف من القسم يحمل جبالاً من الهموم والقلق على ابنه.. الآن

عرف مكانه.. لكن صعب المنال تحول إلى طفل آخر يحمل اسمًا غير اسمه وينسب لأب آخر.

انتهت معركة البحث عن ولده ليبدأ معركة جديدة كيف يثبت أنه ابنه من صلبه.. كيف يستعيده ويضمه بين أحضانه.

اتجه يوسف إلى زيارة شاهيناز في المستشفى.. وجدها بمفردها.. التقت نظراتهما.. بدا الحزن القاسم المشترك بينهما.. مرت لحظات يخيم عليها الصمت.. حاول أن يتكلم.. لكن لسانه لم يطاوعه.. سحبت نظراتها.. تظاهرت بانشغالها بوضع حاجاتها في الحقيبة استعدادًا للعودة للبيت.. اقترب منها أمسك بيدها ارتبكت شعرت كأن تيارًا كهربائيًا مر في جسدها.. أول مرة يمسك يدها.. تلاقت النظرات مرة ثانية.. حاول أن يبتسم وهو يقول:

"لقد وجدت طارق".

صُعقت فور سماعها الخبر.. شعرت بدوار خفيف تراجعت للوراء جلست على حافة السرير تصاعدت أنفاسها تجمد الدم في وجهها فقد عجزت عن إظهار الفرحة أو حتى رسم الحزن.

في تلك اللحظة دخل الأستاذ إبراهيم مندفعًا وهو يقول:

- هيا.. لقد انتهيت من إجراءات خروجك من المستشفى..

ابتسم عندما شاهد يوسف.. مد يده للترحيب.. سلام حار جعل

الأستاذ إبراهيم تسري في أوصاله مشاعر الغبطة.. أكملها يوسف عندما أخبره أنه عثر على طارق.. فبمجرد أن سمع ذلك حتى هلل يقول: "الحمد لله.. ألف مبروك يا ابني" مندفعًا نحوه كي يحتضنه لتتلاقى دموعهما.. بينما شاهيناز دموعها تكاد تفضحها من الفرحة التي تذوقتها بسماع هذا الخبر.

سأله الأستاذ إبراهيم:

- ولكن أين ابنك؟

أعطاه يوسف الجريدة لكي يطلع على الخبر وفي طريق العودة قص عليهما الحكاية.

لم تصدق والدة شاهيناز أن يوسف عاد معهما من المستشفى فراحت تعد العشاء بكل حماسة وسعادة.

كانت المفاجأة أن طلب يوسف من شاهيناز أن تجهز نفسها لكي تذهب معه إلى بيته ثم نظر لوالديها قائلاً:

- أرجوكما لو اتصل بكما هاني قولا له إنني سامحته لكن كل ما أطلبه منه أن يفسر لي لماذا ذهب ابني مع هذا الرجل وسافر به إلى السعودية.

فرد الأستاذ إبراهيم:

- طبعا أنا نفسي يتصل أو يظهر كي يكفر عن جريمته ولو كان ذلك سيدخله السجن فهو قد أخطأ ويستحق العقاب لكن عندي سؤالاً: هل طلب أن

تذهب شاهيناز معك نابع من قلبك أم مجرد مسألة إنسانية وعطف منك و...؟

فقاطعه يوسف:

- أنا لست صغيرًا.. وقراري هذا مقتنع به.. فأنتم ليس لكم ذنب فيما حُدث والحمد لله أنني وجدت ابني سليمًا وبالنسبة لعودته أعتقد أنها مسألة وقت.. كنت أتمنى أن تسير الأمور على خير وتدخل شاهيناز معي شقتنا بفستان الفرح.. لكن ليس كل إنسان يبحث عن السعادة سيجدها.. هناك من يتربصون بنا.. ماذا كان يفيد هاني عندما خطف ابني وأنا لم تكن بيني وبينه أي علاقة؟ لو أن كل إنسان تفرغ لحب الآخر لعدنا إلى الحياة الدنيا لكننا نعيش الآن في غابة.

بكت شاهيناز وهي تودع والديها.. كانت تحلم بالزفة وأن تدخل مع زوجها بيتهما بالفستان الأبيض.. فهذا أبسط الأحلام.. ومن حقها.. لكن شقيقها كما توقعت من قبل دهس الورود وقتل الفرحة في مهدها وسيظل شوكة في حياتها مع حبيبها.

في طريق العودة حاول يوسف أن يداعبها.. لكن الحزن كان أقوى منها.. رغم أن حلمها تحقق بأن اقترنت بحبيبها لكنها تفكر في الغد تخاف مما هو مقبل.. ماذا لو ظهر هاني؟ ماذا سيكون الموقف؟ وهل سيؤثر ذلك على علاقتها بيوسف؟ تنظر إليه تتعجب من قدرها.. قابلته صدفة في قسم

الشرطة.. تسلل الحب إليهما.. تمسكت به رغم ظروفه التعيسة.. لم تكن تدري أن أقرب الناس إليها سيهدم فرحتها.. أن هذا الطفل الذي جاء به هاني ومكث عندهما يومين هو ابن حبيبها.. تريد أن تفرح الآن تحقق حلمها لكن الآلام تحاصرها.. الخوف يضيع طعم السعادة.

أما يوسف فهو الآخر يفكر في طارق.. كيف تمكن استعادته؟ كيف يثبت أنه ابنه ويعيده إلى هويته؟ كيف يمكن علاجه من آثار المحنه القاسية التي تعرض لها؟ كيف يمحو هويته الزائفة؟ المشوار أصعب من مشوار البحث عنه.

دخلا الشقة.. تطلعت شاهيناز إلى الصور المعلقة على الحائط.. صورة طارق ثم صورة زوجته الراحلة ثم صور والديه.. تكاد الصور تلخص أنشودة الأشجان عند يوسف الذي قال لها:

– هذه الصور كانت تؤنس وحدتي.

هزت رأسها لتصل إلى آخر صورة.. ارتسمت علامات الدهشة على وجهها.. صورة المسجد الأقصى.. فقال يوسف:

– هذا هو الضائع الأكبر في حياتنا.

ابتسمت شاهيناز فصاح يوسف:

– أخيرًا انقشعت سحابة الحزن بوجودك معي.

– سعادتي أن أكون معك.. وهاهو حلمي تحقق.. أتمنى ألا يحدث شيء يفرقنا.

– وأنت سعادتي مهما كان فأنا أحبك.

تبادلا النظرات.. يكاد كل منهما لا يصدق أنه بجوار الآخر.. يودان أن يقولا للزمان قف نحن نريد أن نظل في تلك اللحظة تكفينا من الحياة كلها.. ما فائدة أن تدور وتأتي بأحداث ربما تؤثر علينا؟ فنحن لا نأمن مفاجآتك.. دعنا نرتشف من عبير السعادة.. اشتقنا إليها كثيرًا.. داهمتنا الأشجان والهموم.. تباعدت المسافات.. تأرجحت نسمات الربيع.. اشتدت ظلمة الليل.. توحشت رياح اليأس.. كنا نظن أن الحياة باتت عقيمة لا تنجب سوى الأشجان وبراكين الهموم لكن بدأت أخيرًا أمطار السعادة تهطل.. لكن نخشى أن تنتهي بسرعة لتعود صحراء الألم تطوقنا.. بين الأمل والرجاء نُعطي لأنفسنا الصبر لغد تعود فيه مروج الأحلام تداعبنا.

ناما في تلك الليلة نومًا لم يتذوقا مثله منذ فترة طويلة.. فطيور السعادة ترفرف حولهما لا تدع حزنًا ولا ألمًا يتسلل إليهما.. لكنهما استيقظا مبكرًا كل منهما يفرك في عينيه ربما يكون الأمس مجرد حلم لكنهما بجوار بعضهما يضحكان يتعاهدان على مواصلة مشوار الحب مهما كانت المتاعب.. يتمنى كل منهما لو ظلا في تلك الحجرة.. لا يريدان شيئًا من العالم الخارجي سيصنعان السعادة بأيديهما.. لكن فجأة يرن جرس الباب.. يذهب يوسف

ليفتح الباب ليجد طه الذي دخل مندفعا وهو يقول:

- جئت لكي نفطر سويًا.

لكن يوسف كان مرتبكاً وهو يشير إلى حجرة النوم فسأله طه:

- هل معك أحد؟!

- شاهيناز.

فتح طه فاه من المفاجأة فأكمل يوسف:

- بعد أن تركتك ذهبت للمستشفى وجدتها تستعد لمغادرتها.. هي ليس لها ذنب.

- لكن ما الذي غير رأيك بهذه السرعة؟

- ما رأيته بالأمس من مشاهد مؤثرة.. الناس تبكي تولول.. هل يمكن لأحد أن ينسى منظر الأب أمام المستشفى يبكي وينتحب على فقد ابنه وغرقه؟ من يشاهد مصيبة الآخرين تهُن عليه مصيبته ولا بد أن أحمد الله على أن وجدت ابني ونجاه من تلك الكارثة.. لقد غرق الآلاف ولم ينجُ سوى عدد يقل عن عشرة من بينهم ابني.. فهذا فضل كبير ولولا نجاته ما كنت عرفت له سبيلاً وسأظل أبحث عن وهم.. وإذا كنت قد تعرضت لظلم فيجب ألا أظلم أبرياء.

- هل هناك أمل في العثور على هاني؟

– إن شاء الله.

– إذًا أتركك الآن وسأحضر الساعة الواحدة لكي نذهب للأستاذ صلاح عامر الصحفي.. هل تتذكره؟ لقد اتصلت به وحدثته عن طارق فطلب أن نزوره ونحضر عددًا من الصور لطارق لكي ينشرها مع الموضوع.

– بجد؟! هذه خطوة جيدة لا بد أن نتحرك في الاتجاهات كلها.

لقاء مثمر جمعهما بهذا الصحفي الذي فرح بالموضوع واعتبره سبقًا صحفيًا.. وبالفعل يتم نشر الموضوع ليصبح حديث الناس.. مما جعل عم الطفل يستشيط غضبًا مما جعله يسرع إلى قسم الشرطة ويصر على عمل محضر عدم تعرض للطفل من جانب يوسف الذي تم استدعاؤه بالفعل لأخذ أقواله.. حاول خلالها يوسف أن يشرح للضابط بالتفصيل لكن الضابط تتعلل بمشغولياته.

كثير من الصحف والمجلات اتصلت بيوسف لتضم حكايته إلى مآسي العبارة في الوقت الذي أعلن فيه أكثر من أمير عربي تقديمه لمساعدات مالية عاجلة للطفل والإعلان عن قدوم بروفسير أجنبي خبير في الطب النفسي من أجل علاج الطفل وإعطائه برنامجًا نفسيًا مكثفًا من أجل إخراجه من حالته النفسية السيئة ومعالجة آثار الصدمة عليه.

12

مع تطور الأحداث بدأ يوسف يتخلص من همومه وبدأت الآمال تداعبه في ظل المساندة التي يلقاها من زوجته شاهيناز وجهدها الدءوب من أجل إخراجه من أحزانه وزرع البسمة على وجهه.. في الوقت نفسه كان والدها على اتصال دائم به وتحفيزه على مواصلة المشوار.. تمضي الأيام على أمل ظهور هاني أو شريكه.. يمضي يومه في متابعة أخبار ابنه.. يشاهده من خلال صفحات الجرائد.. لكن الأستاذ إبراهيم قدمه إلى محامٍ صديقه حيث نصحه المحامي بضرورة تقديم بلاغ للنائب العام بفتح قضية الطفل للتحقيق ليتم تحريك القضية وإجراء تحقيقات عاجلة حول الطفل.

لكن في اليوم التالي اتصل به الضابط يهنئه بنجاحهم في القبض على علاء صديق هاني.

لم يصدق يوسف كلامه.. صرخ في التليفون طالبًا منه أن يعيد على مسامعه ما ذكره.

ليضحك الضابط مؤكدًا صدق كلامه لتسقط السماعة من يده ليتهاوى

على الكرسي ورأسه للخلف كأنه أغشي عليه.. تسرع نحوه شاهيناز تسأله في هلع عما حدث.. لكنه تاه عقله وبدت عيناه زائغتين فأمسكت بيده تهزه تنادي عليه لينتبه وبدأ يستعيد ما حدث ثم انتفض مندفعًا نحو الغرفة يخلع ملابسه قائلاً: لقد قبضوا على علاء.. لينقبض قلبها.. فقد تذكرت شقيقها هاني لكنها أخفت مشاعرها وقالت وهي تعينه على ارتداء ثيابه:

– الحمد لله أعتقد أن الحقيقة كلها ستظهر مع علاء.

فور خروجه اتصلت بأبيها تخبره بما حدث.. الذي اتصل فورًا بالمحامي بينما اتصل يوسف وهو في طريقه بصديقه طه ليلتقي الثلاثة ومعهم المحامي.

استقبلهم الضابط بسعادة وهو يقول:

– لقد وردت إلينا معلومات عن تردد علاء على قريته في بني سويف.. لهذا أعددنا له كمينًا حتى وقع في أيدينا.

فصاح يوسف:

– أين هو؟

نادى الضابط على العسكري ليحضر علاء من الحجز.. لحظات عصيبة تمر لا يكاد يوسف يستقر على حال حتى دخل علاء منكس الرأس دموعه وأمارات الحزن تسبقه.. فبمجرد أن رآه يوسف حتى اندفع نحوه ينقض

عليه ليمسكه من تلابيب ثيابه صارخًا:

- يا حرامي.. يا حرامي.

فطلب الضابط منه الهدوء وترك علاء.. بينما اندفع طه يجذب يوسف لكي يجلس.. وقد تراجع للوراء وهو يقول:

- نعم هذا هو الذي خطف طارق.. كان يجلس خلف هاني على الفيسبا وهو الذي جذب طارق من يدي.

طلب الضابط من علاء أن يتقدم.. ففعل.. ثم سأله:

- هل الطفل الموجود في مستشفى سفاجا هو ابن المهندس يوسف؟

فأومأ رأسه بالموافقة.. فصرخ يوسف وهلل واندفع نحو مكتب الضابط يقول للحاضرين:

- ألم أقل لكم؟ هل يعقل ألا يتعرف أب على فلذة كبده؟

ثم انخرط في بكاء شديد.. فقال الأستاذ إبراهيم متأثرًا:

- وأين هاني يا علاء؟ منك لله ضيعته معك.

فرفع علاء رأسه ليقول خجلاً:

- لا أعرف أين ذهب.. كل منا هرب بطريقته.. كما أن هاني هو الذي خطط لخطف الطفل.

فصرخ يوسف صرخة مدوية في وجه علاء:

– لماذا ابني بالذات؟

فانفعل الضابط طالبًا من يوسف الهدوء ثم وجه حديثه لعلاء قائلاً:

– إذًا احكِ لنا بالتفصيل سبب خطف الطفل وكيف أصبح ابنًا لرجل آخر.

نظر علاء لوجوه الحاضرين كأنه يطلب منهم السماح وجسده يرتعش قائلاً:

– سوف أحكي لكم القصة منذ بدايتها..

عندما جئت من قريتي منذ بضع سنوات اشتغلت في السنترال الذي من خلاله تعرفت على هاني.. كان شابًا طموحًا يبحث عن الثراء السريع.. كان يتاجر في كروت شحن أجهزة التليفونات المحمولة وكنت أشتري منه.. توطدت صداقتنا.. كان يسهر معي كل ليلة في السنترال نتحدث في أمور شتى حتى علم أنني ورثت مبلغًا من المال بعد وفاة والدي.. أخبرته أنني أريد أن أفتح سنترالاً خاصًا بي لكنه أخبرني أنه يعرف أحد الأشخاص وهو تاجر كبير يجمع النقود من الناس يتاجر فيها ويعطيهم فوائد كبيرة جدًا.. بصراحة أغراني.. وبعد إلحاح منه أعطيته كل ما أملك بعد أن شعرت أنني سأصبح من خلاله مليونيرًا خلال سنة مؤكدًا لي أنه يضمن هذا الرجل.. مرت شهور واختفى هذا الرجل بالملايين التي جمعها من الناس ثم علمنا أنه هرب خارج البلاد.. رفضت هذا الكلام وقلت لهاني إنه المسئول عن ضياع أموالي

ولا بد أن يعيدها لي.. فرفض ودب خلاف بيننا لتنقطع صلتي به.. لكنه عاد بعد شهور يقول لي:

– اسمع يا علاء.. أنا والدي وعدني أنه سيعطيني مبلغًا كبيرًا كي أفتتح به سنترالاً وإن شاء الله سوف أكتب نصفه باسمك تعويضًا لك عن نقودك التي لهفها النصاب رغم أنني ليس لي ذنب.

أقنعني بكلامه وتواصلت علاقتنا.. على أمل أن يعطيه الأستاذ إبراهيم المال لكي نفتتح هذا المشروع.. في الوقت نفسه كانت هناك سيدة عجوز أنهكها المرض تتردد عليَّ في السنترال بصحبة طفل يشبه الطفل الذي قمنا بخطفه فيما بعد.. كانت هذه السيدة تتردد عليَّ كي تتصل بزوج ابنتها الذي يعمل في السعودية لكي يحضر ليأخذ طفله بعد وفاة ابنتها التي هي أم الطفل.. كانت دائمة الشكوى من شقاوة الطفل وأنها لم تعد قادرة عليه فهي مريضة بالفشل الكلوي.. سألتها في إحدى هذه المرات:

– أين أقاربك يا حاجة؟

نظرت إليه العجوز نظرة انكسار وحزن شديد بدموع حارة:

– نحن في زمن يا ولدي أصبح الأقارب غرباء.. كل يجري في الحياة شغلته الدنيا فنسي حتى نفسه.. أنا سيدة عجوز لم يكن لي سوى ابنة وحيدة توفي زوجي وهي صغيرة عكفت على تربيتها حتى تزوجت.. وبعد شهرين من الزواج سافر زوجها للسعودية بحثًا عن لقمة العيش تركها وهي حامل في

هذا الطفل ماتت وهي تلده عاد زوجها أيامًا معدودة طبع قبلة على رضيعه ثم رمى لي مالاً وترك الطفل وسافر دون أن يسأل عن مصيره.. تكفلت برعايته.. لكن الطفل الآن كبر وأصبح شقيًا جدًا لا أقدر عليه وأنا سيدة مريضة أذهب للمستشفى مرتين أسبوعيًا ومات أشقائي.. هم كانوا يسألون عني وبيننا مودة لكن أبناءهم ليس لديهم مصلحة لكي يسألوا عن عجوز مثلي لا تملك شيئًا.

- والطفل أليس له أقارب؟

- له عم وحيد تاجر مواد بناء ما شاء الله له شادر في حلوان متزوج من امرأتين ولم يرزقه الله بالذرية ذهبت إليه قابلني وقابل ابن شقيقه بجفاء شديد.. وضع في يدي جنيهات ظنًا منه أنني جئت أطلب مساعدة.. عرضت عليه أن يأخذ هذا اليتيم يعتبره ابنا له خاصة أنه محروم من الأطفال نظر لي بتبرم ثم وعدني أنه خلال أيام سيحضر ليأخذه.. لكن مرت شهور اتصلت به اعتذر بحجة أن كل واحدة من زوجتيه رفضت استضافة الطفل.

- ربنا يكرمك يا حاجة كله بثوابه.

غلبت مع والده أن يأتي ويأخذ ابنه وبعد أن يعدني يعود بحجة أنه فشل في الحصول على إجازة.. كما أنه من الصعب أن يحضر الطفل معه فهو يعمل في الصحراء في أعمال شاقة.

في أحد الأيام حضرت السيدة العجوز إلى السنترال لا تقوى على السير.. رغم الإعياء الشديد فإنها تقبض على يد الطفل الذي يحاول أن يفلت

منها وبالفعل نجح ليندفع يجذب سلك التليفون فيضحك علاء لكن السيدة غاضبة قالت:

- شقاوته ليست لها حدود.. المشكلة عندما أذهب للغسيل في المستشفى لا يترك أي شيء إلا ويعبث فيه.. يجري في المستشفى يلعب في هذا وذاك لدرجة أنهم طلبوا مني ألا أحضره معي مرة ثانية بسبب الهرج الذي يحدثه.

- فعلا الله يكون في عونك.

- ممكن أطلب منك طلبًا؟

- تحت أمرك يا حاجة.

- ممكن تأخذ الطفل يجلس معك في السنترال حتى أعود من المستشفى؟

أطرق علاء هنيهة ثم قال:

- حاضر يا حاجة.

اعتادت العجوز كلما ذهبت إلى المستشفى أن تبقي الطفل عند علاء حتى جاء يوم تأخرت فيه على غير العادة ولم تحضر لأخذ الطفل.. ظل علاء ينتظر حضورها حتى يتخلص من الطفل وشقاوته الشديدة التي تجعل علاء لا يهنأ بلحظة هدوء.

جاء المساء ولم تحضر السيدة.. الذي حضر هو هاني فأخذه علاء بصحبة الطفل إلى مسكن العجوز طرقوا الباب بلا مجيب حتى خرج الجار سألوه عنها فرد الرجل منفعلاً:

- أنتم أقاربها؟

رد علاء:

- يعني..

فصاح الرجل في غيظ:

- ماتت وقمنا بدفنها في مقابر الصدقة.

وقع الخبر كالصاعقة على علاء وهاني يتبادلان نظرات الدهشة التي تزداد كلما وقع نظرهما على الطفل.

بينما أكمل الرجل حديثه:

- لقد فوجئت باتصال من المستشفى يخبرني بوفاتها.. كانت المرحومة مسجلة رقم تليفوني عندهم.. بحثت عن أقارب لها لكي يتسلموا الجثة ويقوموا بدفنها لكن بلا جدوى.

عاد علاء إلى السنترال يضرب كفاً بكف ومعه هاني والطفل.. يتساءل عن الحل وما مصير هذا الطفل.. قال هاني:

- مشكلة ورطت نفسك فيها.

انفعل علاء:

- أنا كان هدفي الخير.. لم أكن أدري أن الأمور ستصل لذلك.

- إذًا اهدأ ودعنا نفكر.

في تلك اللحظة كان الطفل يعبث في التليفون فجذب علاء يديه بعنف قائلاً:

- كفى.. شقاوتك هي سبب ما نحن فيه الآن.

فضحك هاني:

- اعتبره رزقًا وجاء إليك.

- الله الغني.

- ربنا يعينك.. سلام.

لكن علاء اعترض طريقه يرجوه ألا يتركه في تلك الورطة:

- أرجوك فكر معي في حل.. كفاية ورطة ضياع نقودي بسببك.

- إذًا أنا على استعداد لحل مشكلتك هذه مقابل ألا تطالبني بنقودك الآن.

ظهر التبرم على وجه علاء وهو يقول:

- حاضر.

- اسمع.. أعتقد أنك تحتفظ برقم تليفون والد هذا الطفل.

فصاح علاء:

- نعم لقد احتفظت بالرقم عندي وكنت كلما حضرت أطلبه لها تلقائيًا.

- إذًا نتصل به.

أسرع علاء يفتش في كراسة كانت أمامه لحظات ثم صاح معلنًا فرحته بالعثور على الرقم ثم جذب التليفون يطلب الرقم في عجالة فرد عليه والد الطفل فأخبره بالوفاة وضرورة حضوره لأخذ الطفل.. لكن والد الطفل طلب منه أن يذهب إلى شقيقه في حلوان ويسلمه الطفل فكتب علاء العنوان ثم وضع السماعة ليلتقط نفسًا عميقًا.

في الصباح استقل المترو بصحبة الطفل ومعهما هاني.. حاول علاء أن ينام بعد أن قضى ليلة لم يرَ فيها النوم بسبب شقاوة الطفل.

بدت حلوان كعادتها عروسًا في أبهى زينتها.. لكن الاستمتاع بها لم يدم طويلاً فقد ركبا ميكروباص داخليا وصل بهما إلى إحدى المناطق العشوائية المنتشرة حول حلوان.

كان المعلم عمران يجلس في صدارة شادره يدخن بنهم الشيشة بينما العمال من حوله منهمكون في تحميل السيارات بالحديد والأسمنت.. ظهر

الضيق على وجهه عندما دخل عليه ابن شقيقه.. لم تتغير ملامحه الصارمة عندما سمع بخبر وفاة جدة الطفل.. بل زاد ضيقه عندما أخبره علاء بما دار بينه وبين شقيقه حيث صاح غاضبًا:

- ولماذا لا يحضر أبوه ويأخذه بدلاً من تركه هكذا؟

فرد هاني مبتسمًا:

- البركة في حضرتك يا معلم.

- المشكلة في زواجي من امرأتين لو ذهبت به لإحداهما لقالت اذهب به إلى الأخرى هي ليست أقل مني.

قال علاء:

- لقد وعدنا شقيق حضرتك أنه سيعود في أقرب وقت لأخذه.

لكن عمران أكمل حديثه متجاهلاً ما ذكره علاء:

- المشكلة كانت سيتم حلها لو كنت متزوجًا من امرأة واحدة فقط لأني كنت سأفرض عليها الطفل.

- وما العمل إذًا؟

قالها علاء بتوتر فرد عمران ببرود:

- اتصلا به ليعود ويأخذ ابنه.

فرد علاء على الفور:

– إذًا يبقى عندك حتى نتصل به ويعود ليأخذه.. أنت أقرب الناس له الآن.

فرد عمران غاضبًا:

– قلت لكما السبب.. فليبقَ معكما حتى عودة أبيه من السعودية.

عاد علاء وهاني بخفي حنين من عند عم الطفل ليتصلا بوالده الذي تضايق من موقف شقيقه قائلاً:

– فاقد الشيء لا يعطيه.. حرمه الله من نعمة الأبوة فلا يدرك قيمة فلذة الكبد.

ثم وعده بأنه سيحضر بعد خمسة أيام لأخذ الطفل الذي بقي بحوزة علاء يتجرع من شقاوته لدرجة جعلته يطرده من السنترال ويأمره باللعب في الشارع حتى يستريح من ضوضائه.

في آخر الليل حضر هاني ومعه العشاء كعادته كل ليلة يتناوله مع علاء في السنترال الذي خرج ينادي على الطفل لكي يتناول معهما العشاء لكنه لم يجده.. مسح الحارة والحواري المحيطة بحثًا عن الطفل بلا أثر له.. جرى كالمجنون يسأل كل من يقابله عن الطفل لكن بلا إجابة توصله لمراده.. ركب الفيسبا خلف صاحبه يبحثان عن الطفل يناديان عليه بلا جدوى.. اختفى دون أن يعرف أحد مكانه.. القلق استبد بعلاء صار كالأم الثكلى يبكي

ضياع الطفل يدعو الله أن يعود.. لم ينَم ليلته.. ظل في الشارع يتلمس عودته.. الأفكار تطارده.. يتخيل مشهد عودة والد الطفل يتساءل.. ماذا سيقول له؟ ضاع.. وما رد فعل الأب؟ يدعو الله أن ينتقم من عمه الذي رفض استضافته وكان بمقدوره حل هذا الإشكال.. يعض أنامله ليته ما طرد الطفل إلى الشارع وبقي تحت نظره.. هل خطفه أحد.. أم أن شقاوته قادته إلى أن يسير في الشوارع حتى ضل الطريق وعجز عن العودة؟ رأسه يكاد ينفجر يتذكر ملامح الطفل.. مسكين هذا الطفل حياته سلسلة من الآلام ماتت أمه وهو في المهد.. تركه أبوه مفضلاً السفر على رعايته.. ماتت جدته التي تكفلت به.. لفظه عمه.. ليبقى وحيدًا.. وهاهو الآن مجهول المكان.. لا نعرف أين استقر به الحال.. هل ضاع للأبد؟ عندما سيعود أبوه بعد أيام لتسلمه.. هل سيقول له الأمانة ضاعت وبدلا من كلمات الشكر والتقدير لما فعله سيكون السخط وقائمة عريضة من الاتهامات ربما تصل للشرطة ليجد نفسه متهمًا ولن يرحمه أحد ليصبح الجاني بدلاً من أن يكون بطل الشهامة والتضحية؟

اليوم التالي تغطي السماء غيوم لتغيب الشمس.. لا أمل في محو تلك الكآبة.. ترك علاء السنترال وخرج يبحث عن الطفل.. أنهكه السير والبحث.. فكر في إبلاغ البوليس.. لكنه خاف من والد الطفل يدفعه أمل في العثور عليه.. أنهكه السير والبحث بلا جدوى.

عاد آخر الليل إلى السنترال.. لحظات وحضر هاني الذي قال له:

- المشكلة عندما يعود والد الطفل.

- أرجوك ابحث لي عن حل.

- ليس هناك حل سوى العثور على الطفل.

- وماذا لو لم نعثر عليه؟

- لا أدري رد فعل والد الطفل.. لكن ربما يكون رده عنيفاً.. إنه ابنه مهما كان.

- ربما يبلغ الشرطة.

- احتمال وارد.

فوضع علاء رأسه بين يديه يتأوه:

- آه.. رحت في داهية.. أرجوك يا هاني ابحث لي عن أي حل.. اسمع.. لو نجحت في حل هذه المشكلة سأتنازل عن مالي ولن أطالبك به.

ابتسم هاني وهو يقول:

- دعني الليلة أفكر لك في مخرج في حالة عدم العثور على الطفل.

في اليوم التالي حضر هاني فسأله علاء بلهفة:

- هل فكرت في حل؟

ابتسم هاني قائلاً:

- هناك حل وحيد لا يوجد سواه.

فرد علاء بسرعة:

- الحقني به.

- أن نسلمه طفلاً آخر.

صمت هاني مندهشًا يفكر ثم قال:

- كيف؟

- نحاول أن نعثر على أي طفل ونسلمه له على أنه طفله.. ألم تقل لي إنه لم يشاهد طفله سوى مرة وحيدة وهو رضيع؟ إذًا هو لا يعرف بالضبط شكل ابنه.

- ومن أين لنا بطفل آخر؟

- بصراحة هذا ما يحيرني.. لو تعرف أحدًا ممن يستغلون أطفال الشوارع نشتري منه طفلاً.

لكن علاء أشاح بيده قائلاً باستنكار:

- كلامك غريب وغير منطقي.

- أنت حر.. لكن ماذا ستفعل عندما يحضر والد الطفل؟

فرد علاء محاولاً أن يمنع نفسه من البكاء:

- هذا ما يخيفني.

- إذًا اسمع كلامي.. ما رأيك لو خطفنا طفلاً؟

فصاح علاء محتدًا:

- أنت أكيد مجنون.. لكي نخرج أنفسنا من ورطة نقع في جريمة.

- ليس أمامك سوى ذلك.

- لا.. أنا أفضل مواجهة والد الطفل وإخباره بالحقيقة بدلاً من ارتكاب حماقة مثل هذه لا ندري عواقبها فيما بعد.

- أنت حر لكن أنا أريد فقط مساعدتك.

- أنا لا أمانع ولكن بالمعقول.

- اترك لي التخطيط وتأكد أننا سننفذ خطتنا دون أن يكتشف أمرنا ولا تنسَ أن الرجل سيسافر بالطفل فورًا للسعودية.. أي لا مجال أن يصل أهل الطفل الذي سنخطفه إليه.

- وأين هذا الطفل الذي سنخطفه؟

- نخرج ورزقنا على الله.

- وماذا لو اكتشف أمرنا وتكون نهايتنا خلف القضبان ليضيع مستقبلنا؟

- قلت لك اترك لي الأمر كله.

- لكن...

فقاطعه هاني:

- قلت لك اطمئن.

- وما ذنب الطفل الذي سنخطفه؟ وما ذنب أهله أن يحرموا منه؟

- بسبب إهمالك أنت ضاع الطفل ولن يتم حل هذه المشكلة إلا كما قلت لك.

ليكن.. اسمع عندما ننجح في خطف الطفل سوف يبقى معي عندنا في الشقة مع أسرتي حتى لا يضيع هو الآخر.

- وماذا ستقول لهم في البيت عندك؟

- هذه أمور تافهة.. من السهل إيجاد أي مبرر.

- لكن ربما لا نستطيع السيطرة على الطفل.. وبكاؤه يفضح فعلتنا.

- الطفل عمره ثلاث سنوات ومن السهل خداعه وإقناعه.

- يا خوفي من نتيجة ما سنفعله.

- قلت لك أنت حر.. أنا ممكن كنت ببساطة تركتك تواجه مصيرك وحدك لكن لأني أحبك قررت التضحية وتعريض حياتي للخطر.

- ربنا يستر.. المسألة ليست هينة.

- على فكرة خوفك هذا ممكن يضيعنا ويفضحنا.

- قلت لك الأمر ليس هينًا أعتقد أن سرقة بنك أهون مما سنفعله.. ثم قل لي ماذا لو ظهر بعد ذلك الطفل الحقيقي؟

- الأفضل أن تسأل ماذا يحدث عندما يعود الأب من سفره ويسألك عن ابنه فلذة كبده؟ ماذا سيكون ردك؟

فعض علاء أنامله:

- آه.. أنا كنت في حالي.. من الذي شبكني في هذه القصة؟

- قدرك ولا بد من معالجة خطئك.

رغم معارضة علاء فإنه لم يجد سوى هذا الحل سعيا نحو التخلص من هذه الورطة حاول أن يستعير شيئًا من ثقة صديقه لكن خوفه غلبه فأعطى زمامه لصاحبه.

ثم بدأ التفكير في الطفل الذي سيتم خطفه.. ذهبا لحديقة الحيوان.. حاولا استدراج بعض الأطفال لكن في اللحظات الأخيرة كان الفشل من نصيبهما.. ذهبا إلى الملاهي يلتمسان طفلاً في الثالثة من عمره تتشابه ملامحه مع ملامح الطفل الضائع لكن بلا جدوى.

مر يومان وبقي مثلهما على عودة والد الطفل.. استبد القلق بعلاء..

اتصل بصديقه طالبًا منه سرعة التنفيذ حتى لا يسرقهما الوقت.

خرجا إلى الشارع.. علاء يركب الفيسبا خلف صاحبه يتفحصان الوجوه بحثًا عن طفل.

ليل الشتاء البارد جعل الشوارع خالية من مريديها.. لكن الأمل لم يخفت بداخلهما حتى وصلا إلى باب اللوق.. في أحد الشوارع الجانبية شاهدا شخصًا يسحب طفلاً ملامحه تؤكد أنه ابن الثالثة وقفا يتفحصانه لمعت نظراتهما التي وافقت على خطفه واستغلال خلو الشارع.. لحظة خاطفة كان الطفل بين أيديهما.. يسرع به هاني إلى منزله يختلق قصة صديقه الوهمية الذي ذهب إلى الصعيد لإحضار زوجته الغاضبة وترضيتها تاركًا الطفل مع هاني خوفًا من اعتراض أهل زوجته واحتجازهم للطفل لو أخذه معه.. قصة صدقها والداه بينما احتضنت شقيقته الطفل.

تمر الأيام الباقية ويحضر حمدي والد الطفل الأصلي من السعودية.. حضر إلى السنترال.. استقبال حار من علاء وهاني بينما حمدي يوجه لهما كلمات الشكر.

تدفقت الدموع من عينيه عندما أحضر هاني الطفل احتضنه على اعتبار أنه ابنه.. لكن الطفل كان يرتعد خوفًا.. صرخ مرددًا: "بابا يوسف.. أنا عاوز بابا يوسف".

نظر هاني للطفل نظرة وعيد.. مما جعل صراخ الطفل يزيد.. اندهش

حمدي يسأل: من يوسف هذا؟ ارتبك علاء عاجزًا عن إيجاد مبرر لكلام الطفل.. لكن هاني تدارك الأمر قائلاً:

- يوسف هذا شخص كان يعطف على الطفل وجدته كثيرًا ما كان يصطحبه للنزهة وشراء الحلوى فارتبط به ابنك لدرجة أنه كان يناديه بابا.

ظهر الأسى على وجه حمدي قائلاً:

- هذا هو خطئي أنني تركت الطفل بعد وفاة أمه.. المشكلة أنه كان من الصعب أن أحضره إلى السعودية.

فرد هاني:

- نحن لم نتصل بك إلا بعد رفض أخيك ضم ابنك إليه.

قال حمدي بمرارة:

- مهما قلت من كلمات الشكر فلن أوفي حقكما وأنتما غريبان عن ابني بينما عمه أقرب الناس له بعدي يرفض استقباله والعطف على هذا اليتيم.. خاصة أنه محروم من نعمة البنين.. لكن جشع المال أعمى بصيرته.. كل همه المكسب.. تصورا أن سبب سفري للعمل في السعودية الخلافات بيننا.. كنت أعمل معه في تجارة الحديد والأسمنت وكان أسلوبه في التجارة يقوم على الاحتكار والمزايدة والمضاربة على الأسعار.. بينما أرفض أنا تلك الأساليب فتركته وتحملت المشقة.

رد علاء:

- طبعا سوف تسافر فورًا للسعودية ومعك ابنك؟

حاول حمدي أن يحتضن الطفل الذي تخلص منه فقال:

- إن شاء الله رغم أنني أتمنى الحصول على إجازة طويلة لكي أتزوج فأنا في حاجة لمن يرعى زياد ويهتم به.. لكن أعطوني إجازة أيامًا قليلة.. عمومًا سوف أعود لمصر في أقرب فرصة للاستقرار وكفى غربة وبهدلة.. لكن لي أمنية قبل أن أمشي الآن.. مثلما شكرتكما أريد أيضًا مقابلة هذا الشخص الذي عطف على زياد واهتم به.. أظن اسمه يوسف كما قال زياد.

نظر علاء ويوسف لبعضهما كل يفتح فاه من الدهشة وبدا علاء أكثر ارتباكًا فرمقه هاني بنظرة غضب وهو يقول:

- لا شكر على واجب ابنك كنا نعتبره أخًا أصغر لنا وعمومًا يوسف مسافر الآن وعندما يعود سأبلغه سلامك وشكرك له.

التقط علاء أنفاسه:

- آه.. فعلاً.. فعلاً يوسف سافر.

13

بمجرد أن انتهى علاء من سرد القصة الكاملة وراء خطف طارق حتى قام يوسف مندفعا نحو الضابط قائلاً:

– سمعت يا حضرة الضابط؟ ألم أقل لك إن هذا ابني؟

ثم نظر لعلاء نظرة أسى:

– منكما لله ضيعتما ابني وجعلتماني أعيش في عذاب.. حرمتماني منه ونسبتماه لشخص آخر.. ما ذنبي وذنب طارق في ذلك؟

قال الأستاذ إبراهيم موجهًا حديثه لعلاء:

– ضيعت هاني معك.. كان يومًا أسود عندما عرفك.

قال الضابط:

– أرجوكم هدوء.

لكن يوسف قال محتدًا:

– الآن من حقي أن أستعيد ابني.

قال الضابط:

- لكن هناك إجراءات لا بد من اتخاذها أولاً.. سأحول الموضوع للنيابة وهي التي تقرر.

خرج يوسف من القسم إلى النائب العام.. حيث قدم طلبًا بضرورة استعادة طفله بناء على شهادة الخاطف.

رغم الانفراجة التي حدثت فإن يوسف عاد مهمومًا حزينًا.. فقالت شاهيناز:

- اصبر بقيت خطوات قليلة ويعود طارق بين أحضانك.

تنهد يوسف من أعماقه:

- حتى لو عاد.. هناك شرخ في حياته سيظل يطارده.. لقد مر بتجربة قاسية.

- عندما يعود إن شاء الله تستطيع بحنانك وعطفك أن تعوضه وتمحو أي شيء يعكر صفو حياته.

- المشكلة في شخص اسمه عمران شقيق من كان طفلي معه.. الآن تذكر أن له ابن أخ على الرغم من أنه رفض احتضانه والعطف عليه.

- أنا لي رأي.. على فكرة هذا الرجل عينه على التعويضات المالية التي انهالت على الطفل.. الطمع أعماه.

– بعد تلك الكارثة أعتقد أن العاقل لا بد أن يدرك أن الدنيا لا تساوي هذا التكالب كله.. والمال لا يحمي أحدًا.

– لكن الجشع مارد عندما يسيطر على الإنسان يحوله إلى وحش كاسر.

* * *

عندما علم هاني بخبر القبض على صديقه انتابه خوف شديد فقام على الفور بالاتصال بوالدته التي انهمرت دموعها عندما سمعت صوته تعاتبه على ما فعله واختفائه.

وعندما عاد الأستاذ إبراهيم وجدها حزينة شاردة لم تهتم بكلامه عن علاء واعترافاته فسألها عما بها.. نظرت له نظرة طويلة ثم قالت:

– هاني اتصل بي اليوم.

فرد غاضبًا:

– ماذا يريد؟ لماذا لم تطلبي منه العودة وتسليم نفسه حتى يعترف ويكون هذا في صالح يوسف؟

بكت وهي تقول:

– وهل ستستريح عندما يدخل ابنك السجن؟

– من ارتكب خطأ فلا بد أن ينال عقابه.. وما فعله ابنك يستحق

السجن.

– لكن ما فائدة حبسه والطفل سيعود؟

– ومن يعوض يوسف عن العذاب الذي عاشه؟ ومن يعوض الطفل عن حرمانه من أبيه الحقيقي والموت الذي رآه بعينه؟

– لكن هاني طلب أن نسامحه وأنه تاب وسيبدأ من جديد.

– لا بد أن ينال جزاءه أولاً.

– لكنه يرجو منك شيئًا.

– ماذا يريد؟

– أخشى إن قلت لك تحاربه.

فانفعل أكثر وهو يقول:

– تكلمي.. ماذا يريد؟

– عدني ألا تقف عقبة في طريقه.

– هو ليس لديه سوى أن يسلم نفسه.

– قلت لك إنه قرر التوبة والهجرة وترك البلد كله.

ظهرت الدهشة على وجهه طالبًا منها التوضيح.

– سوف يسافر سرًا للعمل في إيطاليا مثل كثير من الشباب.

انهمرت الدموع منه ثم قال بعد تفكير:

- كم مرة نصحته لكنه ضيع نفسه ويأتي اليوم الذي يصبح فيه ابني مطاردًا.. منذ صغره وأنا أتمنى أن تمر الأيام سراعًا حتى أفرح به وأفتخر بنجاحاته وأزوجه وألاعب أبناءه لكن يا ليت الأيام ظلت ساكنة.

علا نواح الأم ليشاركها البكاء.. لكنه بعد لحظات مسح دموعه وقال محاولاً أن يستعيد تماسكه:

- لكن كيف سيهرب؟ ومن أين له بالمال اللازم للسفر؟

- لديه أمل في أن تسامحه وتعفو عنه وتعطيه المال اللازم للسفر.

فأشاح بيده غاضبًا:

- لا.. لن أساعده في أي شيء.. إذا كان يريد أن أسامحه فعلاً فليسلم نفسه.. هذا هو ما عندي.

علا بكاؤها وهي تقول:

- وهل يهون عليك فلذة كبدك؟

عادت الدموع تفلت منه:

- هو السبب.. هو الذي وضع نفسه في هذا المأزق.. لو كان إنسانًا ناجحًا لكنت فديته بروحي ولم أبخل عليه بأي شيء.. لكن للأسف خاب أملي فيه.. منه لله.. منه لله.

ثم دخل غرفته باكيًا فدخلت خلفه قائلة:

- أنا لن أتخلى عنه حبسه لن يفيد بشيء لأنّ الطفل عرفنا مكانه وقريبًا سيعود لأبيه.. الأموال التي ورثتها عن والدي -يرحمه الله- كما تعلم وضعتها في البنك من أجله عندما يكبر ويحتاج لها وقد حان الوقت لإعطائها له.

- أنت حرة.. لكن اعلمي أنك بهذا تضرينه أكبر ضرر.. وماذا سيكون موقفنا لو علم زوج ابنتك أننا كنا وراء تهريب هاني؟

فضلت الصمت.. يأخذها تفكيرها لبعيد.. ابنها ولا بد أن تقف بجانبه وتنقذه مهما كانت فداحة خطئه.. قلبها يضع التبريرات.. العاطفة أقوى منها.

في اليوم التالي ذهبت مع ابنتها شاهيناز للطبيب.. ابتسم الطبيب بعد أن انتهى من الكشف:

- مبروك يا مدام ستصبحين إن شاء الله أمًا.

هللت أمها واحتضنتها تبارك لها.. بينما استقبلت شاهيناز الخبر بعينين حزينتين.. فالسعادة غائبة.. تحاول جاهدة أن تشعر بها لكن الأحداث حولها تأبى ذلك.. ما زال هناك شرخ بينها وبين حبيبها قد لا يبدو ظاهريًا لكن مكنون النفس يخفي الكثير رغم محاولته من أجل إسعادها لكنه غائب بقلبه مشغول بحكاية ابنه.. فرق شاسع بين يوسف قبل يوم

الزفاف ويوسف بعد الزفاف.. شقيقها خنق طيور الحب والمودة.. حياة باردة تحاول جاهدة أن تعيد السعادة المفقودة لكن الجرح عميق.

عادت إلى الشقة بغير حماس تفكر في المولود القادم في زمن بدأ نور الشمس يخفت تدريجيًا هل عندما يخرج للوجود سيجد صبابة من تلك الشمس أم ستتلاشى ليعيش ميتًا؟ يحاصرها تفكير أسود.. خانها التقدير.. اعتقدت أن السعادة الحقيقية ستجدها بين جدران تلك الشقة.. انتظرت ذلك اليوم.. لكنها الآن تتمنى أن تعود لكي تنسف تلك الأحلام.. لكنه قدرها ولا بد أن تصبر.. ربما تعود الشمس أكثر قوة لتنشر السعادة من جديد.

في ذلك الوقت كان يوسف في مكتب النائب العام يخضع لتحقيق مكثف حول بلاغه ومواصلة التحقيق مع علاء ثم استدعاء عمران عم الطفل لسؤاله.

عاد يوسف يحمل بعضًا من السعادة.. يحكي لزوجته ما دار في التحقيقات.. حاولت أن تقاطعه تبلغه بالخبر الذي تحمله.. لكن كلماته تتدافع بأمل وأنه ينتظر الغد.. حيث سيحضر عم الطفل فضلاً عن استدعائها ومعها والدها للشهادة على اعتبار أنهما شاهدا الطفل وحضر إليهما.

انتهى من كلامه.. ساد صمت طويل بينهما.. انشغل فيه يوسف بالحديث في التليفون مع طه.. وبمجرد أن وضع السماعة بدا مهموما عابس الوجه سألته عن السبب.

– طارق خرج من المستشفى مع عمران.

– شيء طبيعي.. لأن الأوراق ما زالت تؤكد أنه ابن أخيه.

– نفس كلام طه.

– اصبر.. أيامًا معدودة ويعود طارق إن شاء الله.. على فكرة أنا ذهبت اليوم للطبيب.

فأومأ يوسف برأسه بلا مبالاة وهو يرفع سماعة التليفون شعرت معها بصدمة لكنها تماسكت:

– لكنك لم تسأل ماذا قال لي الطبيب.

التفت إليها واضعًا السماعة:

– ماذا قال؟

– طارق سيكون له أخ أو أخت قريبًا.

ابتسمت وهي تخبره تتعلق برد فعله.. فابتسم تبعتها دمعة انحدرت على خده:

– مبروك.. طالما حلمت بألا يكون طارق وحيدًا ويبدو أن حلمي على وشك الحدوث.. كل ما أتمناه أن يعود طارق يحلم معنا ويختار اسم هذا القادم.

ثم رفع السماعة يطلب المحامي يتناقش معه فيما يجب فعله غدًا.

في اليوم التالي حضر عمران مصطحبا ثلاثة محامين يحملون كمًا هائلاً يصعب حصره من الأوراق التي تثبت أن الطفل ابن أخيه وأن يوسف نصاب يطمع في الاستيلاء على التعويضات التي سيتم صرفها للطفل وأن علاء شريكه في تلك العملية بهدف خداع العدالة والتمويه.

ثم دخل الأستاذ إبراهيم ليؤكد أن ابنه هاني أحضر هذا الطفل إليهم بحجة أنه ابن أحد أصدقائه مؤكدًا أن هاني اعترف له بعد تعرف يوسف عليه أنه بالفعل هو الذي خطف الطفل وذلك في اتصال تليفوني.

ثم أكدت زوجته الكلام نفسه وكذلك شاهيناز.. لكن يبقى هاني المطلوب إحضاره فورًا هاربًا.

امتلأت الصحف والمجلات بالحديث عن قضية الطفل ولقاءات ساخنة مع يوسف الذي يدعي أن الطفل ابنه ولقاءات مع عمران الذي يدعي أن الطفل ابن أخيه ولقاءات مع علاء من داخل محبسه.. ولم تكن القنوات الأرضية والفضائية بمنأى عن هذا الحدث بل انفردت بلقاءات حية مع أطراف القضية وبقي الموضوع أكثر إثارة.. في الوقت الذي وصل فيه طبيب نفسي عالمي لعلاج الطفل من آثار الحادث المؤلم الذي تعرض له.

أول شيء طلبه أن يتم منع النشر في القضية مراعاة لشعور الطفل.. فاستجاب النائب العام وأصدر قرارًا بمنع النشر وأن تكون التحقيقات سرية منعا للتأثير على مجريات القضية ومراعاة لمشاعر الطفل الذي لم يكن يدري

بما يجري حوله.. كان طوال وقته صامتًا كالصنم عندما يحدثه أحد أو يحاول استثارته يعلو صراخه وتنتابه حالة من البكاء الهستيري.. لهذا فشل عمران في ترويضه أو إرضائه.

فقرر المعالج نقله لإحدى المصحات النفسية الخاصة في الوقت الذي أعلن فيه أمير عربي تبرعه بمبلغ كبير للطفل وأن علاجه وجميع مصاريفه سيتكفل بها بعد أن قرأ قصة الطفل وتعاطف معه.

تمر الأيام سراعًا والتحقيقات ما زالت جارية.. حاول يوسف في أحد الأيام زيارة الطفل.. لكن إدارة المصحة رفضت طلبه وتجاهلت توسلاته.

بعدها اصطحب صديقه طه إلى حلوان.. حيث ذهبا لمقابلة المعلم عمران الذي كان يجلس كعادته في صدر الشادر يدخن الشيشة بينما عماله منتشرون حوله يعملون بهمة ونشاط.. علا وجهه الضيق الشديد والغضب عندما شاهد يوسف يدخل عليه.

وقف يوسف أمامه يلقي السلام.. لكن عمران صاح بصوت كريه:

"نعم.. ماذا تريد؟".

رد يوسف يجاهد ألا تنساب دموعه:

– أريد الحق يا معلم.

انفجر عمران في الضحك قائلاً:

– حق؟! سلامات يا حق.

– أرجوك يا معلم.. أريد أن نحل المسألة بصورة ودية.

احمر وجه عمران وبدا السخط عليه.

– المسألة منتهية.. الطفل ابن أخي مهما فعلت لن تطول منه شعرة.

فصاح يوسف:

– لكنه ابني أنا.. بذمتك يا معلم الطفل الذي أحضرته حماة أخيك هو نفس الطفل الذي نتنازع عليه الآن؟

فهب عمران واقفا يتطاير الشرر من عينيه:

– من أنت؟ من أين خرجت لي؟ ابتعد عن طريقي وطريق ابن أخي.

فرد طه:

– يا معلم عمران.. ابن أخيك ضائع.. أما من تقصده فهو ابن يوسف.

فرمقه عمران بنظرات غضب:

– ومن أنت أيضا؟ أكيد أم الطفل!

ثم انفجر ضاحكاً ضحكة كريهة ما لبث أن عادت الصرامة لوجهه وهو يقول:

– اسمع.. الولد ابن أخي وكل الأدلة في صالحي.. الأفضل أن تنسحب

وتترك الولد كفاية ما هو فيه.. حرام عليك اتركه لا تكُن أنت والزمن عليه.. إذا كنت تطمع في قرشين أنا مستعد أدفع.

فانفجر يوسف باكيًا:

– بل هو ابني وحقي لن أتنازل عنه.

كاد عمران ينقض عليه.

– قلت لك طول ما أنا حي لن تنال منه شعرة واحدة.. المسألة لم تعد طفلاً بل هي تحدٍّ وأنا لا أعرف الهزيمة مطلقًا.

فغضب يوسف:

– لماذا تذكرت الآن أنه ابن أخيك ولم تتذكر ذلك عندما حضرت جدته تستعطفك أن تضمه إليك ورفضت أيضًا بعد وفاتها.

انتفض عمران لكن يوسف لم يمهله بل واصل كلامه:

– حرام عليك.. لا تكن قاسي القلب.. قدر مشاعري كأب يريد ابنه ليتك كنت تعرف معنى الأبوة.

فصرخ عمران غاضبًا:

– جئت هنا كي تعايرني بعدم الإنجاب.. امشِ من هنا الآن وإلا قسما بالله سأدفنك حيًا هنا.

كان العمال قد تجمعوا على صوته العالي يطوقون يوسف وصاحبه

متحفزين.. فاستدار يوسف عائدًا وهو يقول:

– لن أتنازل عن حقي والأيام بيننا.

فرد عمران:

– إذًا لتكن حربًا بيننا وسنرى من سيقتل الآخر.

* * *

– تسرعت.. كان يجب ألا تذهب إليه.. نحن في موقف أقوى منه.. كل الأدلة في صالحنا والقضية تسير في الاتجاه الذي نريده.

كان هذا رد المحامي ليوسف بعد أن علم بذهابه لعمران.. ثم أكمل الأستاذ إبراهيم:

– تمهل ولا تتعجل يا بني.. مسألة عودة طارق مسألة وقت فقط.

قال المحامي:

– أرجوك لا تأخذ أي خطوة إلا بعد أن نتفق عليها سويًا.

صاح يوسف:

– أنا لا يهمني أي شيء سوى عودة ابني بأي وسيلة.. لا تهمني القضية ولا الأدلة.

فقال الأستاذ إبراهيم:

- اهدأ يا بني.. الأستاذ المحامي يقصد أن هذا الشخص إنسان همجي.. ذهابنا إليه سيزيد من عناده وتكبره.. ليس هذا بالإنسان الذي يمكن التفاوض معه.

عاد يوسف مهموم النفس منقبض الصدر.. حاولت شاهيناز أن تكون كعادتها اليد الرحيمة التي تمسح دموعه.. لكن بصره كان عالقا بصورة طارق وكأنه يسأله: متى تعود؟ كنت أظن أن مجرد العثور عليك كافٍ أن أضمك في حضني.. لكن المسافات بيننا أكبر مما كنت أتصور.. الحق كالشمس الساطعة لكن هناك من يرفض أن يعود الحق لأصحابه يماطل ويناور ويتلذذ بذلك.

قالت شاهيناز:

- دائمًا الحق يحتاج لمجهود شاق وتضحيات كبيرة كي يعود.. ربما تمر سنوات من الصراع بين الباطل والحق.. قد ينتصر الباطل في البداية لكن ناموس الحياة جعل الحق لا بد أن ينتصر في النهاية.. لكن الفيصل ألا نيأس ونصبر حتى النفس الأخير.

- الباطل يسود عندما تتلاشى مساحات الحب بين الناس وينتشر الحقد والضغينة.. لو أن كل إنسان أحب لأخيه ما يحب لنفسه ما ضاعت حقوق أو عم ظلم.

- نعم.. أول جريمة وقعت على وجه الأرض بين هابيل وقابيل بسبب انعدام الحب.

- الحب صار في هذا الزمان شيك من دون رصيد.

- لكنه موجود وسيظل.. الحب كالهواء لو اختفى عن حياتنا نموت.

- الحب يشبه جزيرة صغيرة في وسط محيط شاسع تتناقص مساحتها بفعل تآكل شواطئها بسبب أمواج هذا المحيط التي لا ترحم.. أخشى أن يأتي يوم تختفي فيه تلك الجزيرة.

- الكل إلى زوال.. الحاقدون يرحلون.. كذلك الباحثون عن الحب يرحلون.. يبقى الحب يرفرف بأجنحته على القادمين للحياة.. إنها دورة الحياة.. يرحل إنسان ويولد إنسان آخر.. يظل الحب يرسم ألحانًا جديدة من السعادة والهناء.

- لكن الحب الصادق فقد بريقه.. تشوهت ملامحه.. ضاعت معالمه.. خفافيش الظلام تعبث وتنشر البغضاء.. انظري إلى من شاهداني أنا وطارق تتشابك أيدينا يطوقنا الحب لا نريد من الدنيا سوى أن تدوم المودة لكنهما رفضا ذلك.. هدما وقتلا هذا الحب بعد أن كان طارق لا يرى في تلك الدنيا سواي.. نجحا في وأد هذا الحب فرقا بيننا.. أعداء الحب يرفضون أن نعيش في سلام ووئام.

- الحب لا يموت.. حتى لو جفت منابعه من السهل أن يعود.. قد يحتاج لمجهود.. الرغبة الصادقة تنقذه من الانهيار.. عندما يعود طارق إلى أحضانك إن شاء الله سيصبح من السهل أن تروي بحنانك أزهار الحب التي

سبق أن زرعتها بداخله لتتوهج المشاعر الفياضة بينكما.. الحديقة لو تحولت إلى صحراء جرداء سهل أن تعود خضراء غناء.

– الزجاج المكسور لا يمكن إصلاحه.

– من حسن حظنا أن الحب لم يخلق من الزجاج.

– أتمنى فعلا أن تعود السعادة.

– اشتقت إليها كثيرًا.. ما زلت أنتظرها.. أبحث عنها.. كل الشواهد تؤكد أنها ستعود مع طارق.

– معذرة أدخلتك في دوامة من الأشجان والهموم.

– لا تقل هذا.. طارق أصبح ابني.

ابتسم يوسف:

– أنت إنسانة عظيمة.. من حسن حظي أنى عرفتك.. رغم مرارة فقدي لولدي لكنه جاء بفائدة هي أنني عرفتك.

– منذ سنوات وأنا أبحث عنك.. كل زميلاتي سبقنني في الحب لكن كان لديَّ يقين أنني سأعثر عليك فارسًا فريدًا من الزمن الجميل.. زمن الحب والعطاء.. رأيت من خلالك الحياة بمنظور جديد.. أبحرت معك.. لم أكن أدري أن البحر مليء بالعواصف التي يمكن أن تفرقنا.. وممن؟ من أقرب الناس لي أخي هاني –سامحه الله– شعرت عندها أن الحياة توقفت.. تحولت

إلى ليل وظلام دائمين.. تمنيت لحظتها الموت.. بحثت عنك وأنا في المستشفى سألت من حولي كانت الإجابة الصمت الحزين.. أدركت لحظتها أنني غرقت لأعيش بقية عمري في كابوس.. فقدت حبيبي وضاع شقيقي.. سألت نفسي: ما ذنبي أنا؟ لماذا يعاقبني على جريمة ارتكبها شقيقي؟ وجدتك معذورًا.. الصدمة أكبر منا.. الدوامة قلبت كل شيء.. قتلت أعظم فرحة في حياة الإنسان.. لحظة تنتظرها كل فتاة.. قمة السعادة لا بعدها ولا قبلها.. أي سعادة تضاهيها حتى لو عاشت بقية عمرها في قطار السعادة؟ لم أصدق عيني وأنا أراك تدخل عليَّ.. انتابني خوف شديد تمنيت ألا تتكلم فلم أكن أدري بأي كلام ستتفوه هل ستجهز عليَّ وتكمل ذبحي.. أم جئت تفتح الباب من جديد تنتشلني من الدوامة لنواصل الإبحار وقد كان.. الآن أتمنى أن يعود طارق فورًا كي نخرج من دائرة الأشجان نفلت من براثن الهموم يعود قطار حياتك ينطلق من جديد لأشعر معك بالسعادة الحقيقية التي طال انتظارها.

تنهد يوسف من أعماقه:

– منذ نعومة أظفاري تعلمت البحث عن السلام والابتعاد التام عن المشاكل حتى لو تنازلت عن حقوقي.. والدي زرع بداخلي الخوف من هذا العالم.. كان يقول لي دائمًا كن وحيدًا تعش سعيدًا.. تقوقعت ولم أخرج رأسي خارج النافذة خوفًا من الخوف.. الناس في نظري شر يتربص بي لو اقتربت منهم.. عندما تخرجت في الكلية حاولت التنفس خارج القوقعة وجدت في

سفري للسعودية فرصة للتعرف على الحياة.. سافرت لكن ظل الخوف كامنًا بداخلي يقيد تحركاتي وتصرفاتي.. تكامل هذا الخوف بأن تزوجت من إنسانة تشاركني هذا الخوف.. ترفض الآخر.. لكن الآخر لم يتركنا في حالنا.. في لحظة هدم كل شيء.. كنت أقود سيارتي ومعي زوجتي وابني طارق.. فجأة انشقت الأرض عن شاب مستهتر يقود سيارته بجنون اصطدم بنا.. ماتت زوجتي وعدت بابني يتيمًا.. تعاظم الخوف بداخلي.. لم يكن لي صديق سوى طه.. صديقي منذ الطفولة.. وهذا هو الذي شفع لصداقتنا كي تستمر حتى هذا اليوم.. حاولت نسيان الحادثة الأليمة وفقدان زوجتي.. أغلقت الباب لأعيش أنا وطارق وأمي في عالم خاص.. ابتعدت عن أقاربي وتقطعت الصلة بيننا.. كنت أتصور أن ذلك كافٍ للعيش في سلام وتجنب المشكلات والشر الذي قد يصيبنا لكن تصوري كان خاطئًا.. فليس معنى أنك تبحث عن الحب والهدوء وتعيش في عزلة أنك بمنأى عن شرور البشر.. الصدمة الثانية والفجيعة الكبرى خطف ابني من بين يدي وأمام عيني من دون ذنب ارتكبناه.. مجبرًا دخلت معترك الحياة بحثًا عن فلذة كبدي مهما كانت العواقب.. لم يعد هناك شيء نبكي عليه.. النار أمسكت بي ولا بد من المقاومة ودرء الوداعة والهدوء.. الصدفة جمعتنا.. شعرنا كأن قلوبنا تعرف بعضها دون أن نشعر.. تشابكت أفكارنا وأهدافنا واتفقنا على أن نكمل مسيرة الحياة رغم الغيوم والضباب الذي يحكم قبضته ولا أمل في بزوغ الفجر.. أصبحت قضيتي قضيتك ومن سخرية القدر أنه كان في يوم من الأيام بين يديك

بل ومن خطفه أمام عينيك.. كاد الحب بيننا يموت ولو كان قد حدث ذلك فلا يلومنا أحد.. فما حدث كافٍ لتجفيف كل أنهار الحب.. لكني عندما سافرت إلى سفاجا وجدت أن أحزاني مجرد شرارة أمام نيران أحزان أهالي الضحايا.. نيران تضطرم تتوهج بصورة تقشعر لها الأبدان.. عرفت أن الأشجان حتى لو وصلت إلى مداها فهناك كثيرون غارقون أكثر مني في الحزن والبؤس.. فالحزن لا نهاية له.. عدت إليك أفتح ذراعي.. أضأت النور من جديد فأنت تستحقين الكثير.. رضيت بحزني وتجرعت معي آلامي دون شكوى أو تبرم خففتِ همومي ومسحت دموعي.. أصبح من أهم أهداف حياتي بعد عودة ابني أن أعيش أبذل كل جهدي كي أعوضك.

وضعت رأسها على صدره تبكي يمسح دموعها يرفع رأسها قائلاً:

– اصبري.. إن شاء الله السعادة في انتظارنا.. حتى لو غابت عنا في الحياة يبقى الأمل هناك عنده حيث لا ظلم ولا ظلمات.. سبحانه.

قطع حديثه رنين الهاتف يقوم يرفع السماعة: "ألو".

يستمع للصوت المقابل وعيناه تلمعان من الدهشة.. يخفق قلب شاهيناز تقترب منه قلقة لينفجر صارخًا:

– من؟ من معي؟ ممكن أعرف من أنت؟ تكلم يا جبان.. على العموم قل لمن خلفك إنني لن أستسلم مهما حدث.. ألو.. ألو.. رد يا جبان.

وضع السماعة متوترًا غاضبًا.. نظر لشاهيناز يجيب عن سؤالها:

- إنه إنسان سافل يهددني إذا لم أتخلَّ عن المطالبة بطارق فسوف يقتلونني.

فصرخت تتعلق بذراعه:

- لا.. بعد الشر عنك.. من هذا الشخص؟

رد ونظره يرنو لبعيد وعقله يفكر:

- لم يقل اسمه.. لكنه أكيد من طرف عمران.. لا بد أن أخبر الشرطة والمحامي.

ذرفت دموعها:

- أنا خائفة عليك.

نظر إليها يشاركها الدموع:

- لي رب سيحميني.. ومن دخل معركة فلا يخشى أي شيء حتى لو أزهقت روحه.

14

كعادته يجلس عمران في صدر شادره يدخن الشيشة.. يدخل عليه صديقه المعلم مرزوق غاضبًا:

– حرام عليك يا معلم عمران ترفع سعر الحديد بهذا الشكل.

ابتسم عمران وهو يشد نفس دخان عميقًا:

– هذا سعر المصنع.

– لا يا معلم.. نحن تجار ونعرف سعر المصنع جيدًا.. صحيح أنه مرتفع.. لكن الزيادة منا هذه ليس لها مبرر.

ضحك عمران طالبًا منه الجلوس والهدوء قائلاً:

– لا مبرر لثورتك أنت.

جلس مرزوق قائلاً:

– لكن هذا قد يسبب لنا ركودًا.

واصل عمران ضحكاته:

– من قال ذلك؟ السوق عليها إقبال والناس لن يكفوا عن الشراء.. وما دامت الحكومة تركت لمصانع الحديد تحديد الأسعار فمن حقنا أيضًا كتجار أن نحدد السعر ولا هو حرام علينا حِلال على المصانع؟

ابتسم مرزوق:

– أنت داهية.

– التجارة شطارة.

– طول عمرك شاطر.

– أنا لا أرضى بالخسارة مطلقًا.

– لكن ما أخبار قضية ابن أخيك؟

– المحامي اتصل من ساعة تقريبًا وقال إن النيابة حولتها إلى المحكمة.

– لكن هل تضمن حكمًا لصالحك؟

فرد عمران غاضبًا:

– قلت لك: أنا لا أحب الخسارة.. القضية مضمونة.. الأوراق كلها في صالحنا.. كما أنني طلبت من المحامين أن يطلبوا تأجيل القضية من القاضي.. لأن المسألة أصبحت حربًا بيني وبين من يدعي أنه والد الطفل.

– لكن يا معلم بصراحة هل الولد فعلا ابن أخيك؟

صمت عمران هنيهة.. وبعد تفكير قال:

- بصراحة لم أسأل نفسي هذا السؤال ولم أهتم بالبحث عن إجابة.. لقد تحول الموضوع لمسألة عِند وحرب.. وأنت تعرف أنني لا أحب الخسارة مهما وصلت الأمور.

- لكن ربما يكون حكم المحكمة في غير صالحك.

فرد غاضبًا:

- قلت لك: مهما حدث لن تمس شعرة من الطفل ما دمت على قيد الحياة.

ثم مال على مرزوق قائلاً بصوت منخفض:

- بصراحة أنا كلفت واحدًا من صبياني يتصل به ويهدده بالقتل لو ظل معاندًا ولم يتنازل عن طلب الولد.

- بالعكس.. هذا الموقف سيجعله يزداد عنادًا.

- وأنا نفسي طويل.

* * *

قابل يوسف خبر إحالة القضية للمحكمة بغضب شديد.. شعر أن القضية تجنح إلى الدخول في نفق مظلم.

- الصبر.

زفرة أطلقتها شاهيناز لتهدئته.. لكنه قال منفعلاً:

– لن أنتظر حكم المحكمة.. سآخذ حقي بيدي.

– ماذا تقصد؟

لمعت عين يوسف.

– بنفس الطريقة التي فقدت بها طارق سوف أستعيده.

عقدت الدهشة لسانها وظهر الفزع في عينيها.. وأكمل يوسف متحمسًا:

– سوف أخطف طارق من المستشفى ونهرب كلنا خارج مصر.. أي دولة.. ممكن نرجع إلى السعودية.. المهم أن نبتعد به عن هنا.

انسابت دموعها ترجوه:

– لا.. يوسف الإنسان لا يفعل ذلك.

فضرب كلتا يديه في الحائط باكيًا:

– يوسف الإنسان خلاص وصل لمرحلة العجز.. لم يعد لديه أي حلول.. قبل ذلك كان الهدف مجرد معرفة مكان طارق ظنًا أن ذلك كافٍ لعودته لأحضاني.. والآن تحقق الهدف لكنه بعيد المنال.. عقلي سينفجر.. لم أعد أدري أي شيء.

– اهدأ يا يوسف سيعود طارق عندما يشاء الله.

التقط أنفاسه ومسح دموعه ثم قال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- كل شيء بأوانه.. وما دامت الفضية تحولت للمحكمة فبإذن الله سيكون الحكم لصالحك.

- متى؟ اشتقت كثيرًا لطارق.. أفتقد ضحكته ومداعبته ويا ليته بقي على حاله بل تحول إلى إنسان عجوز من هول ما تعرض له.

في المساء تقابل يوسف مع طه في القهوة.. حيث بدا على طه العبوس والضيق.. فقال يوسف يداعبه:

- معقول طه صاحب الوجه البشوش يصبح هكذا؟

تنهد طه قائلاً:

- كل الأبواب مغلقة.. تعبت خلاص ولم يعد أمامي سوى السفر.. ولا تحاول أن تقنعني بشيء آخر.. أنا قررت ولا رجعة في قراري.

بدا الحزن الشديد على يوسف:

- لا أدري ماذا أقول لك.. لكن اسمع.. أنا قررت فتح مكتب استشارات هندسية وأحتاجك معي.

- لكن أنا لا أفهم في شغل المقاولات.

- تتعلم.. الأمر بسيط.

- لا.. أنا قررت.. السفر هو الحل.

- وهل ستتركني والحرب لم تنتهِ بعد؟ هل عرفت أن هناك شخصًا يبدو أنه من طرف عمران اتصل يهددني بالقتل إذا لم أتخلَّ عن المطالبة بطارق؟ طه أنا محتاج وجودك بجانبي.

وضع طه رأسه بين يديه يخفي دموعه ويعصر فكره ثم رفع رأسه قائلاً:

- يوسف.. قدر موقفي.. أنا عليَّ ضغوط شديدة.

- وأنا لم أتخلَّ عنك.. أي نقود تحتاج إليها اطلبها فورًا.

- لا.. لا بد أن أعمل وأكسب.. أنت عليك مسئوليات أيضًا.. زوجتك وما تحمله في بطنها وطارق عندما يعود إن شاء الله.

- وأنت أخي.

- يوسف.. أرجوك.. أنا قررت السفر.. لا تتعب أعصابي.

- طه.. اسمع كلامي.. أنت هنا تعيش بكرامتك.. في الخارج ستعيش ذليلاً.

- ليست هناك كرامة ما دمت لا تشعر بذاتك.

- وماذا عن نقود السفر؟ كيف ستوفرها؟

- هذا هو رجائي منك وسوف أسددها لك إن شاء الله عندما أدخرها..

سوف أرسلها لك فورًا.

– رغم معارضتي الشديدة لكن لا يمكن أن أتخلى عنك.

تتعاقب الأيام حتى يأتي يوم انعقاد الجلسة.. اكتظت القاعة بالحضور.. في المقدمة يجلس يوسف عابس الوجه بجواره شاهيناز بعينين تائهتين بينما والدها مشغول بنقاش مع المحامي.. على الجانب الآخر يجلس عمران منتفخًا متحفزًا بنظرات الثعلب.. تتداخل الأصوات وتعلو المناقشات تنقطع وتتلاشى بمجرد دخول القاضي والمستشارين.. ينادي الحاجب على القضية وكانت البداية المتوقعة أن طلب محامي عمران التأجيل للاطلاع على أوراق القضية فيقرر القاضي التأجيل.. يطلق يوسف صيحة غضب بينما يزداد عمران انتفاخًا وتعلو وجهه ابتسامة تشبه نخب الانتصار.. يحاول المحامي أن يفهم يوسف أبعاد التأجيل.. لكنه يخرج غاضبًا.. يكاد يبكي.. يجاهد أن يحبس دموعه.. خلفه شاهيناز تلاحقه بكلمات الأمل.. وقعت عيناه على عصفور صغير يقف على غصن شجرة يحط بجانبه عصفور آخر يقتربان من بعضها كأنهما يتعانقان.. بدت دموعه تود أن تنطق تحاورهما.. ليتني كنت مثلكما بعيدًا عن عالم البشر الوحشي.. ابقيا بعيدًا في الأفق تنفسا رحيق السعادة ارسما أحلامكما مع النسيم بعيدًا عن أشواك الأرض.. يهبط نظره على الأرض يلمح بين السيارات الواقفة قطة تداعب صغيرها في براءة وحب وسعادة يبتسم متسائلاً: هل يمكن أن تأتي

قطة أخرى وتخطف هذا الصغير من أمه؟ مستحيل.. الحيوان يعرف معاني الرحمة.. الإنسان تحول قلبه وصارت يده تبطش تريد أن تطفئ شمس الحب والإخاء والعطاء.. توحشت حميته إلى تجريف بساتين الرحمة والمودة.

إلى الأحزان عاد يوسف يطوي أيامه ينتظر الغد يتعجل الساعات ويعد اللحظات.. عيناه لم تهدأ من سيل الدموع.. ما زال السؤال غصة مريرة في حلقه: لماذا تتقلص مساحات الحب والمودة بين الناس؟ ماذا حدث؟ أين المحبة؟ أين الرحمة والعطف والإخاء؟ الإنسان الذي يهدم أركان الحياة الحلوة ويقتلع المبادئ والقيم هو نفسه الذي ينشئ محميات طبيعية للحفاظ على الحيوانات المهددة بالانقراض.. أليس من الأولى أن يقيم محميات لكل معاني الحياة السامية التي في طريقها الآن للزوال؟ لم يعد لها مكان في غابات المقت والحقد والتناحر.. نحن الآن في أشد الاحتياج لها نهرع نحوها نختبئ بداخلها من أشواك البغضاء والغش والصراعات والتكالب.. قديمًا نادى الفلاسفة بفكرة المدينة الفاضلة.. لكنها كانت في ذلك الوقت فكرة خيالية مثالية.. لأن الحياة كانت تموج بالحب والقيم والأخلاق.. أما الآن فينهار كل شيء وتضيع ملامح الأشياء وتتبدد معاني الحياة الفاضلة فصارت فكرة المدينة الفاضلة ملحة الآن.

ردت شاهيناز:

– الحياة ليست مجرد قطع من الطوب تشكلها وتصممها كما تشاء..

بل بحر خضم تتلاطم أمواجه دون أن نتحكم فيه.. كما أن طباع الإنسان تتفاوت.. لا يمكن أن نشكلها كما نشاء.. ربما نصادف إنسانًا نحبه ونسعد برؤيته وربما نقابل إنسانًا آخر من أول وهلة نشعر بعدم الارتياح له.. الإنسان ليس آبار بترول تقف حدودها عند ضخه.. بل هو قلب شديد التعقيد يحوي كل شيء وتوقع منه أي شيء.. الإنسان ليس مجرد صورة نكتفي بوضعها على الحائط أو آلة نطوعها كما نشاء.

فرد يوسف بحدة:

– كلما زرعنا أزهار الحب نجد ثماره في النهاية أشواكًا.

– من يزرع الحب كمن يزرع التين الشوكي لا بد أن تنال منه الأشواك.. لكنه إن أراد الوصول للثمرة والتلذذ بطعمها الحلو عليه أن يصبر ويتحمل الشوك.

– يبدو أن النهار ضل طريقه عنا.

– علينا أن نبحث عنه نحن.. حتى لو لم نعثر عليه من الممكن أن نقنع أنفسنا أن الليل هو النهار حتى نستطيع أن نعيش وإلا سنموت بالبطيء.. هل ستظل هكذا؟ يجب أن تعود لعملك حتى تخرج من أحزانك.. أنت الآن تنفق مما جمعته من السفر.. لكن هذه النقود حتمًا ستنتهي.. حينئذ ماذا ستفعل؟

– عقلي مشلول.

- لن يعود طارق إلا عندما تعود أنت للحياة تخلع نظارة الأشجان وتنفض عن كاهلك غبار الهموم.. الحياة كلها حب وسعادة.. افتح النافذة ليتجدد النسيم وتتنفس هواء نقيًا.. أنت تضيع عمرك هباء.. لا تنتظر حتى يعود طارق بل انطلق نحو الحياة.

قام يوسف عقله شارد.. فتح البلكونة ووقف يشاهد بانوراما الشارع بما يموج به من بشر وسيارات.. السائرون يسرعون الخطى والسيارات تمر بلا هوادة والجالسون على المقهى لا يكفون عن الثرثرة ودخان الشيشة يعلو.. الميكانيكي ممدد تحت إحدى السيارات يعمل بجد.. والبقال يجلس أمام متجره يطالع الصحيفة.. والحلاق منهمك في تهذيب رأس الزبون.. بجواره الجزار يقطع اللحم.. يتدبر هذا العالم ولم ينتبه إلا على صوت زوجته وقد وقفت بجواره قائلة:

- هؤلاء كلهم لا تخلو حياتهم من الأحزان والآلام والهموم.. لكنهم مقبلون على الحياة كي تستمر.

تنهد يوسف من أعماقه:

- مهما بلغت شدة آلامهم فلن تكون مثل إنسان خطفا فلذة كبده من بين يديه.. سلباه عنوة وهو عاجز لم يستطع الدفاع عنه.. تركه لهذين الوحشين حتى عندما عرف مكانه ما زال العجز يلاحقه في استرداده.. كل شيء يهون إلا أن تمس فلذات أكبادنا.. أي واحد من هؤلاء لو كانت مصيبته في ولده هل سيصبح حاله هكذا مقبلا على الحياة؟ أعتقد لا.. كل شيء مقبول

إلا الشعور بالعجز.. ليته مات.. كنت سأحزن على فقده وأبكي على رحيله فترة وستزول الآلام وتمضي الحياة فقد عرفت مصيره وواريته التراب.. أما الآن فهو معلق.

ثم سحب نفسه إلى الداخل يصارع بكاءه يصطدم بصورة طارق يقف أمامها يسأله:

"هل ذنبنا في الحياة أننا أردنا العيش في سلام؟ لماذا أخذاك من أحضاني؟ ألست ابني وملكي وليس من المعقول أن ينازع أحدٌ أحدًا في أولاده ويدعي ملكيته لهم؟ لكنهم نجحوا بخداعهم في تحويل اللا معقول إلى معقول وعليَّ أن أثبت أنني أبوك وأنك ابني.

رنين الهاتف انتشله من أشجانه.. رفع السماعة.. جاءه صوت حزين.. صديقه طه يطلب مقابلته.. لقد تحدد ميعاد السفر ويريد أن يودعه.. دعاه يوسف لكي يتقابلا هنا في شقته.. لحظات وحضر طه.. فارت الأشجان والآلام لدى يوسف.. هاهو صديقه يضيع من بين يديه يرحل إلى عالم مجهول لا يدري هل تتقابل الوجوه أم أن الفراق سيظل يزيد من شقائهما.. شمس الحياة تستسلم رويدًا رويدًا للغيوم برحيل الأحباب.

الناس الطيبة والقلوب الرحيمة ترحل.. تبقى أشباه بشر كأشواك ترتدي قناع الإنسانية.

سوط الندم يلاحقه لماذا ساعد صديقه على الرحيل.. أعطاه تكاليف السفر لكي يسلمها لسماسرة الموت.

١٥

أما علاء فقد صدر حكم ضده بالسجن ثلاث سنوات ومثلـها للـهارب هاني.. مما زاد الهموم لدى يوسف.. يتساءل: هل ثلاث سنوات تعوضني عن كل هذا العذاب الذي ما زلت أتجرع مرارته؟ من سوء حظ الإنسان أنه اخترع الزجاج دون أن يفكر في طريقة لإعادته سليمًا عندما ينكسر.

أما الأستاذ إبراهيم فقد تكالبت عليه الهموم عندما علم بهذا الحكم.. شعر بالإحباط والفشل الذريع.. فقد ضاع مستقبل ابنه الوحيد وأمله في الحياة.. يشعر بتقصير شديد تجاهه.. ترك أمه تدلله فنشأ متمردًا.. حتى عندما اصطدم به لم يحاول أن يتخذه صديقًا بل عامله بجفاء وندية.. تركه يواجه الحياة بالطريقة التي تحلو له.. واليوم يحصد ثمار هذا كله ليجلس يلوم نفسه.. فهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟ ابنه.. أمله في الحياة.. هرب وقيود السجن تطارده.. سأل زوجته عنه ردت بأسى والدموع تسبقها:

– أيام قليلة وسيرحل عن مصر كلها.

قال يشاركها الدموع:

- يرحل دون أن أودعه؟

- غريبة.. رأيك تغير فجأة تجاهه وأنت دائمًا كنت تتحامل عليه على طول الخط.

فصرخ في وجهها:

- إنه ابني.. فلذة كبدي.. مهما حدث منه فلن ينقطع وصال الحب بيننا.. إنه الآن يضيع من بين يدي.. أشعر أنني سأفقده للأبد وأعيش بقية حياتي أبكي على ضياعه في دهاليز الحياة عاجزين عن رؤية بعضنا.. صحيح أنه أخطأ ويستحق العقاب.. لكن دائمًا الآباء ضعفاء أمام الأبناء.. ارتكب جريمة حمقاء.. هدم مستقبله وجعلنا نعيش في عذاب.

منذ صغره كنا نهلل ونضحك لأي فعل يفعله حتى لو كان خطأ نتغاضى عنه.. نقول: غدًا يتعلم.. لتتوالى الأيام دون أن نفكر في الغد وكأنه لن يأتي.. حتى شب عن الطوق وتمرد علينا.. حاولنا إصلاحه.. لكن اكتشفنا أن النخلة المعوجة عندما تكبر لن تجدي معها أية محاولات كي تستقيم.. أخطاء الأبناء لا بد من معاقبة الآباء عليها.. الأزهار التي نزرعها عندما نتكاسل في الاعتناء بها ونهملها تغزوها الأشواك تشاركها الحيز والغذاء حتى تتوحش فتضمر الزهور حتى تموت لتبقى الأشواك عاجزين عن ترويضها.

لكنا لا ننتبه ونبدأ مرحلة الندم إلا بعد فوات الأوان.

في تلك اللحظات كان هاني يطوي الطريق متخفيًا كي يصل إلى

الإسكندرية.. يبدأ رحلة الهروب.. والحال نفسه مع طه.. يبدأ رحلة المجهول.. ودع أحلامه وآماله.. كل أمله أن يعود مرة ثانية يحمل دواء ينعش أحلامه يشعره بمعنى الحياة يعود وقد تخلص من براثن الأسى ويمسح دموعه.. يسافر قد يجد حظه في أغوار الغربة.. قد يجد هواء نقيًا بعد أن ضاق بلد النيل والهرم.. من يدري؟ سنوات ويعود يعوض سنوات ضياعه.

على شاطئ العجمي تجمعت أفواج من الشباب الباحثين عن الأمل.. ضاقت بهم السبل ولم يجدوا سوى السفر والغربة إلى عالم مجهول.. الكل سلم نفسه لسماسرة الموت.. يحدوه الأمل أن يشفق القدر عليه.. يمهد له السبل خلف هذا البحر.. وجوه ذابلة أصابها الشيب مبكرًا تبحث عن مكان في الحياة.. عيون تائهة تتساءل: من يمسح دموعنا غيرنا؟ من ينتشلنا من الضياع غير المغامرة في رحلة المجهول؟

عذرًا يا وطن.. كنا نود البقاء على أرضك فأنت حياتنا.. لكن الطرق كلها تؤدي للضياع فبقي السفر حلمًا يراودنا.

عذرًا يا وطن.. نحن أبناءك لم يعد في الدار مكان لنا.. دعنا نرحل مجبرين.. انتهى عصر الانتظار ولم يعد لنا اختيار بعد أن فشل النهار في حمايتنا ليتركنا لنار الليل.

عذرًا يا وطن.. لم يعد لنا مكان لندفن أحلامنا التي ماتت كمدًا وحزنًا.. أجهضتها الواسطة والمحسوبية.

عذرًا يا وطن.. ليس ذنبك أن هواءك ملوث لكن أبناء الوطن الواحد مفككون.. منهم من يريد أن يستحوذ على هوائك دون أن يفكر في أن الآخرين سيختنقون.

وقف الشباب على الشاطئ ينتظرون.. كانت المفاجأة قدوم سفينة صغيرة متهالكة تذمروا وأعلنوا رفضهم.. يطل وجه فظ قبيح.. ما أكثر الوجوه القبيحة في هذا الزمان!!

يصيح بصوت بغيض محذرًا من الاعتراض.. لا مفر من شد الرحال.. اكتظت السفينة بهموم الشباب.. أبحرت وهي تحمل فوقها أعدادًا هائلة فوق طاقة حمولتها.. بدت الشمس كعادتها باهتة بلونها الأصفر الذابل تشد الرحال لتفسح لليل كي ينشر رداءه الأسود على الكون.. مياه البحر هائجة تضرب السفينة بعنف.. كوحش لا يمكن ترويضه.. الوجوه تتباين مشاعرها ما بين التجهم والخوف والتشاؤم وما بين الأمل والرجاء.. عيون تتعلق بالشاطئ الذي يتوارى تدريجيًا تمني نفسها بلحظة العودة.

يجلس طه.. تنهمر دموعه.. قلبه منقبض.. ينظر في الأفق حيث البحر بلا نهاية.. قام يتجول في أنحاء السفينة يطالع الوجوه.. انتفض فجأة عندما وقعت عيناه على هاني.. ركز عليه يستعيد من الذاكرة ملامح الوجوه.. أيقن أنه هاني.. أسرع نحوه.. انقض عليه.. انتزعه من وسط الجالسين قاده إلى مكان خالٍ بينما هاني يصيح محاولاً التخلص من قبضته:

"ماذا تريد؟".

رد طه بغيظ شديد:

"فعلتها يا خسيس وهربت.. لكن لن أتركك تفلت مني".

ضحك هاني بسخرية بعد أن نجح في التخلص منه:

– وماذا ستفعل والبحر أمامنا والموت يقترب منا؟ فلا بد أن نتحد حتى نصل إلى بر الأمان.

– عندما نصل لن أتركك تفلت بفعلتك.

واصل هاني ضحكاته:

– عندما نصل سنكون كالفئران عندما تهرول بحثًا عن أي جحر تختبئ فيه بدلاً من أن تقع في المصيدة.

– آه.. خططت ونجحت في الهروب.

تركه هاني ليتنفس نشوة النجاح في الهروب وحل الليل بسواده ومعه هواء بارد شديد تزداد شدته بمرور الوقت.. يتحول البحر إلى ظلمة معتمة تشع في النفس الخوف.. وبدت السفينة لا حول لها ولا قوة وسط تلك العاصفة تتمايل بشدة.. مما أوجد الذعر في نفوس راكبيها.. وصلت لحالة من الهرج والمرج بعد أن زاد ميل السفينة وبدت عاجزة عن الصمود لينتشر الرعب وتتعالى الصيحات.. تحولت بمرور الوقت لصراخ وسط الظلام

الدامس.. صرخات مريرة تغتصب ظلمة البحر.. توقفت السفينة تمامًا وفشلت كل محاولات إصلاحها.. لتبدأ المياه رويدًا رويدًا تغمر السفينة.. وأدرك الجميع الحقيقة المفجعة.. النهاية.. تدافع الشباب كل يبحث عن مخرج ألقى بعضهم بنفسه في ظلمات البحر.. تعالت الآهات.. لا أحد يلبي النداء.. تشابكت أيدي طه وهاني في مواجهة طائر الموت.. لكن لا عاصم منه.. خارت القوى وغاصت السفينة في دهاليز البحر والموت يحصد الأرواح.

تلاشت الصرخات وذهبت آهات النجاة هباءً منثورًا.. غرق كل شيء.. لم يبقَ أحد.. ابتلع البحر الأنفس بما تحمله من أحلام وأمنيات.. ضاع شباب في غفلة.. غفلة منا أم من الزمن؟ من يأخذ العزاء؟

بقيت الجثث تناجي الوطن:

عذرًا يا وطن.. الأبواب موصدة.. الآمال ضائعة.. الأحلام منهارة في زمن أصبح لا يعترف بوجودنا.. بحقنا في الحياة.

عذرًا يا وطن.. لم نجد على أرضك هواء نستنشقه.. قررنا استبدال الضياع بالضياع.

عذرًا يا وطن.. ضاع صدى صراخنا.. لا أحد يشعر بآلامنا.. سلمتنا لسماسرة الموت.. خدعونا.. الأحلام خلف هذا البحر.. قررنا الرحيل.. شحذنا طموحاتنا.. لكن الموت انتظرنا في ظلمات البحر.. ضعنا يا وطن.

عذرًا يا وطن.. المهللون يهنأون يرسمون المقادير في مهرجانات

المحسوبية.

عذرًا يا وطن.. لماذا تبكي؟ نحن أبناؤك.. شربنا من نيلك وعشقنا ترابك.. كبرنا وتعلمنا من أجلك.. نصبح لبنة عطاء في كيانك.. وجدنا أنفسنا خارج الميدان.. لا أحد يعترف بنا.. يسمع أنيننا.. حُجبت عنا الشمس.. القيود تطوق أحلامنا تجهض آمالنا.. قررنا الرحيل على أمل اللقاء.. الآن رحيل بلا عودة.

عذرًا يا وطن.. نمضي.. نرحل.. نموت بالآلاف.. لا قيمة لنا.. أرواحنا رخيصة.

عذرًا يا وطن.. قدر أبنائك أن يموتوا غرقًا أو حرقًا.. ليموت الباقي حزنًا وكمدًا.

عذرًا يا وطن.. أبناؤك أمانة في عنقك.. فلماذا تضيع الأمانات في هذا الزمان؟!

* * *

رسم الكون صفحة جديدة ببزوغ فجر يوم جديد ليفر الظلام مذمومًا مدحورًا وتفرض الشمس أشعتها الزاهية ويعود البحر لهدوئه بعد ليلة عاصفة ليلفظ ما ابتلعه من أرواح يلقيها على شاطئه أجسادًا لا حراك فيها كالثعبان عندما يبتلع الفأر ثم يطرده من جوفه بعد أن امتص دمه.. امتص البحر أرواح هؤلاء البؤساء.

تستيقظ مصر على الخبر المشئوم والحقيقة المفجعة.. وسائل الإعلام تعرض صور الجثث تتقاذفها الأمواج.. مأساة جديدة نحاول أن نفر منها نتنصل من المسئولية.. لكن الحقيقة تنكشف أبعادها.. شباب حاول الفرار من الواقع المؤلم من براثن البطالة والإحباط وجد نفسه فريسة لسماسرة الموت في ظل غياب دور الدولة.. حتى البحر لم يرحم هؤلاء التعساء.. حمل بين طياته طائر الموت.. ابتلعهم ولم يدع فرصة للنجاة.. فروا من ضياع إلى ضياع.. توشحت مصر بالسواد على هؤلاء الشباب بعد أن اتضحت الصورة.. كثير من الشباب سبقوهم إلى هذا القدر المحتوم.. كانوا طعامًا سخيًا لأسماك البحر.. قدر هؤلاء أنهم غرقوا قرب الشاطئ فنبذهم البحر إلى البر.. أما غيرهم فقد تباعدت بهم المسافات وتاهوا في عرض البحر ليكون الغرق أيضًا مصيرهم وتتحول جثثهم لوليمة لسكان البحر.. تنكشف مافيا سماسرة الموت الذين يتاجرون بأحلام الشباب يحصلون منهم على آلاف الجنيهات نظير تهريبهم خارج مصر.

أما أصحاب الحظ ممن نجحوا في الإفلات من براثن البحر فقد وصلوا تائهين ضائعين يعيشون على شتات الخوف والرعب حتى لا ينكشف أمرهم فيتم ترحيلهم ليعودوا بخفي حنين.

مأساة ضمن المآسي.. قدر أبناء النيل والأهرامات.. الفراعنة استوطنوا هذه الأرض.. عمروها وشيدوا حضارة في وقت لم يكن الإنسان قد وصل لمرحلة

النضج ولم يكن يجول بخاطرهم أن الأحفاد سيفرون منها يبحثون عن الضياع يسلمون أنفسهم لسيف الغربة.. الأرض كما هي لم تتغير.. لكن الإنسان تغيرت ملامحه وتعددت طموحاته.. خلع رداء الحب.. بأنانية يبحث عن ذاته ولو على حساب الآخرين.

ما أكثر الكلام في هذا الزمان.. تتباين التحليلات حول تلك المأساة لكن يبقى الواقع المر يفرض نفسه بصور الجثث التي تصل تباعًا.. ولم يكن يوسف بمنأى عما يحدث.. لكنه لم يكن يتصور أن يرى صورة صديق عمره وبجوارها صورة غريمه هاني منشورتين في الصحف ضمن الغرقى.. صعق وانتابته حالة من الصراخ والعويل.. هرولت زوجته شاهيناز من المطبخ على هيجانه.. أمسكت به تحاول تهدئته.. لكنه ظل يغمغم بكلمات وتتلعثم كلمات أخرى.. يدور في الصالة وصراخه يزداد.. تسقط الصحيفة من يديه تلتقطها شاهيناز.. تطالع الخبر المشئوم لتقع عيناها على صورة شقيقها.. تطلق صرخة مدوية ثم يغشى عليها.

أما الأستاذ إبراهيم فقد كان يجلس على أحد المقاهي يطالع الخبر قلبه منقبض يدعو الله ألا يكون ولده ضمن هؤلاء.. لكن الصورة أوضحت كل شيء.. تعالت صرخاته.. تجمع حوله رواد المقهى يبكون معه.. حملوه إلى بيته تستقبله زوجته بقلق بالغ لا تدري ما الخبر.. تمدد على السرير تسأله بعد أن خرج من جاءوا به.. ما زال يبكي قائلاً:

"لا.. لا.. هاني.. لا.. لا.. لا".

صرخت.. اقتربت منه تسأله مذعورة: ماذا حدث؟

نظر إليها مليًا ثم قال باكيًا:

"اشتريتِ كفن ابنك بيديك".

تطلق صرخات مدوية.. تولول وتضرب خديها بكفيها.. يتجمع الجيران للمواساة.. فجأة يتوقف صوتها لا تستطيع التحكم في جسدها تهوي يغشى عليها يتم نقلها للمستشفى.

تصاب بجلطة حادة.. تفقد السيطرة على جانبها الأيمن كله.. ويعجز اللسان عن إخراج الكلام.. كلما أفاقت لا تكف عن الصراخ والعويل.. شاهيناز بجوارها تبكي لا تصدق ما حدث.. زارها يوسف يواسي الأستاذ إبراهيم.. ذهبا سويًا إلى الإسكندرية لتسلم جثة هاني.. وقف يوسف أمام الجثة يبكي.. يحدثها:

"أحيانا يصنع الإنسان تعاسته بيديه.. لكن ليس ذنبك وحدك.. بل ذنبنا جميعًا.. لو كنتم وجدتم الحياة الكريمة تناديكم ومن يأخذ بأيديكم يساعدكم لما حدث ما حدث.. ليس هذا جزاء خطفك لابني وإلا ما جزاء طه وباقي الشباب؟ ماذا فعلوا كي ينالوا هذا المصير؟ هل جزاؤكم أنكم تبحثون عن الحياة بعد أن ضاقت بكم الأرض هنا؟ جلدوكم في حياتكم.. والآن يواصلون الجلد بعد ضياعكم للأبد.. ذنبكم في رقبتنا جميعًا.. وستظل المآسي تنهمر

علينا طالما ظللنا مثل النعامة ندفن رءوسنا في الرمال.. الآن تستريحون.. تنتقلون إلى عالم العدل الإلهي.. هنيئًا لكم.. كل سيأخذ حقه.. في الدنيا ضاعت حقوقكم وتاهت مطالبكم.. أما الآن فلا ظلم ولا محسوبية.. الآن يأتي الزمان الذي يقول فيه الإنسان عندما يرى ميتًا: ليتني كنت مكانك.. الموت عدل.. كل يأخذ حقه بلا زيادة أو نقصان وأيضًا راحة.. حتى لو كان بعده عذاب فالعذاب هو جزاء عادل على ما فعلناه من ذنوب.. أما عذاب الدنيا فيطاردنا رغم أننا لم نرتكب ذنبًا".

الوجوه البائسة نفسها تفرض حضورها عند حدوث كارثة جديدة.. ما أكثر الوجوه البائسة في هذا الزمان!! الآباء يهرولون يبحثون عن جثث فلذات أكبادهم ولسان حالهم يقول: ليتنا لم نأتِ بكم إلى هذه الحياة.. حياة بلا رحمة.. أمهات ثكلى يحملن صور ثمرة فؤادهن يولولن لا يصدقن ما حدث.. أمنياتهن أن يكون كابوسًا كالذي يداهمنا في الليل الحزين ويتلاشى بقدوم الفجر.. لكن الآن صارت الحياة ليلاً دائمًا.. ذبلت العيون من الدموع في زمن تحول فيه الإنسان إلى وحش كاسر يبحث عن ذاته وملذاته يقتل أخاه في سبيل ذلك.. هجر زراعة أزهار الحب فامتلأت الأرض بأشواك الكراهية والبغضاء والتناحر والتكالب ولم يعد للحب مكان.

يقيم المهللون سرادقات العزاء.. لا يكفون عن الكلام المنمق عبر شاشات التليفزيون.. بعضهم يحمِّل هؤلاء الشباب مسئولية ما حدث لهم.. لكن ما حيلة الفراخ وقد حاصرتها الثعالب من كل جانب؟

الأستاذ إبراهيم يضرب كفًا بكف.. تختنق دموعه.. لسانه يردد: "حسبي الله ونعم الوكيل.. منهم لله من ضيعوا أولادنا.. منهم لله".

يوم طويل لم يجد يوسف سوى أن يهرول إلى النيل يجلس على شاطئه.. الأضواء تتراقص على مياهه.. عقله يكاد ينفجر.. لا يصدق ما حدث.. يبكي أحيانًا.. يمسك بحبات الحصى يلقيها في المياه الهادئة.. يقوم يسير بعصبية يركل الحصى.. يعاود الجلوس.. يواصل البكاء لا يدري على من يبكي.. على ولده الذي عجز عن استرداده أم على صديق عمره الذي ضاع وتركه وحيدًا يتخبط في ظلمات الحياة؟ يضع يديه على رأسه يصيح باكيًا:

"أنا السبب.. أنا السبب.. لماذا طاوعته وأعطيته النقود كي يسافر إلى الآخرة؟ لو كنت رفضت كان سيعجز عن السفر وسيبقى هنا ولن يغرق.. أنا السبب.. لماذا لم أمنعه؟ حاولت لكنه كان مصممًا.. رفض نصائحي.. لماذا يا صديقي لم تسمع كلامي؟ الأحباب يتساقطون وتزداد تعاستي".

ثم يرفع رأسه نحو السماء بدموع محرقة:

"يا رب.. هل هذا عقاب لي؟ ماذا فعلت كي يحدث لي هذا كله؟ يا رب أنا عبدك الضعيف لم يعد لي قدرة على مواجهة المزيد.. ارحمني برحمتك الواسعة.. خفف عني هذا البلاء وهذا العناء.. عوضني عن هذا كله بعودة ولدي إلى أحضاني".

بقي يوسف صبابة ليله على شاطئ النيل بعيدًا عن العيون يحدث

نفسه يعاتبها.. يصرخ فيها يسألها.. تزداد الأسئلة وتبقى كالعادة بلا إجابات.

بينما شاهيناز بجوار أمها العاجزة تبكي بلا انقطاع.. تحاول أن تستعيد ما حدث لكن عينيها لا تريان سوى ظلام.

بينما أبوها يغالب دموعه وهو ممدد على السرير.. بصره شاخص نحو سقف الحجرة يحاول أن يفهم.. يستوعب ما حدث.. بين كل لحظة وأخرى تعلو آهاته.

أما والد طه فقد مكث في المسجد.. قرر ألا يبرحه.. سيمضي بقية عمره خادمًا لضيوف الرحمن.. هكذا قال ليوسف عندما ذهب إليه يحاول أن يخرجه من أحزانه ويعيده لبيته فكان رده:

"البقاء هنا أفضل.. هنا في بيت الله آخر قلاع الدنيا المحصنة ضد آفات الحياة.. هنا لا يوجد غش أو كراهية.. تتساوى الرءوس.. قبل أن يخلع الإنسان حذاءه يخلع أي قناع مزيف قد يختفي خلفه حتى لو كان دخوله هنا رياء ونفاقًا.. عظمة المكان تفرض على الإنسان أن يكون إنسانًا حقيقيًا.. هنا الأمن والإيمان والسعادة الحقيقية".

أما جاره الأسطى عرفة فقد حزن بشدة على مصير طه ونظر ورفع حاجبيه نحو السماء قائلاً:

"الحمد لله أنني تركت المدرسة ولم أكمل تعليمي".

16

العواصف لا تنتهي في حياة يوسف.. تمضي بـه الأيـام.. يحـاول أن يبحث عن ذرة أمل وسعادة.. لكن واقعـه المريـر يفـرض عليـه أن يـنغمس في الأشجان يتلقى الضربات الموجعة.

وحيدًا تمضي به الأيام بعد أن بقيت زوجتـه بجـوار أمهـا العـاجزة تقوم على شئونها رغم متاعب الحمل.

فأغلق يوسف بابه يعيش وحيـدًا بـصحبة همومـه يطـالع صـور مـن فقدهم وضاعوا من حياته بعد أن انضم طه إلى تلك القائمة ومعه هـاني.. رغـم أنـه لم يكـن لديـه رغبـة في وضـع صـورة الأخـير.. لكنـه لم يـشأ أن يغـضب زوجته.. فمهما بدر منه فهو شقيقها ولا بد من مراعاة مشاعرها.. فقد طلبت ذلك.. مؤكدة أن شقيقها ضحية صديق السوء علاء.. وضع صورة هاني بجـوار صورة ولده طارق ولسان حاله يقول: الخاطف والمخطوف.. رحـل الخـاطف.. جزاؤه عند ربه وبقي المخطوف أسيرًا.

جاء يوم انعقاد جلسة المحكمة.. كـان يوسـف يـود أن يكـون طـارق

حاضرًا.. لكن خاب ظنه.. فقد حضر عمران منتفخًا كعادته يسير بجسده المترهل ونظراته الحادة وسط محاميه.

جلس يوسف بجوار المحامي والأستاذ إبراهيم الذي بدا منكسرًا.. عيناه تائهتان وعقله شارد.. صورة ولده هاني لا تفارقه.. غابت شاهيناز.. ما زالت بجوار والدتها.

بدأت وقائع الجلسة.. حيث تبارى محامي عمران في مرافعته.. يحاول أن يؤكد كذب يوسف وتفنيد أدلته.. مؤكدًا أنه إنسان انتهازي يتاجر بآلام طفل صغير جنت عليه الظروف وجعلته يرى الموت بعينيه ويراه وهو يخطف والده أمام عينيه في عرض البحر وأنه يطمع في التعويضات التي سيتم صرفها للطفل.. لم يحتمل يوسف ذلك الكلام فصرخ صرخة مدوية قائلاً: "كذب.. إنه ابني".

هرج ومرج حدثا في القاعة واختلطت الأصوات.. لكن القاضي أمر يوسف بالصمت محذرًا إياه من التحدث مرة ثانية.

امتثل يوسف منكسرًا يمسح دموعه.. بينما ارتسمت ابتسامة قبيحة على وجه عمران.

يكمل المحامي مرافعته.. مؤكدًا أن يوسف اختلق قصة وهمية بعد اتفاقه مع الشهود على ذلك حتى يستولي على التعويضات وأنه إنسان مخادع.

هنا قام محامي يوسف معترضًا بشدة على إصرار محامي عمران على

إهانة موكله.. فأمر القاضي المحامي بألا يستخدم ألفاظًا جارحة.. لكن المحامي كان قد انتهى من مرافعته بعد أن قدم للقاضي ملفًا مكتظًا بالورق يؤكد صحة كلامه.

يقوم محامي يوسف ليرد في مرافعته على ادعاءات محامي عمران.. مؤكدًا أن يوسف لا يريد أي تعويضات.. لأنه لو أصدرت المحكمة حكمها لصالحه فلن يكون من حق الطفل صرف تعويضات.. لأنه ليس ابن المرحوم حمدي.. حتى لو صرفت تعويضات للطفل فإن موكله متنازل عنها ولا يريد أي شيء سوى استعادة طفله الذي خُطف واعترف الخاطف بذلك وأنه سلم حمدي ابن يوسف على أنه ولده ليكون بديلاً لابنه الذي ضاع واختفى دون أن يعثر عليه.. ثم طلب أن يتم استدعاء علاء من محبسه كشاهد أساسي مع استدعاء الأستاذ إبراهيم –والد هاني المتهم الثاني في قضية خطف طارق– وكذلك شقيقته شاهيناز.. على اعتبار أنهم استضافوا هذا الطفل لمدة يومين وكذلك استدعاء جار جدة الطفل.. فهو الذي شاهد الطفل ويعرف شكله جيدًا.

يقرر القاضي تأجيل القضية لاستدعاء الشهود وسماع أقوالهم.. ليعود يوسف لأحزانه.. يغلق بابه ليس لديه أي شيء.. عاد يعيش وحيدًا.. زوجته ما زالت بجوار أمها والوحيد الذي كان يطرق بابه ودائم السؤال عنه رحل.. تركه وحيدًا في عالم غريب لا يقوى على مواجهته أو فك لوغاريتماته.. باتت الدموع كخياله لا تفارقه.. ينتظر الغد بأمل مشوه كسيف خشبي مكسور..

بدأ محاولة إقناع نفسه أن ابنه ضاع للأبد وعليه أن ينساه.. لكنه يصرخ: مستحيل.. لو حدث ذلك فهو حكم بالإعدام.. الأفضل أن أموت أو حتى أنتحر وأتخلص من حياتي.. فلا يعقل أن أفرط في حقي هكذا.. يبكي متضرعًا لربه أن يكشف تلك الغمة.. طال الليل والدجى والأيام تمر رتيبة كئيبة بلا روح أو أمل تضيق حلقاتها.. دخان خانق يملأ جعبتها.

أما علاء فعندما علم بوفاة شريكه هاني كاد يجن.. أخذ يهرول في زنزانته يود أن يضرب رأسه في الحائط.. لا يصدق.. ضغط على رأسه بكلتا يديه وهو يصيح:

"طول عمره محظوظ.. حتى في موته محظوظ.. رحل ليتركني وحدي أتجرع العذاب رغم أنه هو المخطط لكل ما حدث وكنت معترضًا.. لكن جزائي أنني طاوعته ثم تركني أواجه ظلمات السجن والآن يهرب من الدنيا كلها.. لماذا لم يقل لي موضوع السفر ويأخذني معه؟ ليتني كنت معه.. فالموت أرحم".

ثم ألقى بنفسه على الأرض يلتقط أنفاسه حتى بدأ يهدأ فنظر ناحية النافذة الحديدية الضيقة يتنفس النور قائلاً:

"إرادة الله.. ربما أراد ذلك حتى تكون فرصة كي أتوب.. لكن في النهاية هو محظوظ.. ما أعرفه أن الغريق شهيد.. ليتني كنت معه!!".

أما طارق فقد حاول عمران ترويضه.. لكن الطفل كان دائم الصراخ كلما

اقترب منه أحد.. طوال الوقت منكمش متقوقع في سريره.. نظرات الخوف والهلع لا تفارقه.. تنتابه رعشة كلما نظر إليه أحد.. الكوابيس تقض مضجعه.. ولم تنجح بعدُ جلسات الأطباء النفسيين في إخراجه من تلك الحالة.

عندما عاد عمران من المحكمة دخل عليه مبتسمًا محاولاً مداعبته لكن الطفل صرخ فغضب لا يدري ماذا يفعل معه.

قال الطبيب في آخر جلسة إنه يحتاج لعلاج نفسي طويل وجلسات متعددة وبمرور الوقت سوف تتحسن حالته.

لكن عمران بدا على وجهه الامتعاض غير مقتنع بكلام الطبيب.. لكنه نفذ أوامره بأن أخرج الطفل في نزهة ترفيهية.. حيث زارا حديقة الحيوان وقلعة صلاح الدين والأهرامات والملاهي.. بذل خلالها جهودًا مضنية ليتقبل الطفل الوجود وسط الزحام وكم كانت سعادة عمران عندما بدأت مخاوف الطفل تبدد وصراخه يقل.. لكن كوابيس الليل ما زالت تطارده.. مما جعل زوجة عمران تتذمر وتأمره أن يأخذه إلى زوجته الثانية.. فانفعل عمران واتهمها بأنها بلا قلب ولا تصلح أن تكون أمًا فردت غاضبة:

"ليس ذنبي أن الله لم يرزقني بطفل.. أنت تعلم من السبب في حرماني من ذلك".

فوجئ بردها الذي يشبه صفعة قوية أو طعنة غادرة لم يتوقعها..

فبدا عليه الانكسار.. فقالت محاولة التخفيف من أثر كلامها:

"لم أقصد معايرتك.. لكن هذا الطفل منذ مجيئه قد قلب حياتنا".

فصرخ في وجهها:

"ابن أخي ولن أفرط فيه".

فردت والدموع تخنقها:

"ومن قال لك إنه ابن أخيك؟".

اشتعل عمران غضبًا وبدا وحشًا يود الانقضاض على فريسته.. فخافت من نظراته وتوارت عنه فأتبعها بصوته:

"خذي راحتك ولن يبقى زياد هنا".

وبالفعل أصر على اصطحابه في منتصف الليل إلى زوجته الثانية التي استقبلته ببرود وتجهم عندما رأت الطفل برفقته.. مما جعله يبذل مجهودًا ضخمًا كي يقنعها بضرورة الاعتناء بالطفل.. لكن ردها جاء مخيبًا لآماله حيث قالت:

"لماذا لا تتركه للرجل الذي يدعي أنه ابنه وتريح نفسك أفضل؟".

فصاح أشد غضبًا:

"إنه أمانة تركها أخي.. مستحيل أن أفرط فيه".

- وهل أنت مقتنع أنه ابن أخيك فعلاً؟

أطرق هنيهة ثم قال:

- لقد كان مع أخي لحظة وفاته.. وبالتالي فهو ابنه.. ولن أقبل أي شيء آخر.. حتى لو جاء حكم المحكمة في غير صالحي فلن يمس هذا الرجل شعرة من ابن أخي.

فردت غاضبة:

- إذًا أحضر له مربية أفضل.

فأومأ برأسه بالموافقة قائلاً:

- سيحدث.. لكن بعد حكم المحكمة.

١٧

حياة بلا طعم.. آلام لا تود أن تبرح الجسد الآمن.. طريق طويل من العذاب سار فيه دون اختيار.. دون أن يدرك معالمه أو ملامحه وبلا سلاح أو عصا يتكئ عليها ينازل بها تلك الهموم يود الهروب.. لكن إلى أين؟ والقدر لا يسير وفق رغباتنا.. ربما نتمنى الموت أحيانًا بعد أن نضب زاد الأمل وبدت الحياة صحراء لا نهاية لها والعطش ينهك قوانا.. نجمع صبابة من الأمل ربما نصادف منقذًا يبعث النور من جديد.. نشعر حينئذ أن الحياة لم تمُت بعدُ.. وهذا الموت الذي كنا نتمناه أصبحنا نخاف منه.. لا نود أن نسمع عنه أو نتذكره.. هي الحياة عواصف لا تهدأ.. تتباين أحوالنا بين السعادة والمرارة.. الرضا والقنوط.. الحب والكراهية.. الأمن والخوف.. التعاون والتناحر.. الإخاء والعداء.. لا استقرار.. وأحيانًا بلا اختيار نود أن تبقى الحياة نهارًا دائمًا.. لكن نار الظلمة لا بد أن تنال منا.. الإنسان رغبات تتفق أحيانًا مع الآخرين وكثيرًا ما تتعارض معهم لتنمو المشاكل وتتعدد الصراعات.. كل يبحث عن ذاته.. يظل يكافح ويجاهد منذ مجيئه في الصباح الباكر يفعل ما يشاء حتى تأتي لحظة غروبه يود أن يعود يظل خالدًا لكنه

خُلق لكي يرحل.. لحظة غروبه يصبح كأن لم يكن.. فهو ورقه هشة في شجرة عتيقة إذا سقطت ورقة فلن يشعر بها أحد.. فالأوراق تنمو وتتزايد لتظل الحياة في مسارها دون توقف بعد أن خدعت الإنسان وصورت له أنه يستطيع أن يملكها ويعيش فيها مخلدًا لحظة وداعه تسخر منه وهو يعض أنامل الندم.. رحل وقد ترك ما جمعه وكنزه وخُلع عنه رداء الجاه والعظمة.. مسكين الإنسان.. زوده الخالق بالعقل ليتعظ ويتدبر لكنه ينسى في غمار الحياة.

أفكار تدور في عقل يوسف تؤنس وحدته.. يتعجل الأيام أن تسرع الخطى.. المحامي يطمئنه.. القضية تسير في مصلحتنا وصار الحكم مضمونًا.

* * *

يوم الجلسة حضر يوسف بصحبة شاهيناز ووالدها والمحامي.. بدأت الجلسة بالاستماع للشهود.. نودي على علاء ليدخل يجر أذيال الخيبة والندامة.. عيناه في الأرض تكسوهما علامات الانكسار.. يسأله القاضي عن علاقته بالطفل.. دقات قلب يوسف تتسارع والخوف يلازمه.. لكن سرعان ما يتبدد مع اعترافات علاء الاعترافات السابقة نفسها.. سأله محامي عمران:

"لماذا اخترتما هذا الطفل بالذات؟".

رد علاء:

"أنا وهاني كنا نبحث عن أي طفل نقدمه على أنه زياد".

– هل كنت تعرف والد الطفل المخطوف؟

– لا.

– إذًا أين ذهب الطفل زياد؟

– لا أدري.. هو اختفى فجأة ولم نعثر عليه.

– قصدك "فص ملح وداب"؟ سيدي القاضي.. لو كان هذا ليس ابن أخ موكلي فأين هو الآن؟ وهل يعقل أن تكون هناك قصة هكذا؟ طفل يضيع فنقوم بخطف طفل بدلاً منه!

ثم سأل علاء مرة أخرى:

– هل هناك فرق بين الطفل الأصلي وهذا الطفل؟

– اختلافات بسيطة.. زياد كان لونه يميل إلى الأسمر قليلاً.

انتهت أسئلة المحامي وخرج علاء تلتقي نظراته مع يوسف.. فيهرب بعينيه إلى خارج القاعة.

نودي على الأستاذ إبراهيم.. يقوم والحزن والوهن يسيطران عليه.. يسأله القاضي عن علاقته بالطفل ليؤكد أن ابنه هاني أحضر هذا الطفل مدعيًا أنه ابن أحد أصدقائه تركه معه لكي يذهب ليحضر زوجته الغاضبة من عند أهلها في الصعيد.. طلب منه القاضي أن يدقق في ملامح الطفل ليتأكد إن كان هو أم لا.. فنظر للطفل مؤكدًا أنه هو بعينه.. ثم أكمل قائلاً بعد أن تعرف يوسف

على ابنه هاني وتأكد أنه هو الذي خطف ابنه هرب هاني واختفى.. لكنه اتصل به فور هروبه فسأله عن الحقيقة فأكد له صدق كلام يوسف وأن الطفل ضاع من علاء فاشتركا في خطف هذا الطفل من والده هذا -يشير إلى يوسف الذي انفرجت أساريره بينما ظهر الغيظ والغضب على وجه عمران- ثم قدما هذا الطفل إلى حمدي على أنه ابنه زياد.

سأله محامي عمران:

- أستاذ إبراهيم.. أنت رجل معلم ومربي أجيال.. لكن واضح أنه كانت هناك خلافات مع المرحوم ابنك لدرجة أنه ترك البيت.. صح؟

فرد الأستاذ إبراهيم بحزن بالغ:

- نعم.

- إذًا ما الذي يضمن لنا أن ابنك لم يكن يكذب عليك؟

تنهد من أعماقه واستجمع قواه قائلاً:

- بعد أن اتضحت حقيقة ابني.. لم يعد أمامه سوى أن يقول الحقيقة.

- قالها في التليفون.. صح؟

- نعم.

- هل كنت متأكد أنه فعلاً ابنك؟

- معقول لا أعرف صوت ابني وأميزه.

- ربما هناك من يقلد صوته.

فانفعل الأستاذ إبراهيم:

- قلت لك إنه ابني.. أعرف صوته من بين ملايين الأصوات.

- أستاذ إبراهيم.. ابنك هو الذي خطف ابن هذا الرجل (يشير ناحية يوسف) وفي الوقت نفسه هذا الرجل متزوج من ابنتك.. هل تستطيع أن تفسر لي ذلك؟

قام محامي يوسف معترضًا على هذا السؤال ليدور جدل بينهما.. يتدخل القاضي فورًا موجهًا حديثه لمحامي عمران إذا كان هذا السؤال له علاقة بالقضية.. فرد المحامي بتأكيد أهميته.. فرد الأستاذ إبراهيم:

- يوسف تعرف على ابنتي شاهيناز صدفة وقبل أن يعرف أن شقيقها هاني هو الذي خطف ابنه.

فيرد المحامي بأنه اكتفى بهذه الأسئلة.. بينما يوسف خفقات قلبه في أوج فورانها يرمق محامي عمران بنظرات غيظ.. بينما عاد الهدوء لعمران.

ليأتي الدور على شاهيناز لتؤكد كلام والدها في سبب معرفتهم بهذا الطفل.. يسألها محامي عمران:

- مدام شاهيناز.. أنت زوجة المهندس يوسف فكيف كان التعارف

بينكما؟

أجابت بأن قصت وقائع اللقاء الأول بينهما في قسم شرطة الأحداث.. ثم سألها:

- ماذا كان رد فعل زوجك بعد أن عرف أن شقيقك هو الذي خطف ابنه؟

أجابت في ثقة:

- الحب ينتصر على أي شيء.

- هل معقول أن زوجك لم يشاهد هاني إلا يوم زفافكما؟

- نعم لأن هاني كان قد ترك البيت.

- هل كان هناك اتصال بينك وبين هاني بعد كشف الحقيقة وهروبه؟

أجابت بالنفي.

- إذًا لم يذكر لك حقيقة هذا الطفل؟

- نعم.. لكن قبل ذلك كنت كلما سألته عن هذا الطفل قبل أن نعرف أي شيء عن حقيقته كان يرتبك ويتهرب من أسئلتي.

أطرق المحامي هنيهة ثم سألها:

- هل شاهدت صورة لهذا الطفل من قبل مع زوجك؟

- نعم.

فرد على الفور:

- معقولة.. حضرتك لم تلاحظي أن هناك تشابهًا لو كان فعلاً ابنه؟

ردت بأسى:

- نعم لاحظت.. وكان لديَّ شك.. لكن لم أكن أتوقع أن يقدم أخي على ذلك الفعل.

سؤال أثار فضول يوسف.. رغم أنه كان يغلي من أسئلة المحامي المستفزة.

يدخل الشاهد الرابع وهو جار جدة الطفل.. رجل في العقد الخامس من عمره يبدو عليه الوقار بلحيته البيضاء.. يسأله القاضي: هل تعرف شكل وملامح الطفل الذي كان يعيش مع جارتك؟ فأجاب بنعم.. أعرفه جيدًا.. فأمره أن يذهب ناحية الطفل الجالس بجوار عمران ليدقق في ملامحه ففعل.. ثم سأله: هل هذا هو الطفل فعلاً؟ تمهل الرجل ونظراته صوب الهدف ثم نظر للقاضي قائلاً بثقة:

"لا ليس هو.. هذا طفل آخر".

ساد هرج ومرج في القاعة وتهللت أسارير يوسف.. بينما ظهر الغضب الشديد على عمران ليعود الهدوء بعد تدخل القاضي.

يسأل المحامي ذلك الشاهد عن أوجه الاختلاف بين الطفلين.. يقول الشاهد:

- الطفل الذي أعرفه كان لونه قمحيًا بينما هذا الطفل لونه أبيض.

- فقط. أم مثلا لون العين أو الشعر؟

يفكر الشاهد لحظات ثم يقول:

- هذا الطفل شعره ناعم.. أما الآخر فقد كان شعره غير ناعم.

يخرج بينما أكمل المحامي مرافعته:

- هل تعتقد سيدي القاضي أن لون البشرة يمكن أن يكون فيصلاً؟ أعتقد أن شهادة الشهود تؤكد أنها مؤامرة مدبرة للاستيلاء على هذا الطفل.. نحن لا ننكر أن ابن هذا الرجل (يقصد يوسف) تم خطفه.. لكن صورت له نفسه أن هذا الطفل هو ابنه عندما رأى صورته في الجرائد واختلق قصة وهمية بمساعدة أقاربه للاستيلاء على هذا الطفل من دون وجه حق ولا بد أن نعذره فقد ضاع ولده فأصيب بحالة تجعله عندما يرى أي طفل يعتقد أنه ولده.. لهذا أطلب من عدالة المحكمة عرض هذا الرجل على طبيب نفسي لبيان مدى سلامة قواه العقلية.

ضجت المحكمة بالاعتراض وانفعل يوسف وكاد ينفجر غيظًا وتعالت الأصوات تندد بكلام المحامي.. بينما انتابت عمران حالة من الضحك

والسخرية بينما الطفل على حاله في حالة من الخوف والتوهان.

اضطر القاضي للتدخل لإعادة الهدوء للقاعة.. وقف محامي يوسف يعترض بشدة على كلام محامي عمران قائلاً:

- إن الأستاذ المحامي يريد أن يخرج القضية عن مسارها الأصلي ليدخل بها إلى قضايا فرعية.. ومحاولاته دائمة لتجريح وإهانة موكلي.. وهو ما يتنافى مع آداب مهنة المحاماة.. ثم إن شهادة الشهود كشفت عن الحقيقة ولا يوجد أي تناقض.. بل متسقة مع بعضها وتؤكد أن هذا الطفل ابن موكلي وأن الطفل الأصلي قد ضاع ولم يتعرف والد الطفل على ابنه عندما تسلمه من علاء وهاني.. لأنه تركه وعمره أيام.. أي لم تكن له ملامح واضحة.. فضلاً عن أن عم الطفل رفض استضافته رغم مقدرته المادية والآن يتمسك بالطفل ليؤكد ذلك أنه يطمع في الاستيلاء على التعويضات الخاصة بالطفل وحصيلة ما تركه شقيقه من أرصدة في البنوك.. حيث سيكون هو الوصي على ابن شقيقه.. أما مسألة أن هناك خطة مدبرة واتفاقاً مع الشهود فهو أمر لا يقبله أي عقل.. فلا يمكن لشاب أمامه مستقبل عريض أن يضحي بحياته ويعترف على نفسه بجريمة تزج به خلف القضبان.. هذا بجانب التشابه الكبير بين موكلي والطفل.. أما لو نظرنا لصورة المرحوم حمدي المرفقة بالملف الماثل أمام سيادتكم فسوف نكتشف الفارق الشاسع بين الملامح.

انتهت المرافعة ورُفعت الجلسة للمداولة.. يوسف يختلس النظرات

نحو الطفل.. تبدو عليه علامات الثقة بجواره شاهيناز تقاوم آلام الحمل تشد من أزره بينما انشغل عمران في حوار عاصف مع محاميه.. وجهه وضحكاته تنم عن قلقه وتوتره.. تدخل هيئة المحكمة يعود الهدوء للقاعة.. العيون متعلقة بما سينطق به القاضي.. يوسف يكاد يقفز من على مقعده وعمران يفرك يديه يضغط على أنامله.

ينطق القاضي بالحكم بتحويل يوسف والطفل إلى الطبيب الشرعي لإجراء تحليل الحامض النووي.. تضج المحكمة بالتهليل والتصفيق.. ويطلق يوسف صيحات الفرحة.. يحتضن الأستاذ إبراهيم.. يبكي فرحًا لأول مرة يشعر أن ولده على بُعد خطوات قليلة منذ لحظة اختطافه.. شاهيناز تشاركه الفرحة وهي تردد: هذا التحليل لا يكذب أبدًا.. اعتبر طارق عاد من الآن.. بينما اسود وجه عمران وبدا عليه الغضب الشديد وزادت عصبيته عندما رأى يوسف يطير من الفرحة.. مما جعله ينسحب بسرعة من القاعة ومعه الطفل.

خرج يوسف وسط فرحة من حوله.. لكنه فوجئ بعمران يقف على باب المحكمة معه أتباعه وعندما اقترب منه أطل بوجهه الفظ القبيح نحو يوسف يصيح غاضبًا والشرر يتطاير من عينيه:

"نفذت ما تريده.. افعل ما شئت.. لكن ما دمت موجودًا فلن تمس شعرة من الطفل حتى لو حصلت على حكم بضمه وأرني وقتها كيف ستنفذ الحكم".

ثم اندفع تاركا يوسف في حيرة شديدة وقلق بعد أن طارت الفرحـة.. لكن الأستاذ إبراهيم أمسكه من يديه قائلاً:

"ولا يهمـك.. لـن يـستطيع فعـل أي شـيء.. هـذا رد فعـل طبيعـي للمهزوم.. وأكبر دليل على عجزه وعدم قدرته على التصرف السليم".

لكن يوسف سار تائهًـا تـرن في أذنيـه كلمـات عمـران.. عـادت معـه شاهيناز تحاول أن تعيد البسمة إليه.. في المساء عاودتها آلام الحمل.. أراد أن يأخذها للطبيب لكنها رفضت قائلة: "هـي آلام بـسيطة.. الطبيـب حـدد لـي موعد الولادة غدًا فلنذهب إليه غدًا بإذن الله".

18

صباح يوم جديد بدأه يوسف بقلب منشرح.. فتح نافذته ليرى شروق الشمس.. نسمات التفاؤل تداعبه.. السماء صافية والطيور تنطلق تبحث عن رزقها.. عيناه تطالعان هذا الجمال البديع.. لوحة فنية تبعث في النفس الراحة والطمأنينة.. لا يجد الإنسان سوى أن يقول: كم هي الحياة جميلة!! ماذا لو ترك الإنسان هذه اللوحة دون أن يمسها بخطوط تخريبية تشوه روعتها وتفسد رونقها؟ جاءت زوجته تقف خلفه تقول مبتسمة:

"يا رب تظل هكذا سعيدًا".

التفت إليها مبتسمًا:

"أعتقد أن الحياة الآن طعمها مختلف وستعوضنا إن شاء الله عن الأيام السابقة.. وعودة طارق اقتربت وولادة طفلنا الجديد ستجعل للحياة مذاقًا خاصًا.. سترفرف طيور السعادة على عشنا الهادئ نستمد منها الحب والعطاء ونعوض كل ما فاتنا.. بعد عودة طارق وولادة طفلنا سوف نأخذ إجازة من العالم ونسافر إلى منطقة هادئة نستمتع فيها بكل لحظة من حياتنا ننسى كل

الأحزان السابقة نفتح أذرعنا نستقبل نسمات حياتنا الجديدة نلقي عن كاهلنا كل شيء يعكر صفو سعادتنا".

ردت تكاد تقفز من السعادة:

"إن شاء الله ما دمت معنا فهذا يكفي.. فأنت الحب والسعادة والحياة كلها".

ثم همًّا أن يذهبا للطبيب حيث حدد لها اليوم موعدًا للولادة.. لكنه بمجرد أن فتح الباب فوجئ بعسكري يعترض طريقه ويخبره أنه مطلوب حضوره لقسم الشرطة لأمر مهم.. انزعجت شاهيناز وبدا القلق على يوسف بعد أن أكد العسكري أنه لا يعلم سبب استدعائه.. فقام يوسف بتوصيل شاهيناز لعيادة الطبيب وتركها بعد أن رفض طلبها أن تذهب معه.. ثم اتصل بالمحامي كي يقابله.. وبالفعل وجده في انتظاره على باب القسم.. فوجئ يوسف بالضابط يخبره أن عمران قدم بلاغًا يتهمه بخطف الطفل ابن أخيه.. انزعج يوسف وبدا الغضب الشديد عليه وتذكر كلام عمران على باب المحكمة ليهوي على الكرسي يضرب كفًا بكف.. بينما المحامي يشرح للضابط أبعاد القضية.. مؤكدًا أنها لعبة مكشوفة من جانب عمران.: خاصة بعد حكم المحكمة الأخير.

تم إخلاء سبيل يوسف بعد أخذ أقواله.. وعلى باب القسم قال المحامي:

"لا تقلق.. إنها لعبة قذرة.. ولا شك أنه قام بإخفاء الطفل في مكان

معين للتمويه".

لكن يوسف بدا في حالة من القلق والتوتر.. عقله في حيرة شديدة.. هل هي قصة اختلقها عمران أم أن الطفل قد تم اختطافه بالفعل؟ لكن من خطفه مرة ثانية؟ ولمصلحة من؟

تكالبت الهموم من جديد.. انسابت الدموع على خده.. لا يدري ماذا يفعل.. كلما شعر بقرب عودة فلذة كبده تطفو أمور جديدة تبعده مئات الأميال وتتقهقر به للخلف.. يتساءل: لماذا يحدث لك هذا كله يا طارق؟!

فكر ماذا يفعل.. نسي زوجته التي على وشك الولادة الآن.. صورة طارق لا تفارقه.. استقل سيارته وانطلق إلى عمران.. لا بد من مواجهته.. هكذا حدث نفسه ليعرف مصير طارق هل ضاع من عمران بالفعل.

وصل إلى عمران ليجده كالعادة يجلس في صدر شادره يدخن الشيشة وحوله عماله منهمكون في عملهم.. دخل على عمران يدفعه القلق والخوف على ولده.. فلما رآه عمران صاح غاضبًا:

- ماذا تريد؟ لماذا جئت إلى هنا؟

وقف يوسف يلتقط أنفاسه وأخرج منديلاً يمسح عرقه ثم قال بصوت متقطع:

- أين طارق يا معلم؟

اندهش عمران وظهر الغيظ على وجهه:

– طارق؟! طارق من؟

– الطفل يا معلم.

– آه.. قصدك زياد ابن أخي؟

– نعم يا معلم.

– يا بجاحتك.. خطفت الطفل وجئت هنا تسأل عنه؟

مسح يوسف عرقه والتقط أنفاسه:

– أرجوك يا معلم.. قُل الحقيقة.. الطفل معك أم ضاع منك؟

فانتفض عمران غاضبًا:

– قصدك إن أنا كذاب؟ اسمع.. أنا صبري طال عليك.. ولو تجاوزت حدودك أكثر من ذلك فلن تخرج من هنا سالمًا.

صاح يوسف باكيًا:

– يا معلم حرام عليك.. قدر موقفي.. أنا أب لا أريد أي شيء سوى أن يعود ولدي لحضني.

جلس عمران يكتم غيظه:

– اذهب ابحث عنه بعيدًا عني.

رد يوسف مواصلاً بكاءه:

– أرجوك طمني عليه.

أطلق عمران ضحكة كريهة:

– أخذته العصفورة وطارت.

كتم يوسف غيظه وحبس دموعه قائلاً:

– فاقد الشيء لا يعطيه.. لذلك لن تعرف معنى الأبوة وقيمة فلذة الكبد.

طعنة فوجئ بها عمران جعلته ينتفض كالمجنون لدرجة أن الكرسي سقط للخلف وتبعثرت الشيشة وردد بصوته الغليظ:

– جئت إليَّ لكي تعايرني؟ امش مِن أمامي الآن.. ممكن أرتكب جناية.

تجمع العمال يطوقون يوسف الذي عادت دموعه تنفجر وهو يقول لعمران مستعطفاً:

– أنا آسف يا معلم.. لكن أرجوك قدر موقفي وطمني.. هل الطفل معك فعلاً أم ضاع.. أنا مستعد أتنازل عن القضية وخذه طالما هذا يرضيك.. ليس مهمًا الآن يحمل اسم من.. المهم أن أطمئن أنه موجود ويعيش حياة كريمة.

رد عمران وهو ما زال على ثورته:

- لن أعطيك جوابًا يريحك.. بل سأجعلك تعيش في عذاب هكذا ولن ترى الطفل أبدًا.

انفجر يوسف غاضبًا:

- لماذا هذا كله يا معلم؟ ماذا فعلت لك كي تعاملني هكذا؟ قلت لك خذ الطفل لكن من حقي أن أطمئن عليه.. لا يكُن قلبك صخرًا.

ضرب عمران كفًا بكف وهو يقول:

- أنت مصمم على إهانتي.. اخرج من هنا.. لو جئت مرة ثانية فلن تخرج سليمًا أبدًا.. واسمع.. انسَ تمامًا الطفل.. أنا لا يهمني حكم محكمة ولا أي شيء.. سأنفذ ما أريده فقط.

عاد يوسف يبكي واستدار عائدًا وهو يردد: "منك لله.. حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل".

سار يوسف يكاد يسقط من الإعياء لا يرى سوى ظلمة شديدة رغم أن الشمس في كبد السماء.. عندما وصل لسيارته مال ليفتح الباب كاد يسقط على الأرض لولا أن استند على سقف السيارة.. يشعر باختناق شديد.. فك زرار القميص يبحث عن هواء يتنفسه.. العرق يلجمه والدموع تحرقه.. ركب السيارة.. شعر باختناق شديد.. الضيق يعتصر قلبه.. أخذ يفرك رقبته يفك

مزيدًا من أزرار القميص.. أخرج رأسه من الشباك.. يشعر بإرهاق شديد.. صداع يكاد يقطع رأسه إربًا إربًا.. حاول أن يدير السيارة.. لكن يديه لا يستطيع التحكم فيهما.. لا يصدق ما يحدث له.. عقله يكاد ينفجر.. مال برأسه على "الدركسيون" يبكي بكاء مريرًا.. أدرك أنه محال أن يعود ولده.. يعض على أنامله.. يرفع رأسه يضغط عليه بكلتا يديه.. يحاول أن يستعيد توازنه.. لكن وجه عمران القبيح وكلماته تمزقه.. تجعل عقله تائهًا.. أدار محرك السيارة.. حاول أن يركز في الطريق لكن عينيه لا تريان سوى ظلام لا نهاية له.. دموعه سيل لا يتوقف.. الاختناق يطارده.. الإرهاق والإعياء يسيطران عليه.. بدا طريق الأوتوستراد أمامه جبلاً من الأشواك يتقلب عليه.. يمسك "الدركسيون" بعنف.. كلمات عمران تجعل الآهات تخرج منه كمن يشرب ماء مغليًا.

ينطلق بسيارته تائهًا يكاد يصطدم بالسيارات وبدت سيارته كريشة يتقاذفها الهواء.. وصل إلى مرحلة تشبه الغيبوبة لا يلمح أي شيء على الطريق.. السيارة تسير بلا قائد.. حتى انتبه فجأة على سيارة نقل قادمة من طريق فرعي تقطع عليه الطريق.. حاول استعادة توازنه وتركيزه.. لكن السيارة لم تطاوعه.. فقد السيطرة عليها.. تأرجحت يمينًا ويسارًا حتى عبرت الجزيرة الوسطى إلى الاتجاه المعاكس لتنقلب على جانبها.

في تلك اللحظة كانت شاهيناز تلد.. صرخات طفله تخترق الحياة..

روح ولده الجديد تدخل الحياة تعلن عن قدومه بصراخه.. بينما زوجته في استسلام البنج.

عندما أفاقت أول شيء سألت عن يوسف.. حاول والدها أن يخفي أحزانه وهو يطمئنها.. لكنها صرخت تطالبه بأن يقول لها الحقيقة.

لم يتمالك عمران نفسه من الفرحة ومحاميه يخبره بمصرع يوسف في حادث سيارة.. شعر بارتياح شديد قائلاً:

"الآن أصبح الطفل من حقي ولن ينازعني فيه أحد بعد الآن".

ثم انطلق إلى صديقه مرزوق المقيم في المقطم الذي ما إن رآه حتى صاح:

"الولد تعبني.. لا يكف عن البكاء منذ أن أحضرته لي".

ضحك عمران قائلاً:

– لا تقلق.. لن أتركه بعد اليوم.. فلقد مات ذلك الرجل الذي كان ينازعني فيه وكنت قد أخفيت الطفل عندك للتمويه.. والآن بعد أن مات الرجل لم يعد هناك خوف".

أحضر مرزوق الطفل الذي بدا عليه الخوف والذعر فاحتضنه عمران قائلاً:

"لا تخشَ شيئًا.. انتهت القصة وأصبحت من حقي للأبد".

لم يفهم الطفل شيئًا وانطلق مع عمران الذي يقود سيارته يكاد يرقص

فرحًا.. يفكر في الخطوة المقبلة يتنفس نخب الانتصار.. تتراقص ذراعه مع "الدركسيون" والطفل يلهو بالنظر من الشباك.. بينما عمران ما زال غارقًا في أفكاره.. لا ينتبه لشدة انحدار الطريق وما به من التواءات خطيرة.. لا ينتبه إلا والسيارة تجنح منه بشدة.. حاول أن يستعيد سيطرته عليها لكنه فشل لتندفع وتهوي به إلى أسفل في مكان سحيق.. من حسن حظ طارق أن الباب الذي بجواره فُتح فجأة ليسقط على جانب الطريق قبل أن تذهب السيارة إلى الهاوية بعمران الذي اختلط لحمه وعظامه بهيكل السيارة.. يصرخ طارق.. كُتب عليه أن يرى الموت أكثر من مرة وأهون على النفس أن تموت دون أن يظل شبح النهاية يطل عليها يفزع أمنها.

نُقل طارق إلى المستشفى لعلاجه من بعض الرضوض البسيطة التي أصابته ورفضت زوجتا عمران تسلمه.. انشغلتا بتقسيم التركة التهرول شاهيناز تحتضنه تغمره بقبلاتها وحنان لم يتذوقه.. بينما اطمأن إليها يبادلها مشاعر الوئام طلبت منه أن يناديها بكلمة "ماما".. تلعثم لسانه فلم يتعود أن ينطقها.. غمرته بقبلاتها ليصرخ سعيدًا: "ماما.. ماما".

19

لا أحد يزرع الشوك.. ولا أحد يريد حصاده.. يفرض وجوده.. نكتوي بثماره نعيش في الحياة نتقلب ونشقى.. نسعى نحو الغد.. تحملنا أحلامنا تطاردنا همومنا والأيام تسرع الخطى تتفاوت آلامها تتباين الأشجان والآهات يظل الإنسان يبحث عن ذاته ربما يبحث عن السعادة وهو في حقيقة الأمر لا يعرف معناها.

ما زالت الأفكار تتلاعب بيوسف وهو يرقد في المستشفى يقاوم آلام فراق ابنه التي تفوق ألم الكسور والإصابات التي لحقت بجسده من جرَّاء الحادث الذي تعرض له.. ينتظر بلهفة ما سيسفر عنه لقاء زوجته بابنه طارق.. كان بوده أن يذهب معها يحتضنه يغمره بحنانه وقبلاته لكن حالته لا تسمح.

يدخل الأستاذ إبراهيم ضاحكاً مستبشرًا.. يحتضنه يوسف قائلاً:

- شكرًا يا أستاذ إبراهيم.. خطتك كانت عظيمة وحققت نتائج مبهرة.

- الحمد لله نجحت خطتنا ووقع عمران في الفخ عندما اتصلت بمحاميه أخبره أنك مت في الحادث وكما توقعنا انكشف ملعوب عمران وأسرع بإحضار طارق.. لكن الله كان له بالمرصاد والحمد لله كتب النجاة لطارق.

صاح يوسف:

- أريد أن أرى طارق.

- ألا تريد أن ترى يوسف؟

صاح يوسف مندهشًا:

- يوسف؟! يوسف من؟

- ابنك وأخو طارق.. من فرط حب شاهيناز لك أصرت أن تطلق اسمك على المولود الجديد.

أغمض يوسف عينيه يأخذ نفسًا عميقًا ليكمل الأستاذ إبراهيم حديثه:

- عموما هناك مفاجأة.. ادخل واظهر عليك الأمان.

تدخل شاهيناز تحمل رضيعها وبجوارها طارق يتعلق بيديها.. تندفع نحو يوسف يحاول أن ينهض ترتمي في أحضانه يفتح ذراعيه يضم أسرته.. زوجته وولديه.. يغمرهم بدموعه.. لا يصدق.. يتمتم بكلمات الشكر والحمد لله.. الآن طارق يعود لأحضانه.. كم كان الانتظار طويلاً! معركة

شرسة لقي فيها صنوفًا من العناء والشقاء.. يبكي الأستاذ إبراهيم.. أخيرًا تحقق الحلم.. يبارك ليوسف عودة ابنه.. شاهيناز تود لو أن عجلة الزمن توقفت عند هذه اللحظة.. فقد أشرقت شمس الحق.. الآن ستتحول حياتها لحديقة غناء تتنفس نسيم السعادة والهناء.. قامت تفتح النافذة تستقبل أشعة الشمس الزاهية تحتضن النسيم.. يوسف يحتضن ولديه طارق ويوسف.. طارق يبادله المشاعر كأنه يستعيد من الذاكرة هذا الحنان الذي حُرم منه.. يحاول الأستاذ إبراهيم مقاومة بكائه قائلاً:

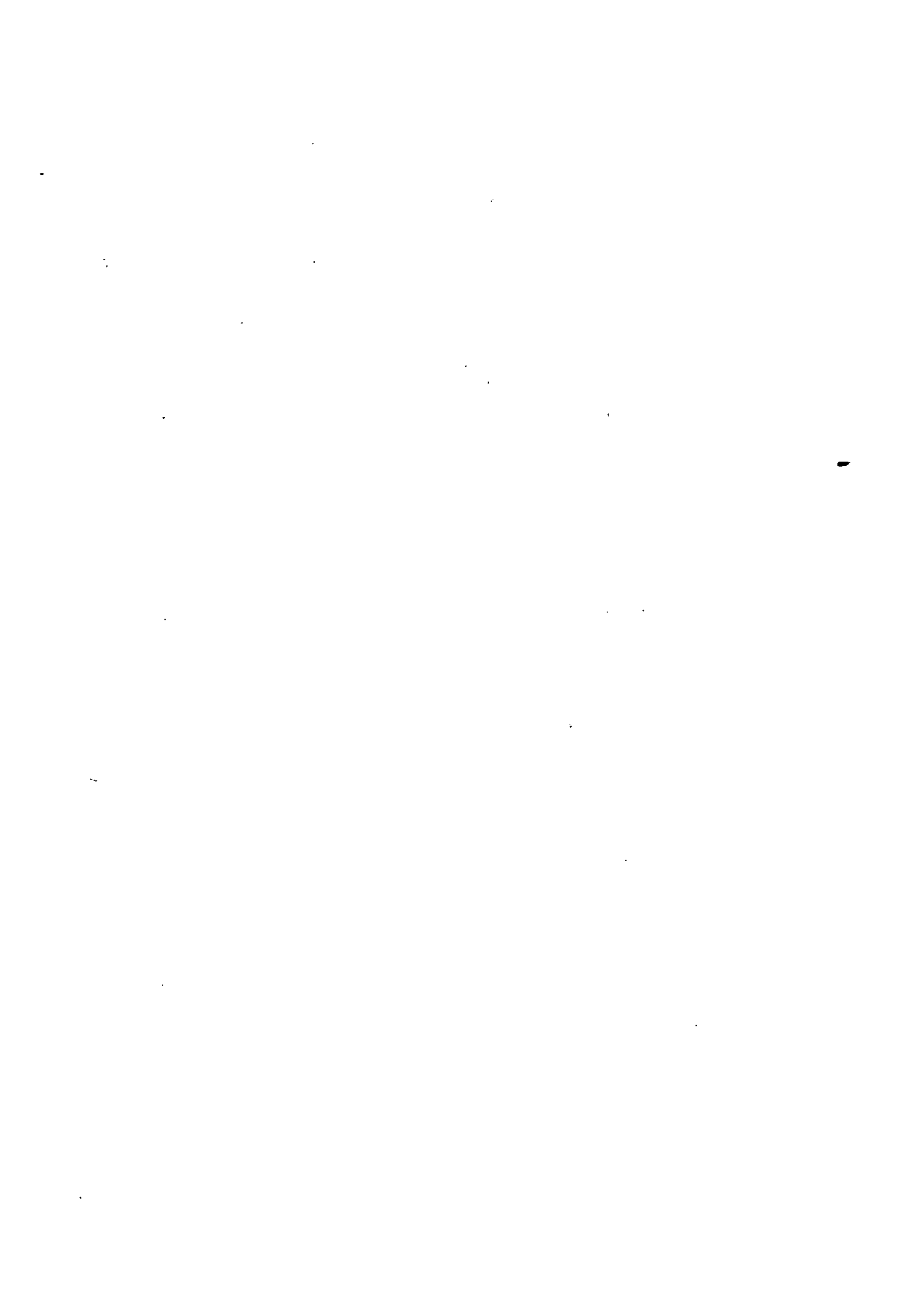
- الآن عاد الحق..

يتطلع يوسف بنظره خارج النافذة يناجي الشمس في أوجها وكبريائها:

- شمس الحق بدأت تشرق.. بقي أن أغير اسمه إلى طارق يوسف.

تمر أيام قليلة ويخرج يوسف من المستشفى يتأبط ذراع زوجته التي تحمل رضيعهما وطارق يجري أمامهما يلهو وخلفه الأستاذ إبراهيم يداعبه ويلاطفه.. تطلع يوسف نحو الشمس رآها تبتسم تشاركهم الفرحة.

تبقى السعادة بعودة الحق خير عوض عن تلك الآهات والدموع.. تبقى الحياة تطوي أيامها والإنسان على أرجائها يتقلب بين أحزانها وأفراحها.







الضائع بين يدىّ

محمد صلاح زكريا

رغم مرارة أشجان يوسف، لكن كارثة العبارة زادت آلامه وانسكبت دموعه وهو يتابع على شاشات التلفزيون جثث أبناء مصر تصل تباعا، يتابع في الصحف روايات متباينة وتحليلات متفاوتة عن الكارثة.. لكن يبقى صاحب العبارة بعيدا بلا مسئولية ولا محاسبة!..

و سائل الإعلام تعرض صور البسطاء من أبناء مصر وقد هرعوا إلى سفاجا يبحثون عن ذويهم، وجوه ممصوصة ذابلة شاحبة اللون حفر الزمان عليها البؤس والأسي.. مرارة تطل من أعينهم..

يوسف يكاد يجن مما يسمعه - رغم ما فيه - لكن الكارثة أكبر..

